

العار

لاجا

تسليمة نصرين

ترجمة وتقديم: عصام زكريا

لاچـا.. العـار

لاچـا - العار

الطبعة الاولى: يونيو ١٩٩٦

الترقيم الدولى: 977 - 19 - 4413 - 3

رقم الإيـــداع: ٥٨٨٢٩ – ٩٦

تصميم الغلاف: محمد الصباغ

جرافيك: محمد كامل مطاوع

خطوط الغلاف : لمعى فهيم

كمبيوتر : كايرو ميديا

العـــار

لاچــا

ترجـمـة وتـقـديـم: عـصــام زكــريـــا

مطبوعات دار الخيَّال

إهـــداء

إلى مابقى من هؤلاء:

رفاعـــة الطهطـــاوى . . وكلية الألسن

طــــه حســــين . . و حـــرية التفكـــير

قــــاسم أمـــين. . و حـــرية المـــرأة

عصام زكريا

قبل أن تقرأ هذه الأحداث

العار... والاضطهاد الفكرى

فى الرابع من يونيو ١٩٩٤ أدانت محكمة دكا عاصمة بنجلاديش الأديبة تسليمة نصرين بالسجن لمدة عامين بتهمة الكفر والإساءة للإسلام.

قبل صدور الحكم وبعده اندلعت عشرات المظاهرات فى دكا والمدن المحيطة نظمها الأصوليون الدينيون، وسار فيها الآلاف يهتفون بالشعارات التى تلعن الأديبة الشابة وتطالب بقتلها.

أحد المتطرفين هدد بإطلاق آلاف الثعابين السامة فى المدينة إذا لم تعدم نصرين.. وأعلن زعيم دينى من رجال الأعمال عن تخصيصه لمكافأة قدرها ١٠٠ ألف تاكا بنغالية - حوالى ٢٥٠٠ دولار - لمن يأتى برأسها!

قبل شهور، فى يناير من نفس العام كان المتظاهرون قد خرجوا لأول مرة يهتفون ضد نصرين: «اكسروا ساقيها! اكسروا ساقيها!»، وكانت الجماعة الإسلامية البنغالية قد هددت بتنظيم إضراب عام فى البلاد إذا لم تسارع الحكومة بتقديمها للمحاكمة.

قبل ذلك بشهور أخرى، فى سبتمبر ١٩٩٣، طالبت مجموعة من شيوخ القرى البنغالية المعروفة باسم «مجلس جنود الإسلام» بشنق تسليمة نصرين خلال ١٥ يوماً بتهمة الكفر وتأليف كتابات «تتآمر على الإسلام»، وكان هذا البيان بداية الحملة على نصرين وكتبها من خلال شحن الرأى العام والمشاعر الدينية من ناحية والضغط على

حكومة الحزب الوطنى البنغالى الحاكمة من ناحية أخرى.

حكومة رئيسة الوزراء خالدة ضياء التى تزعم أنها ديمقراطية وعلمانية لم تفعل شيئاً للدفاع عن الأديبة المهددة بالقتل أكثر من تخصيص بعض الحراس لحمايتها، ولم يصدر عنها بيان أو كلمة واحدة تدافع عن حرية التفكير والتعبير، ولكنها قدمت نصرين للمحاكمة التى أسفرت عن الحكم عليها بالسجن لمدة عامين.

لفتت هذه الأحداث أنظار العالم إلى بنجلاديش وتسليمة نصرين، وتبنى عدد من الهيئات والحكومات الغربية قضية الأديبة المعرضة للسجن والموت، ومن بينها «نادى القلم» فى السويد ومنظمة العفو الدولية وبعض وزارات الخارجية - مثل ألمانيا - التى عرضت على تسليمة نصرين اللجوء السياسى إليها. وشكل هذا الاهتمام ضغطاً من نوع آخر على الحكومة البنغالية التى تمارس الديكتاتورية والفساد ولاترغب فى أن تبدو همجية أيضاً أمام العالم، فتوصلت إلى حل وسط يرضى الجانبين.

فى أغسطس ١٩٩٤، بعد شهرين من صدور الحكم واختفاء تسليمة نصرين، ظهرت الأديبة الهاربة مرة أخرى لتواجه المحكمة، حيث أقلتها سيارة مغطاة ومحاصرة بالحراس المدججين بالسلاح إلى قاعة المحكمة.

استمرت جلسة الاستئناف خمساً وأربعين دقيقة، وانتهت بالتأجيل والإفراج عن المتهمة بكفالة قدرها ٢٥٠ دولاراً.

كان واضحاً أن هذا الحكم سبق ترتيبه بين محامى نصرين والحكومة التى أرادت أن تتيح لها فرصة الهروب من البلاد بدليل أن الحكم جاء غير مشروط بمنعها من السفر، كما أن الحكومة أعادت إلى تسليمة جواز سفرها الذى سبق أن سحبته منها منذ عام.

بعد أيام سافرت تسليمة نصرين إلى النرويج لحضور مؤتمر عن حرية الرأى، ومن يومها لم تعد إلى بلادها.

كان هذا هو الفصل الأخير الذى ستحتاج إلى إضافته بعد قراءة هذه الرواية.

ولكن الرواية ستفقد الكثير من معناها ودرجة فهمك لأحداثها إذا لم تعرف الظروف السياسية والاقتصادية التى تعيش فيها بنجلاديش، والتى أدت إلى الأحداث الدامية التى استلهمت منها تسليمة نصرين روايتها، والأحداث التى تتناولها الرواية نفسها، ثم الأحداث التى أعقبت نشرها.

**

فى السادس من ديسمبر ١٩٩٢ هدم المتطرفون الهندوس مسجد مدينة أيودها - المعروف باسم مسجد «بابرى» - فى ولاية «أتار بريشاد» الهندية بحجة أن المسجد الذى يعود عمره إلى خمسمائة عام يضم رفات راما نبى وإله الهندوس، الذى هو شخصية أسطورية، كما يشير أحد شخصيات الرواية!

كان وراء هدم المسجد أفكار حزب «بهاراتيا جاناتا» اليمينى القومى المتطرف وسلبية حزب «المؤتمر» الحاكم وبقية الأحزاب والسياسيين ومباركة رجال الشرطة!

وأدى هدم المسجد إلى وقوع أحداث عنف دامية بين الأغلبية الهندوسية والأقلية المسلمة راح ضحيتها مئات القتلى وآلاف الجرحى من الجانبين.

فى باكستان وبنجلاديش عبرت الأغلبية المسلمة عن غضبها على هندوس الهند بالانتقام من الأقلية الهندوسية فى كلا البلدين وهو ماأثار غضب الأديبة البنغالية تسليمة نصرين فكتبت هذه الرواية تعبيراً عن غضبها على الطائفية بشتى أنواعها وعن إدانتها لما قام به أبناء بلدها المسلمون ضد أبناء بلدها الهندوس من اضطهاد وظلم بيّن.

لم يكن قصد الرواية أن تطعن فى الإسلام أو تشكك فى مبادئه، ولم يكن قصدها الهجوم على الإسلام ولكن على المسلمين، ليس على المسلمين كلهم، ولكن على بعض المسلمين الذين يسكنون بنجلاديش، ليس كل المسلمين الذين فى بنجلاديش ولكن بعضهم، المتطرفون منهم الذين ارتكبوا المذابح والاعتداءات الوحشية على آلاف من أبناء وطنهم الأبرياء.

الرواية لاتدين التطرف الإسلامى فقط، ولكن كل أنواع التطرف الدينى التى تملأ

عالمنا وتهدد أركانه بالحروب والمذابح ومختلف أنواع الاضطهاد، سواء كان ذلك فى الهند وبنجلاديش أو فى البوسنة والهرسك أو فى أوروبا نفسها، طبعاً مع اختلاف نوعية الأحداث، ودرجتها وتقبل المجتمع وقوانينه لها.

رواية «العار» لاتكتفى بإدانة التطرف والمتطرفين، ولكنها تدين بشدة المثقفين الذين يزعمون أنهم تقدميون وديمقراطيون وعلمانيون، بينما الطائفية تتغلغل تحت جلودهم، كما تدين السياسيين والأحزاب التى تفعل أى شىء من أجل الفوز بالانتخابات والاحتفاظ بالكراسى بغض النظر عن المبادىء التى أسست هذه الأحزاب من أجلها، أو الخطر الذى يعرضون له البلاد بتنازلهم عن هذه المبادىء. ولاتكتفى الرواية بذلك بل تدين أيضاً سلبية الأقلية وقلة استعدادها للدفاع عن حقها والبقاء فى وطنها.

أحداث الرواية لم تنته بعد. إنها لاتزال تدور فى بنجلاديش والهند وباكستان وكشمير بل وتزداد تصاعداً.

خلال الأسابيع الأخيرة من شهر مايو ١٩٩٦، أثناء الانتهاء من إعداد هذا الكتاب للنشر فاز حزب «بهاراتيا جاناتا» المسئول عن هدم مسجد بابرى بانتخابات الحكومة لأول مرة فى تاريخ الهند.

فى نفس الوقت ازدادت حدة الصراع بين الانفصاليين فى إقليم كشمير وبين الحكومة الهندية، ويخيم على الإقليم، لاشبح الحرب الأهلية فحسب، ولكن الحرب بين الهند وباكستان إذا تدخلت الأخيرة فى الصراع كما هو متوقع.

فى باكستان انفجرت القنابل فى أكثر من مكان والفاعل مجهول.. اتهمت الحكومة الباكستانية الهند بأنها وراء هذه الانفجارات.

فى بنجلاديش ضرب البلاد إعصار عنيف أدى لموت حوالى ألف شخص وتشريد مئات الآلاف، فى وقت يعانى فيه البلد أيضاً من اضطرابات سياسية وأحداث عنف بين الحكومة والمعارضين. وقد أقال رئيس بنجلاديش عبد الرحمن بسواس قائد الجيش الذى كان يدبر لانقلاب، وخيم شبح الحرب الأهلية بين قوات الجيش المؤيدة للحكومة والمعارضة لها على شوارع العاصمة المتوترة أصلاً.

ويستفيد حزب «الجماعة الإسلامية» من الاضطراب السياسى والفساد الذى تعانى منه الحكومة لكسب مزيد من الأصوات فى الانتخابات القادمة، على أمل أن يفوز بحكم البلاد كما حدث للحزب اليمينى المتطرف فى الهند.

إن قراءة الرواية دون قراءة الواقع السياسى والاجتماعى لبنجلاديش والمنطقة المحيطة بها هو ظلم لها ولصاحبتها ولأنفسنا أيضاً، كما أن قراءة هذا الواقع بدون الرجوع إلى جذوره قد لايؤدى إلى الفهم، بل إلى مزيد من الغموض والحيرة مما يجرى فى هذه البلاد القريبة منا، فى المكان والتاريخ والتخلف أيضاً. قريبة ولكن غير متماثلة بالتأكيد، ولنترك لذكاء القارىء اكتشاف مواطن التشابه ومواطن الاختلاف.

**

بنجلاديش ولدت من رحم الطائفية والانقسام.

الاستعمار البريطانى - بكل أسف - كان يوحد شبه القارة الهندية، حتى بالرغم من أنه استخدم سياسى «فرق تسد»، لأن الاستعمار كان فى النهاية عدواً مشتركاً يوحد أبناء الوطن الواحد وينسيهم صراعاتهم الداخلية.

اليوم الذى حصلت فيه الهند على استقلالها عام ١٩٤٧، كان هو نفس اليوم الذى قسمت فيه إلى الهند برئاسة جواهر لال نهرو وباكستان برئاسة محمد على جناح. من باكستان ولدت بنجلاديش بعد ربع قرن من الصراع بين الجزء الشرقى الناطق بالبنغالية وبقية باكستان الناطقة بالأردية.

فى الحالتين لم يكن لانقسام شبه القارة دوافع دينية (واضحة على الأقل).

محمد على جناح كان مسلماً ينتمى للطائفة الإسماعيلية واسمه الأصلى جنابهاى خوجانى، وقد وعد مواطنى باكستان من مختلف الأديان بالمساواة.

لكن صراع الأخوين قابيل وقابيل (!) بدأ بين الهند وباكستان منذ اليوم الأول. الهند ذات الأغلبية الهندوسية اضطهدت المسلمين وباكستان ذات الأغلبية المسلمة ردت بالمثل.. لدى الشعوب حديثة الاستقلال، أى حديثة النضج، التى تعانى من الجهل والفقر وقصر «الرؤية»، فإن الدين أهم من الوطن والرخاء والحياة نفسها،

طالما أن الأخيرة تظل أحلاماً صعبة، إن لم تكن مستحيلة التحقق.

لقد بدأت المعارك بين الهندوس والمسلمين منذ اليوم الأول للتقسيم. مع يونيو ١٩٤٨، قبل مرور عام على جلاء القوات البريطانية، هاجر ١١ مليون هندوسى من شرق باكستان إلى الهند.

معارك الحدود والداخل بين الطرفين لم تتوقف إلا بتوقيع معاهدة «نهرو - لياكوات» التى نصت على السماح للأقليات فى كلا البلدين بالتمتع بكافة حقوق المواطنة مع الأغلبية. ويعنى هذا ببساطة أن الأقليات فى كلا البلدين تعتمد على معاهدة مع بلد أجنبى يكفل لها الحماية داخل وطنها!! أى أن سلامة المسلمين فى الهند تعتمد على سلامة الهندوس فى باكستان، والخطر الذى يهدد هندوس باكستان بات يهدد مسلمى الهند!!

فى ١٩٥١ أصدر المجلس التشريعى الباكستانى قانونين، أصبح من حق الحكومة بموجبهما أن تستولى على ممتلكات الهندوس الذين يغادرون البلاد. وبدلاً من أن يشجع هذا الهندوس على البقاء حفاظاً على ممتلكاتهم وخاصة أنهم كانوا يملكون النصيب الأكبر من الأراضى الزراعية، أدى على العكس إلى مزيد من الاضطهاد لإجبارهم على الهجرة. والنتيجة هى نزوح ٣,٥ مليون هندوسى آخر إلى الهند.

وفى ١٩٧١ استقلت باكستان الشرقية لتصبح بنجلاديش، بعد نضال وطنى وقومى طويل تعرض فيه الثائرون، وخاصة الهندوس منهم إلى القمع والقتل على يد جنود النظام الديكتاتورى الحاكم.

المتعصبون للدين على حساب الوطن والهوية الثقافية هم فقط الذين عارضوا الاستقلال خلال مرحلة النضال.

لقد خلعت بنجلاديش عباءة الطائفية الهندوسية ـ أولاً ـ باستقلالها عن الهند، ثم خلعت عباءة الطائفية الإسلامية ـ ثانياً ـ باستقلالها عن باكستان. ولذلك ولدت كدولة قومية وعلمانية (النية) وتأسس دستورها على مبادىء علمانية ترفض التمييز أو التفريق بين أى مواطن وبقية المواطنين بسبب دينه أو اعتقاده.

ولكن، كما نعلم وإن كنا نحتاج إلى البراهين كل حين، فإن مناخ الفقر والجهل والديكتاتورية هو مناخ لايصلح على الإطلاق لزراعة وازدهار العلمانية، التى يجرى تصنيفها تلقائياً فى هذا المناخ على أنها مرادف للكفر الذى يورث النار، بينما التعصب للدين والطائفية، خاصة وسط الفقر والمعاناة، هما مفتاح الجنة التى تعوضنا عن الحياة فى هذه الظروف البائسة. ذلك أن الموت - وليس الدين - هو الخصم الحقيقى للعلمانية، التى تعنى الحياة على هذه الأرض بقوانين هذه الأرض، بينما الدين عند البؤساء من الناس يعنى الحياة بعد الأرض (التى لاأمل يرجو من العيش فيها) أى بعد الموت، ومن هنا يأتى اللبس حيث يرفض هؤلاء قوانين الحياة من أجل قوانين الموت!

هذا التفلسف سوف توضحه الإحصائيات والأرقام الآتية، التى تقدم لنا بنجلاديش كنموذج لفشل العلمانية وانتشار الطائفية - مع أنها ولدت ضد ذلك - لأنها بحكم الهندسة الوراثية الاقتصادية والفكرية محكومة بمناخ يسيطر عليه الموت:

بنجلاديش هى أفقر بلد فى العالم، يسكنها ١٢٠ مليون نسمة، يعيش منهم ٨٥٪ تحت خط الفقر، ومنهم ٢٥ مليون عاطل (ولذلك لن تندهش أن بطل الرواية عاطل رغم أنه تجاوز الثلاثين بعدة أعوام) مع ذلك تعانى بنجلاديش من نمو سكانى مرعب سيؤدى إلى تضاعف عدد السكان رغم أنها من أكثر بلاد العالم كثافة سكانية أيضاً. ويزيد الطين بلة أن الكوارث الطبيعية دأبت على ضرب بنجلاديش كل حين بالفيضانات والأعاصير والحرائق التى تهدد الزراعة قبل أى شىء آخر، علماً بأن ٦٧٪ من السكان يعملون بالزراعة، ولذلك تحدث المجاعات بين حين وآخر.

ووفقاً للإحصائيات أيضاً يحصل ٣٠ مليون من سكان بنجلاديش على ٢٠٠٠ سعر حرارى فقط يومياً، أى مايقل عن الحد الأدنى للإنسان بكثير، ويعانى هؤلاء من سوء التغذية المزمن، والمتوسط العام لنصيب المواطن البنغالى من السعرات الحرارية هو أقل متوسط فى العالم. ولذلك يهاجر آلاف السكان كل عام، الهندوس منهم إلى الشرق (الهند) والمسلمون منهم إلى الغرب (السعودية وأوروبا وأمريكا!) ويحلم كل بنغالى تقريباً بالهجرة إلى أمريكا، كما يؤكد تقرير صحفى نشر فى مايو ١٩٩٦،

يشير إلى أن ملايين المواطنين من بنجلاديش توافدوا على مكاتب البريد خلال أيام معدودة لملء طلب الهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى إطار برنامج الهجرة الذى وضعته أمريكا لعام ١٩٩٧ .نسبة الأمية فى بنجلاديش تزيد على ٦٥٪ ومع ذلك بها عدد كبير من الأطباء معظمهم يحصلون على شهاداتهم من ماليزيا والدول العربية ولكنهم لايجدون عملاً فى بلادهم.

وقد حصلت بنجلاديش على معونات تنمية من الخارج خلال السنوات الأخيرة تزيد على ١٧ مليار دولار ولكنها لم تفد المواطنين بشىء غالباً بسبب الفساد الذى يعم أجهزة الدولة والحكومة. ولاتخلو بنجلاديش من التناقض الطبقى الصارخ، كما يتمثل فى العاصمة دكا، حيث الحى الراقى لرجال التجارة والأعمال تحيط به العشوائيات المحرومة من المرافق الأساسية كالماء والكهرباء.

فى الهند فقر وجهل أيضاً ولكنها لاتعانى من الديكتاتورية بل تتمتع بواحد من أفضل الأنظمة الديمقراطية فى العالم، ولذلك تستطيع العلمانية أن تسير فيها بخطوات متعثرة.

فى باكستان فقر وجهل وكثير من الديمقراطية، ولذلك تستطيع العلمانية أن تسير أيضاً، رغم أن باكستان، على عكس الهند وبنجلاديش ولدت على أسس من بينها الطائفية.

بنجلاديش التى ولدت علمانية لم تنعم بالديمقراطية أبداً.

خلال ٢٥ سنة منذ الاستقلال شهدت البلاد ٣ انقلابات عسكرية و١٣ عاما من الحكم العسكرى، واغتيالين لزعيمين هما مجيب الرحمن وضياء الرحمن، كما شهدت ١٨ محاولة إنقلابية باءت بالفشل ! !

مع بداية التسعينيات سقط النظام الديكتاتورى بزعامة الجنرال إرشاد، وأجريت أول انتخابات حرة عام ١٩٩١ فازت بها خالدة ضياء أرملة الديكتاتور المغتال ضياء الرحمن، ولكن الأخطار أحاطت بالديمقراطية الوليدة منذ البداية: تصارعت الأحزاب على السلطة بوحشية وهمجية داخل البرلمان وخارجه، بل وتحولت إلى معارك شخصية وقبلية. الشيخة حسينة ابنة الشيخ المغتال أيضاً مجيب الرحمن

ورئيسة حزب «رابطة عوامى» دخلت صراعاً شرساً ضد خالدة ضياء رئيسة الوزراء و«الحزب الوطنى البنغالى» الحاكم. خلال هذا الصراع استخدمت خالدة قوات الشرطة ونفوذها كرئيسة للحكومة، بينما استخدمت حسينة أحزاب الجماعات الإسلامية والمؤيدين لها.

وفى المواجهات بين المعارضة والحكومة لقى أكثر من ألفى طالب جامعى مصرعه وأصيب أكثر من سبعة آلاف آخرين على أيدى قوات شرطة خالدة ضياء أول من فازت بحكم البلاد عن طريق الانتخابات الحرة!!

وطوال السنوات الخمس التى قضتها خالدة فى الحكم سيطر الفساد والقمع والاغتيالات السياسية للمعارضين، وقد تأجلت انتخابات ١٩٩٦ عدة مرات بسبب حوادث العنف بين الحكومة والمعارضة. وبالإضافة إلى صراع الشيخة حسينة وخالدة ضياء دخلت الساحة السياسية امرأة أخرى هى روشان أرملة الجنرال المخلوع إرشاد، والتى توعدت كلا من خالدة وحسينة بالانتقام. ولاتتصوروا أن دخول كل هؤلاء النساء معترك الحياة السياسية هو علامة على الحرية وتقدم وضع المرأة فى البلاد، بل هو علامة على القبلية المتأصلة فى العقول، لأن كلهن زوجات أو بنات لزعماء راحلين، ولايهم فى هذه الحالة مدى جدارتهن السياسية لأن النسب العائلى يكفى!

فى انتخابات ١٩٩١ لم يحصل حزب «الجماعة الإسلامية» سوى على ١٠٪ من الأصوات رغم أن عدد المسلمين فى البلاد يصل إلى ٨٠٪. ولكن مع ماأشرنا إليه من فوضى سياسية وفساد وعنف وقمع فقد قويت شوكة الجماعة الإسلامية جداً خلال السنوات الأخيرة وتمثل ذلك فى أحداث عديدة من بينها ماحدث لتسليمة نصرين وروايتها وكذلك الأحداث التالية:

غلام عزام شيخ متطرف تعاون فى صباه مع النظام الباكستانى قبل حصول بنجلاديش على الاستقلال. وقد عاش فى باكستان قبل أن تلاحقه حكومتها بسبب نشاطاته المتطرفة، فلجأ سياسياً إلى بنجلاديش، حيث اتهم بعد فترة بالتورط فى نشاطات معادية للقومية وقدم للمحاكمة، فانقسمت ردود الفعل لدى الأحزاب

السياسية بشأنه (سوف نجد ذكراً له ولمحاكمته أكثر من مرة خلال الرواية. وكان وقتها لايزال يحاكم). المهم أن المحكمة برأته فى النهاية وقد أصبح رئيس حزب «الجماعة الإسلامية» وكان آخر تصريح أدلى به قبل انتخابات ١٩٩٦ أنه سيطبق الشريعة الإسلامية إذا فاز حزبه بالانتخابات، وأنه سيقطع أيدى اللصوص ويرجم المغتصبين والزناة حتى الموت، وذلك فى بلد يعانى من الظروف سابقة الذكر!

من غرائب قوة الجماعات الدينيةأيضاً أنها أجبرت الحكومة على طرد كل وفود المعونات الاقتصادية الدولية لأنها غربية! وحتى بنك «جرامين» الذى أسسه رجل أعمال بنغالى وطنى اسمه محمد يونس بهدف منح القروض الصغيرة لملايين الأسر الفقيرة لتكوين مشروعات منزلية صغيرة إنقاذاً لهم من الفقر، وهى تجربة أشاد بها الكثيرون فى مختلف أنحاء العالم، نقول حتى هذا البنك تعرض لهجوم شرس من المتطرفين بحجة أن إحدى النساء فشلت فى مشروعها فباعت حلق أنفها لتسديد القرض فانتحر زوجها لإحساسه بالعار!! طبعا أسباب الهجوم على مثل هذا البنك ومؤسسات الرعاية الأخرى واهية ويلبسونها عباءة دينية أو إنسانية بهدف واضح هو قتل كل شيء فى البلد استعداداً لبناء المدينة الفاضلة والجنة الأرضية..

**

إذا تذكرتم الحقائق السابقة جيداً أثناء قراءة الرواية فلن تجدوا صعوبة فى فهم أحداثها، ودوافعها ومبرراتها، وبالتالى التعرف على منبع الغضب والرفض الذى تشربت منه الكاتبة غضبها ورفضها وجرأتها أو تهورها وتطاولها إذا رأى البعض ذلك. وسيكتمل فهمنا أكثر إذا عرفنا من هى تسليمة نصرين:

ولدت تسليمة نصرين فى مدينة ميمنسنج على بعد ٩٠ كم من العاصمة دكا (حيث تجرى أحداث طفولة الشخصيات الرئيسية) لأسرة مسلمة عام ١٩٦٣، فى ذروة الصراع البنغالى الباكستانى، وتفتح وعيها على الحصول على الاستقلال عام ١٩٧١، وماأعقبه من آمال عظيمة وخيبات كبيرة.

واهتمت تسليمة نصرين منذ طفولتها بشكل خاص بوضع المرأة فى المجتمع ككائن من الدرجة الثانية.

فى سن الخامسة عشرة بدأت بكتابة موضوعات نسائية تعكس الهم الذى تعانيه من التفضيل والتمييز الذى يحظى به إخوتها الذكور ولاتحظى به لأنها أنثى.

جاهدت تسليمة منذ البداية وقررت أن تتفوق فى دراستها وبالفعل تخرجت من كلية الطب ومارست المهنة لفترة قصيرة قبل أن تهجر الطب نهائياً وتتجه إلى الكتابة لأنها ـ كما تقول ـ رأت أن الناس فى بلدها يحتاجون إلى علاج النفس والعقل قبل البدن.

وراحت تسليمة تكتب القصص والأشعار والمقالات الصحفية التى تدافع فيها عن حرية المرأة والمساواة، وتهاجم أوجه التخلف العديدة فى المجتمع.. وقد صدر لها قبل رواية «العار» ١٤ كتاباً، كان من أكثرها مبيعاً كتاب يضم مجموعة من مقالاتها الصحفية المثيرة.

وحتى قبل رواية «العار» كان المحافظون يهاجمونها بشدة بسبب انحيازها إلى المرأة وتطرقها إلى موضوعات محظورة مثل الجنس عند النساء واغتصاب الأزواج لزوجاتهم والرجال الذين «يعاملون النساء مثل المقتنيات والحلى الذهبية التى تباع وتستبدل، ثم ينبذوهن عندما يتقدمن فى العمر» كما تقول فى إحدى مقالاتها.

ومنذ ١٩٨٨ بدأت تسليمة نصرين تركز هجومها على مايقوم به المتطرفون والأصوليون الذين يزداد نفوذهم باستمرار فى بنجلاديش وتجلى ذلك فى مزيد من الاضطهاد للنساء والأقليات وقد هاجمت بشدة ظاهرتى قتل الأطفال البنات ورجم النساء اللواتى يتهمن بالزنا، وهاجمت بالمثل الحكومات التى تتملق الأصوليين من أجل كسب تأييدهم فى الانتخابات.

تزوجت تسليمة نصرين ثلاث مرات وطلقت وقد استولت عليها هذه التجربة الفاشلة فى أعمال كثيرة هاجمت فيها الرجال. فى قصيدة لها بعنوان «الزفاف» كتبتها عام ١٩٨٧ تقول:

«حياتى استولى عليها رجل شيطانى

إنه يريد أن يملك جسدى

كلما شاء»

وفى قصيدة أخرى تقول:

«إذا طاردكِ كلب

حذار

هذا الكلب مصاب بالسعار

وإذا طاردكِ رجل

حذار

حذار

فهذا الرجل مصاب بالزهرى»

وفى رواية «العار» يبدو موقف تسليمة واضحاً من الرجال والنساء، فالرجال باستثناء الأب العاجز يعانون من انهيار شامل فى القيم والمبادىء والقدرة على الفعل بينما النساء هن اللواتى يتحملن عبء الأحداث ومسئولية مواجهتها.

بعد أحداث عنف ديسمبر ١٩٩٢ فى الهند وبنجلاديش كتبت تسليمة نصرين رواية «العار» خلال أيام معدودة فى وقت ارتكاب الأحداث، وربما يكون هذا واضحا فى المشاعر الساخنة الغاضبة التى كتبت بها الرواية. وقد تضامنت تسليمة بشكل لاتوازن ولاوسطية فيه مع محنة أبناء بلدها الهندوس وقد قالت عن ذلك:

«بالرغم من أننى لست هندوسية إلا أننى شهدت اضطهادهم الشديد.. وعندما أحرقت معابدهم انتقاماً لتدمير مسجد أيودها شعرت بعذاب محنتهم».

قد يرى البعض أن الرواية منحازة، وهذا صحيح، ولكن هذا سر قوتها فى الحقيقة، لأن الغضب والخجل اللذين ينشآن عن قراءتها، لم يكن لهما أن يوجدا إذا كتبت الرواية بديبلوماسية ووسطية وهدوء.

فور صدورها بيع ستون ألف نسخة من الرواية خلال شهور معدودة، قبل أن تصدر حكومة خالدة ضياء قراراً بمصادرتها لأنها تسىء إلى الوحدة الوطنية!

وفيما بعد عندما تصاعدت الأزمة قال متحدث باسم وزارة الخارجية البنغالية للصحف الأجنبية بأن هناك «ملاحظات قليلة فى الرواية تؤذى مشاعر المتدينين لدى قطاع كبير من الناس».

لم تتراجع تسليمة نصرين عن مواقفها أو تخفف من غلوائها بعد مصادرة الرواية.. على العكس ازدادت مواقفها تطرفاً على الجانب الآخر.

ترجمت الرواية إلى الإنجليزية، ثم قام أحد المتطرفين الهندوس من حزب «بهاراتيا جاناتا» بالاستشهاد بأحداث منها خلال دفاعه عن أفكاره المعادية للمسلمين فى البرلمان الهندى.. وأجرت صحيفة «ستايتسمان» الهندية حواراً مع تسليمة جاء فيه على لسانها أن القرآن يحتاج إلى «مراجعة شاملة»!

وثارت الدنيا على تسليمة مرة أخرى، ليس فقط لأنها تهاجم الإسلام ولكن لأنها تهاجمه فى صحيفة هندية.. وفى هذه المرة لم تكن هناك رحمة..

حتى بالرغم من أنها نفت ماجاء على لسانها وقالت أن الصحفى الهندى لم يفهم ماكانت تقصده، وهو أن الشريعة وتفسيراتها هى التى تحتاج إلى مراجعة. لكنها قالت أيضاً :

«كنت أقصد القرآن والفيدا والإنجيل وكل هذه النصوص الدينية التى أصبحت خارج المكان والزمان»!

انطلقت المظاهرات تطالب برأسها وحكمت المحكمة عليها بالسجن.

دافع عنها الغرب وحكومة الهند فازداد غضب الأصوليين أكثر، وانتهى الأمر بهروبها ولجوئها سياسياً إلى أوروبا حيث حصلت على التقدير وجائزة «نادى القلم» السويدية عام ١٩٩٤، وهى لاتزال تكتب للصحف الغربية مقالات تدافع فيها عن المرأة والعلمانية والحرية وتهاجم فيه الأصولية الدينية والتطرف.

فى بنجلاديش لاتزال الحكومة تؤكد أنها دولة تطبق المساواة بين مختلف الطوائف والأديان وأنها «نموذج للوئام العلمانى» على حد قول متحدث باسم الحكومة البنغالية، وأنها تؤمن بحرية الفكر والاعتقاد.

وكان يمكن أن نصدق ذلك لو أن رواية «العار» لم تصادر ولو أن تسليمة نصرين لم تتعرض لخطر السجن والموت بسبب أفكارها - مهما كانت هذه الأفكار.

**

بقيت عدة ملاحظات:

١) عنوان الرواية هو «لاجا» وهى كلمة بنغالية تعنى العار أو الخجل أو الذنب، وقد عرفت الرواية بهذا الاسم فى كل مكان، ولذلك أبقيت على العنوان بلغته الأصلية بجانب كلمة «العار» التى تعتبر أقرب مرادف للمعنى.

٢) هذه الترجمة عن النص الإنجليزى الذى نشرته دار «بنجوين» إحدى أهم دور النشر العالمية، وهو يختلف عن النص الأصلى للرواية فى الحجم، وليس المعنى، فقد أضافت الكاتبة إلى النص الأصلى الذى لايزيد على سبعين صفحة عشرات الصفحات الأخرى التى تحتوى على إحصائيات ووثائق ونصوص من الصحف والكتب، تسجل أحداث العنف أو مظاهر التمييز الطائفى فى مجالات الحياة المختلفة أو نصوص من الدستور والقوانين... الخ.

وفى الأحوال التى تكررت فيها المعلومات أو التى ضاعت فيها بعض الصفحات فى سرد عشرات الأسماء للمعابد أو القرى أو الناس كنت أقوم بالحذف بضمير مرتاح تماماً لثقتى بأنها لن تؤثر إطلاقاً على الناحية الفنية أو حتى من ناحية المعلومات التى تضيفها للقارىء.

إن قيام تسليمة نصرين بإضافة هذه النصوص التى هى عبارة عن معلومات جافة فى معظمها إلى النص الأدبى هو اعتراف منها بأن جمال الأدب ليس مايعنيها ولكن المضمون الذى يحمله الأدب، وقد أضافت هذه النصوص لتؤكد هذا المضمون ولتطلع القارىء الأجنبى على حقائق تساعده على استيعاب أحداث الرواية.

وكما لايمكن اعتبار ترجمة «بنجوين» ترجمة دقيقة للنص الأصلى، بل نصاً جديداً، أعتقد أن هذا ينطبق على هذه الترجمة العربية أيضاً، التى يمكن اعتبارها دراسة على النص، وعرضاً له، أكثر منها ترجمة حرفية، وهى المرة الأولى التى تصدر

بالعربية عن دار «الخيَّال» بالقاهرة.. وغنى عن القول أن هذا يحفظ حق الدار فى نشر تلك الطبعة باللغة العربية.

٣) أهدافنا من ترجمة هذه الرواية واضحة ويمكن توضيحها أكثر:

أولاً: تأكيد المبدأ الديمقراطى الذى يرفض المصادرة والمنع مهما كانت الأسباب، والدفاع عن حرية الفكر والتعبير بغض النظر تماماً عن مدى اتفاقنا أو اختلافنا مع مضمون هذا الفكر، وإعلاناً عن مساندتنا لتسليمة نصرين كأديبة وامرأة تجرأت على قول مالا يجرؤ على قوله (وأحياناً مالايجرؤ على أن يسمعه) الرجال!

ثانياً: مزيد من التأكيد على أننا نهاجم قبل أن نعرف ونكره قبل أن نفهم، بدليل هذه الرواية التى تختلف عما وصلنا عنها من أنها كفر وطعن فى الإسلام.. مع أن هدفها واضح تماماً وهو رفض الطائفية والتعصب فى كل الأديان، ورفض استخدام الدين كوسيلة للعدوان والاعتداء، ولو أنك غيرت كلمة الهندوس بالمسلمين والمسلمين بالهندوس فى هذه الرواية لحصلت على مايحدث فى الهند، أو فى البوسنة مثلاً، وفى هذه الحالة كنا سنقيم التماثيل لشجاعة تسليمة نصرين!

بالإضافة إلى ذلك وحتى لو خرجت من هذه الرواية وأنت تكرهها وتكره صاحبتها، نكون قد رسخنا مبدأ أن نقرأ ونعرف أولاً قبل أن نكون رأينا المستقل.

ثالثاً وأخيراً: أن أجواء هذه الرواية ليست بعيدة عنا وإن كانت غير قريبة أيضاً، فمع اختلاف الدرجة فإن العنف الطائفى والتعصب قد أصابا مصر فى أكثر من مكان وزمان، ولابد أن هذه الرواية ستلقى ببعض الضوء على جذور الطائفية والمناخ الذى تنمو فيه والعوامل الخارجية والداخلية التى تهيىء لنموها، وأيضاً المصير المظلم الذى يمكن أن نصل إليه إذا لم نفق من غفلتنا.

الصدمة والألم والقلق هى المشاعر التى تنتظرك فى الصفحات الآتية ولكنها قد تكون مفيدة حتى تتوقف لحظة لتعرف أين تضع قدميك!

عصام زكريا

القاهرة - يونيو ١٩٩٦

روايـــة

الـعـــــار

لاچـــا

إهداء المؤلفة

إلى شــعوب شــبه القارة الهندية

تسليمة نصرين

مقدمة المؤلفة

أنا أكره الأصوليين والطائفية . كان هذا سبب كتابتى لرواية " «لاچا» " فور هدم مسجد بابرى فى أيودها بالهند فى ٦ ديسمبر ١٩٩٢ . هذا الكتاب ، الذى استغرقت كتابته سبعة أيام يعالج اضطهاد الهندوس ، وهم أقلية دينية فى بنجلاديش ، على يد المسلمين ، الذين يشكلون الأغلبية إنه أمر مخز أن يتعرض الهندوس فى بلدى للملاحقه على يد المسلمين بعد هدم مسجد بابرى .

نحن الذين نحب بنجلاديش لابد أن ينتابنا الخجل من حدوث مثل هذا الشىء البغيض فى بلدنا الجميل .

أحداث عنف ١٩٩٢ فى بنجلاديش هى مسئوليتنا جميعا ، وعلينا يقع اللوم. نشرت «لاچا» فى فبراير ١٩٩٣ فى بنجلاديش ، وبيع منها أكثر من ٦٠ ألف نسخة قبل أن تصادرها الحكومة بعد خمسة أشهر ، وكانت حجتهم أنها تعكر صفو السلام الطائفى . وفى سبتمبر من نفس العام صدرت ضدى فتوى من إحدى المنظمات الأصولية أباحت دمى، وأعلنت عن مكافأة لمن يقتلنى. وشهدت شوارع دكا - عاصمة بنجلاديش - مسيرات، طالب فيها المتعصبون بقتلى . ولكن شيئاً من هذا لم يهز إصرارى على مواصلة المعركة ضد الاضطهاد والإبادة والطائفية الدينية، بنجلاديش هو وطنى، لقد حصلنا على استقلالنا عن باكستان مقابل حياة ثلاثة ملايين شخص إننا نخون هذه التضحية إذا سمحنا لأنفسنا بأن يحكمنا التطرف الدينى.

«آيات الله» سوف يقتلون أى شيء متقدم فى بنجلاديش إذا سمحنا لهم بالانتصار، واجبى هو أن أحاول حماية بلدى الجميل منهم وأن أدعو كل الذين يشاركوننى قيمى إلى مساعدتى فى الدفاع عن حقوقى .

مرض الاصولية الدينية لا يقتصر على بنجلاديش وحدها ، ولكن لابد من محاربته فى كل مكان . بالنسبة لى، لست خائفة من أى تحد أو تهديد لحياتى . سوف أواصل الكتابة والاعتراض على الاضطهاد والتعصب . وأنا مقتنعة بأن الوسيلة الوحيدة لايقاف قوى الأصولية هو أن نتضامن جميعا، نحن العلمانيين والإنسانيين ونحارب تأثيرهم المميت . أنا عن نفسى لن أسكت.

هذه رواية وكل شخصياتها من وحى خيالى، وأى تشابه تحمله مع أشخاص حقيقيين، أحياء أو موتى، هو مصادفة بحتة. لقد أضفت إلى النص حوادث عديدة ، أحداثاً تاريخية فعلية ، وحقائق وإحصائيات . وقد تحققت من صحتها بقدر استطاعتى ، ومصادر معلوماتى تضم : إكوتا ، إذكر كاجوز ، بهور ركاجوز ، جلانى (الخزى) ، الاضطهاد الطائفى فى بنجلاديش ، التعصب الطائفي فى بنجلاديش : حقائق ووثائق و باريشاد بارتا.

دكا ـ مارس ١٩٩٤

تسليمة ناصرين

ترتيب زمنى للأحداث

* ١٩٤٧ - تم تقسيم شبه القارة الى الهند وباكستان فى ١٥ اغسطس فى نفس يوم رحيل القوات البريطانية عن الهند. وتم تقسيم البنغال بالمثل، فأصبح شرق البنغال جزءاً من باكستان .

* ١٩٥٢ - البنغال الشرقية التى كانت معروفة بباكستان الشرقية شهدت حركة شعبية من أجل إعلان البنغالية لغة قومية .

* ١٩٦٦ - طُرح إتفاق من ست نقاط يقضى بالحكم الذاتى لباكستان الشرقية .

* ١٩٦٩ - ثار شعب باكستان الشرقية ضد النظام الحاكم الدكتاتورى.

* ١٩٧١ - فى مارس حصلت باكستان الشرقية على الاستقلال، وأصبحت دولة بنجلاديش المستقلة. على أية حال، استمر الصراع لتسعة أشهر أخرى، حتى انتهى بخروج آخر جندى باكستانى فى ١٦ ديسمبر ١٩٧١، وهو اليوم الذى أصبح عيدا قومياً باسم «بيچويا ديباس» أو «يوم النصر».

* ١٩٧٥ - أطاح انقلاب عسكرى بحكومة الشيخ مجيب الرحمن.

* ١٩٧٨ - تم تعديل الدستور البنغالى، الذى ينص على أن «ألعلمانية» واحد من المبادىء الأساسية له، ليصبح الإسلام الدين القومى للدولة.

* ١٩٩٠ - نتيجة للصراع على مسجد بابرى فى مدينة أيودها بولاية أتار براديش الهندية، اندلعت اضطرابات طائفية واسعة النطاق فى بنجلاديش.

* ١٩٩٢ - فى أعقاب هدم مسجد بابرى فى ٦ ديسمبر ، اندلعت أحداث العنف فى بنجلاديش ضد الأقلية الدينية الهندوسية التى تعرضت لاضطهاد شديد.

اليـــــــــوم الأول

لاچـــــا

كان سورنچان راقداً فى فراشه.. أتت أخته نيلانجانا، التى يطلقون عليها اسم مايا، ودخلت الغرفة مرة أخرى وقالت:

ـ دادا، ألا تنوى أن تستيقظ وتفعل شيئاً قبل فوات الأوان؟

عرف سورنچان أن مايا تريد منه البحث عن مكان يختبئون فيه مؤقتاً من الخطر الذى يتهددهم. لكن مزاجه كان معانداً. لماذا ينبغى عليه الهروب من بيته لمجرد أن إسمه سورنچان دوتا؟

هل من الضرورى لأسرته ـ أبوه سودهاموى وأمه كيرو نموى وأخته نيلانچانا ـ أن يهربوا مثل المطاريد بسبب أسمائهم؟ هل يجب أن يبحثوا عن ملجأ فى بيوت كمال أو بلال أو حيدر كما فعلوا منذ عامين؟

تذكر هذا اليوم، ٣٠ أكتوبر ١٩٩٠، بوضوح.. كمال، الذى يعيش فى إسكاتون، خاف عليهم من التعرض لأى مكروه فقطع الطريق الطويل إلى بيتهم وحثهم على مغادرته والذهاب معه.. لم يكن هناك أى تقصير فى كرم ضيافة بيت كمال. كانوا يفطرون البيض والتوست، ويتناولون السمك والأرز فى الغداء، ويقضون أمسيات طويلة كسولة على العشب الأخضر. وكانوا ينامون فى سلام وراحة على المراتب السميكة ويستمتعون جميعاً بوقت رائع!

ولكن مهما كان طعم السعادة التى تذوقوها فى منزل صديقهم، فإن هذا لايجيب

عن السؤال الأساسي: لماذا يتحتم عليهم أن يختبئوا في منزل كمال؟. صحيح أن كمال صديق قديم لسورنچان، والأصدقاء يتبادلون الزيارات، ولكن ليس في ظروف من هذا النوع. لم يتحتم عليه أن يهرب من بيته؟ كمال لم يكن لديه سبب يدفعه إلى الهروب أبداً. أليس هذا الوطن وطنه كما هو وطن كمال؟ ثم لماذا يحرم من حقوقه، ولماذا يدير له بلده ظهره؟ لماذا لايستطيع أن يقول أن يقول له: أنا ابن هذا التراب، أرجوك لا تسبب لي أي أذى؟!

كان سورنچان راقدا في فراشه، مستغرقاً في مثل هذه الأفكار، ومتجاهلاً أخته التي. دخلت وخرجت، ثم بدأت تتمشى بلا هدف في أنحاء البيت، وتفكر في أن أحداً منهم لا يدرك أنه يجب فعل شيء قبل أن يحدث لهم شيء بشع. في التليفزيون عرضت قناة (CNN) تفاصيل تدمير مسجد بابرى في السادس من ديسمبر ١٩٩٢.. وكان التليفزيون لايزال يعرض بعض مشاهد الحادث. جلس سودهاموى وكيرونموى أمام التليفزيون يراقبان عملية التدمير، ويأملان أن يصحبهما سورنچان إلى بيت أحد أصدقائه المسلمين. ولكن سورنچان كان قد قرر أنه لن يفعل شيئاً من هذا، وأنه حتى لو جاء كمال أو أي صديق مسلم آخر لاصطحابهم فسوف يقول له:

- لن أغادر بيتي مهما كانت الظروف.

هذه المشاهد في بيت آل دوتا كانت تجرى في السابع من ديسمبر. في المساء السابق، خيم ظلام كثيف على ضفاف نهر ساريو بمدينة أيودها الهندية.. في ذلك اليوم المصيرى، عصابة من أتباع من يُطلق عليهم «كار سيفاكس» هدموا مسجدا يزيد عمره على ٤٠٠ أو ٥٠٠ سنة. وفقاً لأبرشية هندوس فيسوا فإن المسجد كان محل ميلاد «راما» - نبي الهندوس - وبهذا اعتبروه ملكية دينية لهم.

المتطوعون المتعصبون انضموا إلى مشروع لتطهير المنطقة في المسجد وحوله. وقبل حوالى خمس وعشرين دقيقة من بداية العمل بدأت الكارثة عندما بدأ عمال التطهير في هدم المسجد بلا هوادة.

حدثت هذه الدراما بأكملها فى حضور ضباط أصحاب رتب عالية ورجال دين أبرشية هندوس فيسوا، وحزب بهارتيا چاناتا وغيرهم.

ضباط وجنود قوة الشرطة الاحتياطية المسلحة، وشرطة وردية المنطقة المسلحة، وشرطة آثار بارديش وقفوا يتفرجون دون أن يطرف لهم جفن بينما كان هدم المسجد مستمراً. فى الثانية وخمس وأربعين دقيقة بعد الظهر سقطت واحدة من القباب، فى الرابعة انهارت الثانية وفى الخامسة وخمس وأربعين دقيقة انكسرت القبة الثالثة إلى نصفين على يد المتعصبين. أثناء عملية هدم المبنى الهائل دفن أربعة منهم تحت الأنقاض، وتعرض مئات من الناس لإصابات خطيرة.

كل هذا وغيره ذكرته تقارير تفصياية فى الصحيفة التى كان يتصفحها سورنچان تحت عنوان ضخم يصرخ: «تدمير مسجد بابرى». لم يذهب سورنچان إلى «أيودها» أبداً، ولم ير مسجد بابري، وكيف يمكنه ذلك وهو لم يغادر بنجلاديش أبداً؟ سواء كان المبنى الذى تم تدميره محل ميلاد راما أو جامعاً مقدساً، فهذا لم يكن يهم سورنچان كثيراً، الواضح بالنسبة له هو أن تدمير أثر يعود للقرن السادس يمثل ضربة وحشية لمشاعر المسلمين فى الهند وخارجها. كما أنه يضر بالوحدة الوطنية بين الهنود أيضاً لأنه اعتداء همجى على «الوئام الدولى والضمير الجمعى للناس» على حد كلمات الصحفية، التى واصلت على هذا المنوال فى تقريرها:

«لايحتاج الأمر إلى القول بأنه فى بنجلاديش أيضاً سوف يتسبب رد الفعل على هذا الحادث فى خلق موجات مسعورة من الهستيريا الدينية. وسوف تهدم المعابد وتسوى بالأرض، وتحرق منازل الهندوس ومحلاتهم وتنهب.

بتشجيع من حزب بهارتيا چاناتا قام المتعصبون بهدم مسجد بابرى ليزيدوا من قوة رجال الدين الإسلامى فى بنجلاديش. هل مر بخاطر حزب بهارتيا چاناتا وأبرشية هندوس فيسوا وشركائهم أن ردود الفعل على عملهم المجنون فى أيودها لن تقتصر على الحدود الجغرافية للهند؟

فى الهند أسفرت المحنة عن مولد أحداث عنف جماعية راح ضحيتها حتى الآن خمسمائة، أو ستمائة وربما ألف شخص، وعدد الموتى يزداد كل

ساعة .هل أدرك الهندوس المتدينـــون، المفــترض منهم أن يـرعوا مصـــالح دينهـــم ووحدتهم أن هناك حوالى ٢٥ مليون هندوســـى يعيشون فى بنجلاديش أيضاً؟ ،،

أغلق سورنچان عينيه، ثم فتحهما من جديد على مايا تهزه قائلة:

ـ ألن تفعل شيئاً؟ أرجو أن تدرك أن أبوينا يعتمدان عليك فى حفظ سلامتنا.

تثاءب سورنچان وتمطى بكسل وقال:

ـ اذهبوا أنتم إذا شئتم. أنا لن أتحرك خطوة واحدة من هذا البيت.

ـ وماذا عن أبوينا؟

ـ لا أعرف.

ـ ماذا لو حدث لهما شئ؟

ـ ما الذى يمكن أن يحدث؟

ـ أن يهاجموا منزلنا ويحرقوه!

ـ فليفعلوا.

ـ هل تعنى أنك ستجلس وتنتظر حدوث ذلك؟

ـ لا، لن أجلس، سوف أنام.

أشعل سورنچان سيجارة على معدته الخاوية واشتاق إلى كوب من الشاى. عادة ما كانت كيرونموى تحضر إليه الشاى فى الصباح ولكنها لم تفعل ذلك اليوم.

لم يكن مجدياً أن يطلب من مايا، فسوف تهدم البيت بصراخها إذا طلب منها كوبا من الشاى. كان يمكنه أن ينهض ويعـــد الشـــاى لنفســـه ولكنه شـــعر بكسل شديد. فى الغرفة المجـــاورة كان التليفزيون يطـــن. لم يكن يرغـــب حتى فى الجلـــوس والتحديق فى تغطية CNN للحادث. فجأة سمع مايا تصرخ مرة أخرى فى الغرفة المجاورة:

ـ دادا يستلقى فى الغرفة ويقرأ الصحف. ولايبدو أنه يبال بأى شىء فى العالم.

لم تكن المسألة أن سورنچان لايفهم خطورة الموقف. ففى أى لحظة يمكن أن يقتحم البيت مجموعة من الناس ينهبون ويسرقون وربما يحرقون البيت عن آخره.فى هذه الظروف لم يكن ليرفض كمال أو حيدر أن يأويهم. ولكنه كان يخجل أن يهرب إلى أيهما. بدأت مايا فى الاعتراض بصوت مرتفع:

ـ لو لم يكن لدى أحدكم نية الخروج من هنا فسوف أذهب وحدى. سأذهب إلى بيت بارول وأبقى هناك حتى يتحسن الموقف. لا أعتقد أن دادا ينوى إصطحابنا إلى أى مكان. ربما لايرغب فى الحياة، ولكننى أريد أن أحيا.

هذا الإنفجار اليائس بيّن أن مايا قد أدركت أخيراً أن أخاها لن يفعل شيئاً فى سبيل توفير مأوى لهم، وأن عليها أن تفعل ذلك بنفسها إذا أرادت. من جانبه ظل سورنچان راقداً فى فراشه يفكر. حتى لو انتقلوا إلى مكان آخر هل سيكونون بمأمن. لقد كانوا محظوظين فى أكتوبر ١٩٩٠ بنجاتهم من الرعب والدمار.

واستدعى فى رأسه أحداث ذلك الشهر.. عشرات المعابد ودور العبادة ومئات من محلات ومنازل الهندوس قد دمرت وأحرقت ونهبت.. إستدعى سورنچان الأماكن التى خربت فى مذبحة ١٩٩٠ واحدا وراء الآخر. هذه الأحداث التى وصفت بأنها اضطرابات؟

هل كلمة اضطراب ـ أو شغب ـ تعنى قيام طائفة ما بالاعتداء الوحشى على طائفة أخرى لا ترد الاعتداء؟ لا.. مثل هذه الظاهرة لايمكن أن توصف بأنها اضطرابات. الذى حدث فعليا أن أفراد طائفة ماقاموا بانتهاك مقدسات وخصوصيات طائفة أخرى ببرود ودون ندم. وهذا ليس أقل من طغيان وقهر.

تسلل ضوء النهار عبر النافذة إلى جبهة سورنچان، ولكنها شمس الشتاء الناعمة ولذلك لم يشعر بالضيق، وواصل الرقاد حالماً بكوب من الشاى.

* *

فى الغرفة الأخرى كان سودهاموى يفكر أيضاً فى الماضى. عندما كان شابا بدأ كل أعمامه وعماته فى مغادرة بنجلاديش أسرة وراء الأخرى. كان قطار البخار يشق

طريقه من ميمنسنج إلى فولباريا، وكانت صفارته مصحوبة دائماً بنحيب القلوب المحطمة للذين يغادرون البلد الوحيد الذى عرفوه.

عندما رحل جيرانهم نادوا على والد سودهاموى قائلين:

ـ يا سوكومار، تعال لنرحل بعيداً. هذا وطن المسلمين. الحياة غير آمنة فى هذا البلد.

لكن سوكومار دوتا أصر على عدم خيانة القيم التى آمن بها دوماً، وقال:

ـ إذا لم يكن هناك أمان فى هذا البلد، فأى مكان آخر فى العالم يمكننا أن نذهب إليه؟ لا يمكننى أن أهرب من وطنى. اذهبوا أنتم إن أردتم، لكننى لن أترك ميراث آبائى، مزارع جوز الهند والفوفل ومساحات حقول الأرز الهائلة والبيت الكبير.. لا يمكن أن أترك. كل هذا لأصبح لاجئاً فى مبنى محطة سيلداه.

فى هذا الوقت كان عمر سودهاموى تسعة عشر عاماً تقريباً، وقد رحل معظم أصدقاء دراسته إلى الهند بعد أن حذروه:

ـ أبوك سوف يندم على هذا القرار عاجلاً أو آجلاً.

لكن سودهاموى كان مثل أبيه يقول:

ـ لماذا ينبغى أن أغادر وطنى إلى مكان آخر؟ إذا عشت فسوف أعيش على هذا التراب وإذا مت فسوف أبقى فى نفس المكان.

لكن الهجرة استمرت بدون هوادة واستمر عدد طلبة الكلية يتضاءل.. الذين لم يرحلوا عام ١٩٤٧ كانوا يستعدون للرحيل الآن. وهكذا واصل سودهاموى الدراسة مع عدد قليل من الصبية المسلمين وبعض الهندوس الفقراء فى كلية طب ليتون التى حصل منها على شهادته فى الطب.. وفى عام ١٩٥٢ كان سودهاموى شاباً ممتلئاً بالطاقة، عمره أربعة وعشرون عاماً. فى شوارع دكا كانت الثورة تملأ الشوارع بسبب مطالبة البنغال باعتماد اللغة البنغالية كلغة قومية. لكن محمد على جناح رئيس دولة باكستان رفض الطلب وأعلن أن الأردية هى اللغة القومية لباكستان.

شباب البنغال الواعون سياسياً فى غرب باكستان ثاروا معترضين على قرار جناح،

وامتلأت شوارع المدينة بدمائهم ولكن أحداً لم يتراجع، وأصروا على أن تصبح البنغالية اللغة القومية. شارك سودهاموى فى المظاهرات وفى الغالب كان يقودها، وحضر اليوم الذى أطلق فيه البوليس نيرانه على رفيقه سلام بركات وكان معرضاً طوال المظاهرات للموت هو أيضاً.

وشارك سودهاموى فى الحركة القومية فى سنة ١٩٦٩ وكانت قوات شرطة أيوب خان الباكستانى قد تلقت الأوامر بإطلاق النار على المظاهرات، لكن البنغاليين رفضوا الخنوع للتهديد وواصلوا حملتهم مطالبين بميثاق المطالب المكون من إحدى عشرة نقطة. ومات علم جير منصور على أيدى رجال الشرطة وحمل سودهاموى جثته عبر شوارع ميمنسينج، ووراءه مئات الباكستانيين الناطقين بالبنغالية حزانى، صامتين يعدون أنفسهم للمواجهة الحتمية للأحكام العرفية.

حركة اللغة ١٩٥٢، انتخابات الجبهة المتحدة ١٩٥٤، حركة التعليم ١٩٦٢، حركة الاعتراض ضد قضية مؤامرة اجارتلا، الانتخابات العامة ١٩٧٠، وحركة التحرير ١٩٧١ .... كلها كانت نقاط التقاء لشباب البلد الواعين سياسياً، وكل ثورة جديدة كانت تؤكد على حقيقة أن تقسيم البلاد بناء على نظرية الأمتين كان أمراً غير صحيح. وقد قال مولانا أبو الكلام آزاد:

«من أكبر أنواع الخداع على الشعب أن نقول بأن الصلة الدينية يمكن أن توحد المناطق المختلفة ثقافيا ولغوياً واقتصادياً وجغرافياً. صحيح أن الإسلام سعى إلى تأسيس مجتمع يتسامى بالحدود العرقية واللغوية والاقتصادية. ولكن التاريخ أثبت أنه بعد العقود القليلة الأولى أو على الأكثر بعد القرن الأول فإن الإسلام لم يستطع أن يوحد البلاد المسلمة بناء على قاعدة الإسلام وحده».

جناح كان يدرك أيضاً حقيقة أن تطبيق نظرية الأمتين كان تمرينا فعلياً فى عدم الجدوى. وعندما كان ماونتباتن يخطط لتقسيم البنغال قال هو نفسه:

«المرء بنجابى أو بنغالى قبل أن يكون هندوسيا أو مسلماً.. لأنهم يشتركون فى التاريخ واللغة والثقافة والاقتصاد. وسوف تتسببون فى حمامات دماء وقلاقل لاتنتهى».

بداية من عام ١٩٤٧ وحتى ١٩٧١ شهد البنغاليون موجة تلو الأخرى من حمامات الدماء والقلاقل، وصلت كلها إلى الذروة بحركة الحرية ١٩٧١ . عندما حصلوا على الاستقلال مقابل حياة ثلاثة ملايين بنغالى شهيد، مما أثبت أن الدين وحده لايمكن أن يكون أساساً لهوية قومية، وأن اللغة والثقافة والتاريخ على الجانب الآخر يمكنهم أن يشكلوا الأساس الذى يبنى عليه الإحساس بالقومية. باكستان كانت قادرة مبدئياً على صياغة رابط مشترك بين المسلمين فى البنجاب والمسلمين فى البنغال. ولكن كلا من الهندوس والمسلمين البنغال. سرعان ما أثبتا خطأ شعار الأمتين عندما بدآ فى رفض تقديم تنازلات كبيرة للمسلمين فى باكستان.

فى ١٩٧١ كان سودهاموى طبيباً فى مستشفى س. ك. فى ميمينسنج، وكان رجلاً مشغولاً سواء فى البيت أو فى العمل. فى المساء كان يمارس عمله فى عيادته فى سواديش، وكانت كيرونموى حاملاً فى طفلها الثانى فى الشهر السادس. وعمر سورنچان إثنا عشر عاماً. مما أضطر سودهاموى إلى تحمل الكثير من المسئولية سواء لرعاية أسرته الشابة أو لإدارة المستشفى وحده فعلياً. من وقت لآخر، عندما يتوفر لديه بعض الوقت، كان يذهب إلى بيت شريف للقاء أصدقائه. فى الثامن أو التاسع من مارس ذهب أصدقاؤه شريف وفيصل وبابلو إلى الاستماع للشيخ مجيب الرحمن. عند منتصف الليل مروا بمنزل سودهاموى أثناء عودتهم لإبلاغه بما قاله الشيخ مجيب:

ـ إذا أطلقت رصاصة واحدة أخرى وإذا مات واحد آخر من رجالى فإننى أطلب منكم أن تتركوا بيوتكم لتقيموا المتاريس وأن تجمعوا كل شىء ممكن لمواجهة العدو كيفما احتاج الأمر، هذه المرة الصراع من أجل الحرية ومن أجل الاستقلال.

وبرعشة الإثارة قال له الأصدقاء:

ـ سودها ـ دا، هذه المرة فعلنا شيئاً!

كان سودهاموى يعرف أنه لايمكن أن يتحقق شىء بالجلوس وانتظار مسار الأحداث ولكن أسرته وعمله يحتاجان إليه، ولذلك لم يفعل شيئاً. ثم حدث فى ٢٥ مارس، عندما اجتاح الجنود الباكستانيون البنغال بلا مبالاة، أن عاد إليه أصدقاؤه

وهمسوا فى أذنه:

ـ يجب أن نحارب.. ليس هناك حل آخر.

وجد سودهاموى نفسه فى موقف صعب. أسرته هى همه الأساسى الآن، وعمره كبر على الاشتراك فى حرب.. ولكن كلام أصدقائه ظل يؤرقه ولم يستطع التركيز فى عمله بالمستشفى. وأخيراً تحدث إلى كيرونموى وسألها إذا كانت تستطيع أن تتدبر أمرها وحدها إذا اضطر إلى الذهاب؟. كيرونموى المرعوبة قالت له:

ـ دعنا نذهب إلى الهند. كل جيراننا تركونا الواحد تلو الآخر

كانت هذه حقيقة وسودهاموى رآهم بنفسه، خروج ١٩٤٧ كان يتكرر وسودهاموى كان ثائراً، لعنهم جميعاً ووصفهم بالجبن. بعد أيام قال له نيماى:

ـ سودها ـ دا، الجيش فى الشارع. إنهم يصطادون الهندوس ويقتلونهم، لنهرب بجلدنا.

فى ١٩٤٧ كان أبوه حازماً فى قراره بعدم الرحيل.. سودهاموى اتخذ نفس الموقف وقال لينماى:

ـ اذهب أنت إذا أردت.. ولكن لن أهرب من وطنى.. سوف نقتل هؤلاء الكلاب الباكستانيين ونحصل على حريتنا. عد إذا استطعت بعد ذلك.

وبالفعل اتخذ قراره بأن تبقى كيرونموى وطفلها فى قرية فاجولا فى فولبر، بينما يصحب هو شريف وبابلو وفيصل إلى ناليترابى. ولكن قبل أن ينفذ القرار قبض عليه الجيش. فقد ذهب لشراء قفل رغم علمه بخطورة الموقف. فالجيش فى الشارع وليس هناك بنغالى واحد آمن على نفسه. تسلل بتوتر وإثارة فى شوارع المدينة المقفرة، لم يكن هناك سوى عدد قليل من المحلات المفتوحة.. فجأة ظهر أمامه ثلاثة رجال، صاحوا فيه بالتوقف.. واحد منهم أمسكه من قفاه وسأله باللغة الأردية:

ـ ما اسمك؟

لم يعرف سودهاموى أى اسم يستخدم.. تذكر أن صديقات كيرونموى نبهوها إلى ضرورة تغيير اسمها إلى شىء مثل «فاطيمة أختار» وأدرك سودهاموى أن اسمه

الهندوسى لن يجلب له خيراً مع معتقليه وأجبر نفسه على نسيان اسمه واسم أبيه سوكومار واسم جده جيوتيرموى. وشعر بصدمة وهو يسمع صوته ينطق باسم «سراج الدين حسين». واحد من الرجال قال له: «افتح صدرك» وقبل أن يستطيع عمل أى شىء انتزعوا «صدريته» بأنفسهم.. فى هذه اللحظة رأى بوضوح سبب هرب نيماى وسودهانو ورانچان..

من الوقت الذى قسمت فيه الهند إلى باكستان والهند، ترك كثير من الهندوس ديارهم فى شرق باكستان ورحلوا إلى الهند.. وتوفر لهم ذلك لأن تقسيم شبه القارة على خطوط طائفية ترك الحدود مفتوحة أمام الهندوس ليرحلوا إلى الهند.

أبناء الطبقة الثرية والمتعلمة هاجروا فى أسراب، سرب تلو الآخر.

فى ١٩٠١ كان تعداد الهندوس ١ ,٣٣٪ من سكان شرق البنغال. فى ١٩١١ هبط العدد إلى ٥ ,٣١٪. فى ١٩٢١ هبط إلى ٦ ,٣٠٪. وفى ١٩٣١ تناقص مرة أخرى إلى ٤ ,٢٩٪. وفى ١٩٤١ لم يتجاوز ٢٨٪ وإستمر فى التناقص. على أية حال فبعد تحقيق الاستقلال ١٩٧١ توقفت هجرة الهندوس. وفى ١٩٨١ وصلت نسبتهم إلى ١ ,٢١٪ من تعداد السكان. ولكن إلى أى مدى يتوقع هذا، خاصة بعد السنوات التى أعقبت حوادث عنف ١٩٩٠ والآن تأتى حوادث ١٩٩٢! فهل ينتظر أن يترك الهندوس البلد؟

انتاب سودهاموى ألم فى أيسر صدره. كان ألماً قديماً معاوداً. آلمه رأسه أيضاً. ربما زاد ضغط دمه . فى التليفزيون كانت محطة (CNN) تواصل تغطيتها الإخبارية لكارثة ٦ ديسمبر، ولكن مسجد بابرى لم يعد يظهر فى كل مرة يذكر اسمه فيها. استنتج سودهاموى أن ذلك تم بناء على طلب الحكومة التى تحاول بوضوح حماية الهندوس من غضب طائفة الأغلبية. لكن الذين اعتادوا على ردود الفعل العنيفة لم يكونوا بحاجة إلى مشاهدة (CNN) . شعر بوخزة حادة فى صدره، دلكه بيده ليخفف الألم واستلقى فى الفراش، لاتزال مايا فى الشرفة تتنقل فى قلق. عرف سودهاموى أن ابنته تريد الهرب إلى مكان آخر، أى مكان. ولكن كيف لها ذلك وسورنچان يرفض أن ينهض؟

حدق سودهاموى بلا إرادة منه فى الشرفة المغمورة بضوء الشمس حيث يستطيل ظل مايا. جلست كيرونموى ساكنة، تمتلىء عيناها بتضرع حزين كما لو كانتا تقولان: «دعنا نعيش.. دعنا نرحل». أين يمكن أن يذهب سودهاموى إذا قرر مغادرة البيت؟ فى مثل هذا العمر هل يستطيع الجرى هنا وهناك كما كان يفعل من قبل؟ فى الماضى لم يدخر نفسه أبداً وكان دائما فى قلب الأحداث وطالما ترأس مجموعات المعارضة الإقليمية ضد حكام باكستان. روابط البيت والأسرة لم تكن بقادرة على منعه من المشاركة فى هذه الأعمال. ولكن من أين يأتى بهذه القوة اليوم؟ كان يأمل أنه فى دولة بنجلاديش المستقلة العلمانية سوف يتمتع الهندوس بنفس الحقوق السياسية والاقتصادية والثقافية والدينية التى يتمتع بها المسلمون. ولكن لسوء الحظ فقد تعثر مبدأ المساواة الدينية وفقد مكانته تدريجياً مع مسار الأحداث. اليوم، الإسلام هو الدين القومى لبنجلاديش.. والأصوليون الذين عارضوا ذات يوم النضال من أجل الحرية ١٩٧١، وساءت شعبيتهم بسبب ذلك، يحكمون الآن من خلال الجماعات وينظمون المواكب والمسيرات، إنهم نفس المجموعة التى كانت وراء الاعتداء على الهندوس ١٩٩٠ والتى حطمت معابد الهندوس وأحرقت محلاتهم وبيوتهم.

أغلق سودهاموى عينيه، لايعرف ما الذى يمكن أن يحدث هذه المرة. الشىء الوحيد المؤكد هو أن تدمير مسجد بابرى على يد الهنود المتعصبين سيعانى منه الهندوس فى بنجلاديش. إنهم لم يسلموا من الأذى على يد الأصوليين الإسلاميين فى ١٩٩٠، فلماذا يسلمون منه فى ١٩٩٢؟ ولهذا يتعين عليهم أن يهربوا مثل الجرذان! لمجرد أنهم هندوس؟.. ولأن الهندوس فى الهند هدموا مسجد بابرى؟لماذا ينبغى أن يتحمل مسئولية ذلك؟ تلفت مرة أخرى لينظر إلى ظل مايا فى الشرفة. وجهه الأسمر ممتلىء بالقلق ومبلل بالعرق. قالت مايا بصوت مرتفع:

ـ يمكنكم أن تبقوا حتى تتعفنوا هنا، ولكنى سأذهب.

سألتها كيرونموى بحزم:

ـ أين تعتقدين أنك ذاهبة؟

تجاهلت مايا نبرة التهديد فى صوت أمها وانشغلت بتمشيط شعرها بضربات

سريعة وقالت:

ـ سأذهب إلى منزل بارول.. لا يمكننى مساعدتكم طالما لا تريدون النجاة. لاأعتقد أن دادا أيضاً لديه نية ترك هذا المكان.

سألها سودهاموى وهو يتذكر المرة التى انتحل فيها اسم «سراج الدين»:

ـ وماذا ستفعلين باسمك؟ نيلانچانا اسم مميت.

قالت مايا دون أن تتحرك:

ـ «لا اله إلا الله محمد رسول الله» هو كل ما تحتاج إلى قوله لكى تصبح مسلماً.. هذا ما سوف أفعله وسوف أغير اسمى إلى فيروزا بيجوم.

صاحت كيرونموى فى غضب:

ـ مايا!

حملقت مايا فى أمها كما لو أنها تقول أنها لم تخطىء فى تصورها المفترض لمسار الأحداث.. تنهد سودهاموى فى عجز وأخذ يقلب النظر بين مايا وكيرونموى. كان يمكنه أن يفهم سبب جزع مايا. إن عمرها ٢١ عاماً، لم تر تقسيم البلاد فى ١٩٤٧ ولا أحداث ١٩٥٠ أو ١٩٦٤ ولا حصول البلد على الحرية ١٩٧١ .

كل ما تعلمه من أيام طفولتها الأولى أن الإسلام هو الدين القومى للبلد وأنها وأسرتها ينتمون إلى الأقلية الهندوسية التى ينبغى أن تقدم التنازلات لمسايرة الوضع السائد. كل ما شاهدته فعلياً كان كابوس حوادث عنف ١٩٩٠، وكان هذا كافيا حتى تتخذ قراراً بأنها لاتريد أن تفقد حياتها... اتسعت عينا سودهاموى بينما زادت آلام صدره وطرد كل أفكاره عن مايا.

* *

لم يرتو عطش سورنچان لكوب من الشاى بعد، نهض وذهب إلى الحمام. كان يحب أن يشرب كوبه الأول قبل غسل أسنانه.. لاصوت أو أثر هناك لمايا. هل رحلت البنت فعلاً؟ استغرق سورنچان وقته فى غسل أسنانه، توتر مشئوم يلف البيت، كما

لو أن أحداً على وشك أن يموت. كما لو أن هناك صاعقة ستنقض فى أية لحظة لتجسد الموت الذى ينتظره كل منهم. ظمأنا إلى الشاى لايزال، توجه سورنچان إلى حجرة سودهاموى، جلس مسترخياً على السرير وسأله:

- أين مايا؟

لكن أحداً لم يجب عن سؤاله. نهضت كيرونموى، التى كانت جالسة بجوار النافذة وذهبت إلى المطبخ. أغلق سودهاموى عينيه واستدار فى فراشه. يبدو أن أحداً لايريد أن يمنح سورنچان أدنى اهتمام.. وبدأ يتبين له أنه ربما فشل فى تحمل مسئوليته نحو والديه وأخته. لقد توقعوا منه أن يعثر لهم على مأوى ولم يستطع، بل الأدهى أنه قرر ألا يفعل ذلك. كان سورنچان يعلم أن مايا واقعة فى حب شاب يدعى چاهنجير ومتأكد أنها سترحل معه لو سنحت لها الفرصة لذلك. والآن بعد أن تركت المنزل من سيمكنه منعها؟ المسلمون الأكثر ليبرالية اعتادوا على زيارة الهندوس والسؤال عنهم عندما تنشب أحداث العنف. ولابد أن چاهنجير سيأتى للاطمئنان على مايا. فى هذه الحالة ستعتبر مايا نفسها سعيدة الحظ جداً، وقد تقرر أن تتزوجه بدافع من العرفان بالجميل! الفتى أكبر منها بعامين ولدى سورنچان اقتناع بأنه لن يتزوجها فى النهاية!

كان بحكم خبرته الشخصية يعرف أن هذه الزيجات المختلطة الديانات شبه مستحيلة فى بنجلاديش. لقد كان ينوى الزواج من بارفين ولم يتم الزواج عندما رفض الاستجابة لطلب بارفين باعتناق الإسلام. قال أنه ليس ضروريا أن يبدل أحدهما دينه. بالإضافة إلى هذه العقبة رفضت أسرتها زواجها من هندوسى وزوجوها فى النهاية من رجل أعمال مسلم. بكت بارفين من قلبها اعتراضاً ولكنها استجابت إلى رغبة أسرتها. تطلع سورنچان بندم خارج الشرفة الصغيرة. منزلهم مستأجر لا ملعب فيه ولا مكان للتمشية. جاءت كيرونموى بكوب من الشاى. وبينما كان يتناوله منها قال عرضاً:

- إنه ديسمبر ولكن الجو ليس بارداً.. أتذكرين كيف كنت أحب شراب البلح فى صباحات الشتاء؟.

تنهدت كيرونموى وقالت:

ـ هذا منزل مستأجر، أين يمكن أن تحصل على عصير فاكهة طازج هنا؟ البيت الذى كنا نزرع فيه جميع الأشجار بعناه بملاليم.

صب سورنچان الشاى وفكر فى العصير الطازج الذى كان يأتى به «البستانى» من بلح النخيل، وهو يقف مع مايا بين الأشجار يراقبانه بفضول ويرتعشان من البرد، ويخرج البخار الأبيض من فيهما كلما تحدثا. كل الحقول الخضراء المزدهرة التى اعتادا أن يهربا فيها وأنواع الفواكه المختلفة، ذهب كل هذا، ومرات لا حصر لها كان يقول فيها سودهاموى لهما:

ـ هذا بيت أجدادكما.. لا تتركا هذا المكان وترحلا أبداً

ولكنه اضطر إلى بيعه.ذات يوم كان عمر مايا ست سنوات عندما تاهت أثناء عودتها من المدرسة.. ولم يعثروا عليها فى المدينة كلها، لاعند الأقارب ولا الأصدقاء والمعارف. وساد القلق والانزعاج الهائل البيت خوفاً من أن يكون أحد المتسكعين قد قام بخطفها.. وبعد يومين عادت مايا إلى البيت وحدها. لم تستطع أن تقدم أى تفسير لمكان اختفائها أو الذين اختطفوها.. ولمدة شهرين بعد الحادث كان سلوكها غريباً. تنام نوماً مضطرباً وتستيقظ منزعجة فى وسط الليـــل، وتخشى لقاء الناس. وكان بيتهم يُلقى بالحجـارة خلال الليل، ويتلقون خطابات من مجهولين تهدد بخطف مايا مرة أخرى إذا لم يدفعوا فدية، وذهب ســــودهاموى إلى قسم الشرطة وسجل ضابط «النوبتچية» بلاغاً روتينياً، ولم يتخذوا أى إجراء أبعد من ذلك. وتفاقمــت المســألة فكان صـــبية الحى يتسللون إلى حديقتهم ويسرقون الفاكهة من فوق الأشجار ويتلفون حديقة الخضـــروات ويخلعـــون الأزهار ولم يكن من الممكن منعهم لأنه لم يكن من المجـــدى شـــكواهم إلى المسئولين. اشتكى سودهاموى لجيرانه فجاء الرد المعتـــاد:

ـ ماذا نفعل؟ هكذا كان الحال دائما ولن يتحسن.

حاول سورنچان جمع بعض الأصدقاء لمواجهة الصبية المشاكسين.. ولكن سودهاموى لم يوافق، وبدلاً من ذلك قرر ترك ميمنسنج بأسرها. وبيع المنزل كان

هناك فى الواقع سبب آخر لبيعه، فلوقت طويل جداً كانت هناك دعوى تنظرها المحكمة بشأن المنزل. جاره، شوكت على، زور بعض الوثائق واحتل جزءاً كبيراً من الأرض وحاول سودهاموى مقاضاته. لم يوافــق سورنچان على قرار أبيه ببيع البيت ولم ير ضرورة لذلك. كان طالباً فى الكلية ذكيا وممتلـئاً بالطـموح وتم انتخـابه كعضو فى اتحاد الطلبة ضـمن مجلـس إدارة الكلية، وكان يمكـنه ـ إذا شـاء ـ أن يعـاقب المشـاغبين الذين يضايقـونهم. لكن سـودهاموى منع ابنه وأصر على بيع العقار والانتقـال إلى دكا. وشرح لأسرته أن عمله كطبيب بدأ يتأثر لأن المرضى لم يعودوا يأتون إلى عيادته بكثرة والقلائل الذين يأتون كانوا من الهندوس والفقراء جداً لدرجة أنه يخجـل من طلب الأجرة منهـم. وأمام ذلك لم يصـر سـورنچان على الرفـض. لكنـه لايزال يذكـر البيت الشاسع الذى كبر فيه والأرض المحيطة به واليوم الذى بيع فيه إلى «رئيس الدين صـاحب» مقابل مائتى ألف تاكا رغم أن قيمته مليون تاكا. فى يوم رحيلهم، عندما قال سـودهاموى لكيرونموى: «هيا نلملم أشياءنا لنرحل» سقطت زوجته على الأرض وهى تبكى بشدة.. ووجد سورنچان صعوبة فى أن يصدق أنهم راحلون فعلاً عن بيتهم القديم الذى ورثوه عن أجدادهم. مسقط رأسه وملعب طفولته، حيث يجرى نهر براهما بوترا، وحيث يسكن أصدقاؤه. لم يكن يرغب فى ترك كل هذا والرحيل. حتى مايا، التى كانت أقوى الأسباب وراء قرار سودهاموى هزت رأسها بقوة رافضة أن ترحل وقالت:

ـ لاأريد أن أترك صوفيا..

صوفيا كانت صديقة وزميلة دراستها وتسكن بجوارهم. وكانت الاثنتان تلعبان معاً لساعات كل مساء. وماذا عن سودهاموى نفسه؟ بالرغم من أنه لم يتردد فى قراره إلا أن الأسى غمره لأنه يكن عواطف عميقة تجاه المكان. ولكنه قال:

ـ هذه الحياة قصيرة. أريد أن أعيش فى سلام مع أطفالى بقية حياتى.

ولكن هل من الممكن أن يكون هناك سلام فى أى مكان؟ ربما لا، كما كان يفكر سورنچان.

أطلق سودهاموى تنهيدة إرتياح عندما وصلوا دكا بالرغم من أنه فى دكا المستقلة، اضطُر أن يتخلى عن ملابسه الهندية «الدهوتى» ويرتدى «الباچاما». بعد فترة بدأ سورنچان فى فهم أزمة أبيه. لقد دفعته الظروف إلى اتخاذ موقفه ولم تكن هناك وسيلة تمكنه هو أو ابنه من اختراق الحاجز الذى لايقهر والذى يحول بينهم وبين الحياة الآمنة. استغرق سورنچان فى أفكاره وتمدد على فراشه محدقاً فى الشمس التى ملأت الشرفة. فجأة قطع تأمله ضوضاء مسيرة سريعة تتقدم، انتبه سودهاموى وكيرونموى أيضاً فى توتر فى محاولة لتمييز الصيحات الغاضبة ولاحظ سورنچان أن كيرونموى نهضت وأغلقت النوافذ. مع هذا استطاعوا أثناء مرور المسيرة سماع الأصوات تقول:

ـ دعونا نمسك بهندوسى أو اثنين. لنأكلهم فى الصباح وفى المساء أيضاً.

رأى سورنچان أباه يرتجف. ووقفت أمه ظهرها للنافذة التى أغلقتها. تذكر سورنچان أنهم اعتادوا على سماع نفس الهتافات فى ١٩٩٠، ومن كان هؤلاء؟ المثير للسخرية أنهم كانوا أولاد الجيران! جبار ورامجان وعلمجير وكبير وعابدين! كلهم أصدقاء يعيشون فى نفس المنطقة، يلتقون باستمرار ويناقشون الأمور العامة بدون ضغائن، من أجل اتخاذ قرارات جماعية فى القضايا الهامة. كان هؤلاء أنفسهم الذين يريدون تحويل سورنچان إلى طعام!

* *

عندما وصل سودهاموى إلى دكا لأول مرة، أجر له آسيت رانجان منزلاً فى تانتيبازار وقال له:

ـ سودهاموى، أنت ابن رجل ثرى. هل تستطيع الإقامة فى بيت مؤجر؟

وأجابه سودهاموى:

ـ ولم لا؟ ألا يعيش الآخرون بنفس الطريقة؟

ـ نعم يعيشون. ولكنك لم تشعر أبداً بالحاجة والخوف. ما الذى يجعلك تبيع منزلك؟ مايا فى النهاية مجرد طفلة صغيرة ولا يبدو أنها تواجه الأخطار التى تهدد

فتياتنا. لقد اضطررنا إلى إرسال ابنتنا اوتبالا إلى كالكتا لأنها تتعرض للتعييرات والتهديدات فى الكلية، الصبية كانوا دائماً يتحرشون بها ويقولون بأنهم سوف يغتصبونها. الآن هى هناك مع خالها فى تيتلجالا. أنت تعرف يادادا أنه عبء كبير أن يكون لديك ابنة ناضجة.

كان سودهاموى يعلم أن هناك قدراً كبيراً من المنطق فيما قاله آسيت رانچان. حتى وهو يستمع إلى صديقه تذكر حادث قيام عصابة من الصبية بتعرية طالبة صغيرة من السارى الذى ترتديه فى منتصف الشارع. كانت مسلمة وكذلك الصبية الذين أهانوها. ولذلك عزى سودهاموى نفسه بأنه فيما يتعلق بالنساء الصغيرات لا علاقة للأمر بهندوسى ومسلم، ولكن علاقة الضعيف بالقوى الذى يتحرش به دائما. النساء هن الجنس الأضعف ولذلك يقهرهن الرجال وهم الجنس الأقوى، ولم يخاطر آسيت رانچان وأرسل ابنتيه إلى كالكتا. كان يكسب الكثير من المال من محل مجوهراته فى إسلامبور ولديه منزل قديم من طابقين، لم يقم بتجديده لأنه يبدو أنه ينوى شراء منزل جديد، وذات يوم قال لسودهاموى:

ـ دادا، لا تنفق كل مالك. ادخره. وإذا استطعت فأرسل المال الذى حصلت عليه مقابل بيتك إلى أقاربى هناك ليشتروا لك قطعة أرض.

سأله سودهاموى:

ـ ماذا تعنى بهناك؟

أجاب آسيت رانچان بصوت خفيض:

ـ أعنى فى كالكتا، لقد اشتريت أيضاً.

انتاب الغضب سودهاموى وقال:

ـ هل تعنى أنك تريد كسب المال هنا وإنفاقه فى الهند؟ هل تعلم أنه يجب إدانتك بتهمة الخيانة؟

فوجىء آسيت رانجان بثورة سودهاموى. فهو لم يسمع هندوسياً يتكلم بهذه الطريقة أبداً. تقريباً كل شخص حريص على إستغلال مدخراته فى شراء أرض فى

الهند بما أن مستقبلهم في بنجلاديش غير مضمون. فأن تستقر في هذا البلد أمر فيه خطورة فسوف يأتي يوم «جميل» يقتلع فيه وجودك نفسه من الجذور وتترك ميتاً. فلماذا تخاطر؟

حتى الآن كان يتساءل سودهاموى لماذا ترك ميمنسنج؟ لماذا لم يمنعه حبه لبيت أجداده من اتخاذ هذه الخطوة العنيفة؟ كان هناك مشاكل بخصوص رعاية مايا بالطبع ولكن هذه المشاكل موجودة دائماً مهما كان المكان الذى يعيشون فيه. وفى كل الأحوال فإنه فيما يتعلق بحوادث الخطف ليس هناك أى فرق بين الهندوس والمسلمين. عذاب الضحايا وأسرهن لايختلف بغض النظر عن ديانتهم. وهكذا يؤدى كل شيء إلى نفس السؤال القديم: هل كان خائفاً، لأنه هندوسى، ألاينعم بالأمن والاطمئنان فى وطنه؟ كان يخشى سودهاموى أن يوجه إلى نفسه هذا السؤال بصوت مرتفع، جالساً فى هذا المنزل الصغير المتقلص فى تانتيبازار، كان يتساءل مرة ومرات عن أسباب تركه لمنزل أجداده ليأتى إلى هذا المكان الغريب. هل كان يهرب من نفسه؟ لماذا شعر بالعجز لخوفه من خسارة الدعوى ضد شوكت على الذى سلح نفسه بوثائق مزورة. كم هو مرير أن يخسر المرء قضية تتعلق ببيته؟ ولكن عندما ينظر إلى الأمر كله بإيجابية يجد أن من الحكمة الواضحة أنه ترك المكان باحترامه قبل أن يطرد منه بعد خسارة الدعوى، أحد أبناء عمه خسر بيته برغم جهوده الباسلة لإنقاذه. كان يعيش فى منطقة أكور تاكور فى تانجيل وأدعى جار مسلم اسمه جامير مونش ملكيته للأرض، ووصلت المشكلة إلى المحكمة وبعد خمس سنوات جاء الحكم لصالح الجار.عم سودهاموى اضطر إلى ترك بنجلاديش والهجرة إلى الهند. هل كان الخوف من التعرض لمصير عمه هو ما دفع سودهاموى إلى بيع عقار أجداده؟ ربما كان هذا صحيحاً. فقد إتضح له أن أهميته فى المنطقة تتضاءل وبجانب هذا كان قد فقد كثيراً من الأصدقاء فى الهجرة أو الموت. هؤلاء الذين استمروا فى البقاء بدوا فاقدين لأى أمل.. كما لو أنهم شعروا بأن الحياة لاتستحق أن يحيوها. وعندما يتحدث معهم كان ينتاب سودهاموى الإحساس بأنهم يخشون قدوم وحش يقوم بالتهامهم فى منتصف الليل.. الهند كانت حلم الجميع، ومعظمهم خططوا سراً لعبور الحدود مع أول فرصة تسنح لهم. وكان سودهاموى يقول لهم دائماً:

ـ عندما نشبت الحرب فى هذا البلد هربتم مثل الجبناء وبعد أن فزنا بإستقلالنا عدتم لإظهار بطولتكم، والآن، أمام أصغر استفزاز، تخططون للعودة إلى الهند. بصراحة، كم أنتم جبناء!

أمام ثورة غضبه بدأ بعض الأصدقاء مثل چاتن ديبناث وتوشار كار وخاجيش كيران الابتعاد عنه. وعندما كانوا يلتقون به مصادفة كانوا يشعرون بالتوتر فى حضوره وبالتدريج أصبح سودهاموى غريباً فى بلدته. للسخرية بدأ أصدقاؤه المسلمون أيضاً ـ مثل ساكورا وفيصل وماجد وجعفر فى الابتعاد عنه رغم أن أسبابهم كانت مختلفة. وعندما كان يذهب إلى بيت صديق مسلم كان يواجه غالباً أقوالا مثل:

ـ سودهاموى أرجوك اجلس فى الغرفة الأخرى حتى أنتهى مع فلان.

أو :

ـ أوه، لقد جئت اليوم! ولكن لدينا عيد ميلاد فى البيت..

وبينما كان أصدقاؤه اليساريون يتقدمون فى السن كان يزداد تحولهم إلى التدين، أما سودهاموى الذى لم يكن لديه وقت أبداً لمثل هذه الأشياء فوجد نفسه بلا أصدقاء. الاختفاء التدريجى للمنطق والعقل والإنسانية من بلدته المحبوبة ترك جرحاً شديداً فى نفسه. وفى النهاية أراد أن يهرب لا من بنجلاديش ولكن مما أصبحت عليه بلدته ميمنسنج. أراد أن يهرب قبل فوات الأوان وقبل أن يبتلع الموت أحلامه فى النهاية. فى الحقيقة وجد سورنچان صعوبة شديدة فى التأقلم مع البيت الضيق الذى انتقلوا إليه واعترض بشدة.. لكنه تعود بالتدريج على أسلوب حياته الجديد. التحق بالجامعة وكون أصدقاء جدداً وتعلم أن يحب الأشياء المحيطة به. وبعد فترة انخرط فى السياسة ودعى لحضور الاجتماعات والمشاركة فى المسيرات السياسية... كيرونموى، أيضاً، وجدت صعوبة فى التأقلم مع محيطها الجديد وكانت تستيقظ باكية فى الليل عندما تتذكر بيتهم الحبيب. وتتساءل عما إذا كانت السقالة الصغيرة التى حفرتها وسط نبات الفاصوليا لاتزال هناك. وتتذكر كيف كانت جوافا حديقتهم هى الأفضل فى كل البلدة وتتمنى أن تكون أشجار جوز الهند الخضراء

تحت الرعاية... ولم يكن سودهاموى أقل منها إنزعاجاً.

وفى دكا تقدم سودهاموى إلى وظيفة حكومية كبيرة كانت تعتبر بمثابة ترقية عن وظيفته الرسمية فى ميمنسنج. ولكن فى كل مرة ذهب فيها إلى الوزارة لمعرفة مصير طلبه كانوا يجعلونه ينتظر فى غرفة صغيرة، بين العملاء. وأحياناً يسمح له بالجلوس والانتظار فى غرفة السكرتير الخاص المساعد. وكان يسأل:

- من فضلك، هل يمكنك أن تخبرنى عما إذا كانوا قد نظروا إلى ملفى!

ولكنه لم يحصل على رد مرضٍ أبداً. كانوا يردون على أى سؤال باقتضاب. وبعضهم يسأله:

- يا دكتور ابنتى لديها اضطراب فى المعدة. وتشكو أيضاً من ألم فى صدرها. لماذا لا تصف لها بعض الدواء؟

وكان سودهاموى يفتح حقيبته ويكتب لها «روشتة» علاج ويسأل بعدها:

- سأحصل على الوظيفة، أليس كذلك يا فريد - بابو؟

فيجيبه فريد بابو بابتسامة واسعة:

بالفعل فى العمل كأساتذة مساعدين. أما هو فأقصى ما نجح فيه هو إبلاء نعلى حذائه، وفى كل مرة يتوجه فيها إلى الوزارة يتلقى نفس الإجابات:

- ربما غدا.. ليس اليوم. ملفك أرسل إلى السكرتارية

أو:

- ليس اليوم. تعال بعد غد. السكرتارية مشغولة فى اجتماعات.

أو:

- الوزير ذهب إلى الريف. عد بعد شهر.

كان سودهاموى يستمع بصبر إلى هذه التبريرات حتى أدرك أنه لافائدة من الانتظار. بعد حوالى عامين من الجهاد للحصول على الترقية أدرك أن هؤلاء الذين حصلوا عليها هم الذين نجحوا فى عبور الخط الشرعى، حتى لو كانوا لايستحقونها..

ولكنه كان يقترب من سن المعاش و المفروض أن يصبح أستاذاً مساعداً على الأقل.. وفى النهاية تقاعد كأستاذ مساعد. واحد من زملائه اسمه مارهاف شاندرا بال. وضع إكليل الزهور على رقبته فى يوم تقاعده وهمس فى أذنه:

ـ ليس من الصواب أن تتوقع أكثر من اللازم فى بلد مسلم.. ما نحصل عليه أكثر من كاف بالنسبة لنا.

قال هذا وهو يضحك دون بهجة. مارهاف شاندرا كان أيضاً أستاذا مساعداً وتجاوزته الترقية مرتين.. وكان هناك تهم عديدة موجهة ضده، منها أنه سافر إلى الاتحاد السوفيتى.

وفى وقت ما أدرك سودهاموى أن مارهاف شاندرا كان على حق. فعلى الرغم من أن البلد لايمارس تعصباً ظاهراً ضد الهندوس، ورغم أن الدستور البنغالى لايمنع الهندوس من تولى الوظائف الحكومية والترقية فيها، أو فى قوات الشرطة أو الجيش فإن الحقيقة هى أنه لايوجد هندوسى يحتل موقع وزيرأو وزير إضافى ، فى الحكومة كان هناك ثلاثة وزراء مشتركين ، وعدد لا يتجاوز أصابع اليد من نائبى الوزراء وكان سودهاموى متأكداً أن لا أحد من هؤلاء يتوقع ترقية أخرى؛ وفيما يتعلق بالقضاء كان هناك ستة هندوس فقط فى منصب قاضٍ وقاض واحد فى المحكمة العليا. وهناك بعض ضباط البوليس فى الرتب الصغيرة ولكن من المستحيل أن تعثر على هندوسى فى رتبة عالية. بالرغم من أن الأمر استغرق وقتاً طويلاً لقبوله، أدرك سودهاموى أنه لم يحصل على درجة أستاذ مساعد لأنه ببساطة هندوسى اسمه سودهاموى دوتا. ولو كان اسمه محمد على أو سليم الله شودهرى لما وجد أى عقبة فى طريقه. هذا النوع من التمييز لم يكن مقصورا على الوظائف الحكومية وحدها، فحتى فى مجال البيزنيس والتجارة لم يكن يستطيع أى هندوسى أن يأمل فى تحقيق شيء بمفرده. ومن الضرورى أن يكون له شريك مسلم، لأنه ليس هناك مؤسسة لها اسم هندوسى صرف يمكن أن تحصل على ترخيص عمل. والأصعب أنه لايوجد بنك أهلى أو صناعى على استعداد لمساعدة مشروع صاحبه هندوسى. رغم هذه الإحباطات نجح سودهاموى دوتا فى الاستقرار فى تانتيباز. بعد فترة نجح

فى جعل بيته الجديد مقبولاً ورغم أنه ترك بيته إلا أنه لم يستطع ترك وطنه، وكما اعتاد أن يقول:

- ميمنسنج ليست وحدها بلدى، وإنما بنجلاديش كلها.

بقية أفراد الأسرة لم يكونوا يشاركونه مشاعره. كيرونموى كانت تتنهد وتقول:

- المفروض أن أربى الأسماك فى البركة وأزرع خضروات جديدة والمفروض أن يأكل الأطفال الفواكه الطازجة من الأشجار.. والآن كل أموالنا تذهب فى دفع إيجار هذا البيت.

وأحيانا كانت توقظ سودهاموى ليلاً وتقول:

- المال الذى حصلنا عليه من بيع البيت ومن معاشك مبلغ كبير.. دعنا نرحل.. كثير من أقاربنا هناك الآن!

وكان سودهاموى لديه رد جاهز:

- هل تفترضين أن أقاربك سوف يطعمونك ولو ليوم واحد؟ ربما تفكرين فى الإقامة معهم، ولكنهم قد يشعرون بأنك زائر عابر وسرعان ماسوف يقولون:

- أين تقيمون؟ هل تريدين كوباً من الشاى؟

وكانت كيرونموى تلح:

- إذا كان لدينا مالنا الخاص، فلماذا نضطر إلى الشحاذة من الآخرين؟

عند هذه النقطة كان يتصلب عناد سودهاموى:

- لن أذهب... اذهبى أنت إذا أردت. نعم تركت بيتنا القديم ولكن هذا لايعنى أننا سنترك بلدنا أيضاً.

عاشوا لبعض الوقت فى تانتيبازار، ثم انتقلوا إلى آرما نيتولا وعاشوا هناك ست سنوات وأخيراً انتقلوا إلى تيكاتولى حيث قضوا السنوات السبع الأخيرة. فى نفس الوقت اكتشف سودهاموى أن قلبه مريض، وبعد اعتزاله أدار عيادة مسائية صغيرة لكنه لم يكن يستطيع الانتظام فى إدارتها. كان المرضى يأتون لاستشارته فى البيت

بدلاً من العيادة، حيث قام بوضع منضدة فى غرفة الاستقبال لفحص المرضى عليها وبعض المقاعد والآرائك. خزانة الكتب كانت تمتلىء بكل الأنواع: الصحف الطبية، الأدب، كتب فى علم الاجتماع أو السياسة.. وكان سودهاموى يقضى معظم وقته فى هذه الغرفة. وفى الأمسيات كان غالباً مايزوره أصدقاء مثل نيشميت- بابوأختارو جامان وشهيد الإسلام وهاريبادا ليتناقشوا فى السياسة بينما تعد لهم كيرونموى الشاى. ومعظمهم كان يشربه بدون سكر بسبب أمراض الشيخوخة.

قفز سودهاموى مع صوت مسيرة أخرى تقترب حتى ملأ الغرفة. كز سورنچان بدوره على أسنانه واحتقن وجهه بالغضب، وبدت كيرونموى خائفة لكن سودهاموى بدا رابط الجأش بشكل ملفت بعد عصبيته الأولى. لماذا لايقوم برد فعل؟ ألا ينبغى أن يظهر هو أيضاً بعض علامات الخوف أو الترقب أو الغضب؟

اليـــــــوم الثــــــانى

لاچــــــا

معظم أصدقاء سورنچان من المسلمين، لا أحد منهم كان متدينا بشكل زائد، وكانوا يقبلون سورنچان كصديق قريب بالرغم من أنه هندوسى. وفى العام الماضى ـ مثلا ـ دعا كمال الأسرة كلها إلى بيته. لدى سورنچان أصدقاء هندوس مثل كاچال وآشيم وجاديب، ولكنه كان أقرب إلى بولوك وكمال وحيدر وبلال ورابيل، وفى الحقيقة عندما يمر بمتاعب كان حيدر وكمال وبلال هم الذين يساعدونه أكثر من أصدقائه الهندوس، ذات مرة سقط سودهاموى مريضاً وجاء الطبيب د.هاريبادا وشخص الحالة بأنها إنسداد فى عضلة القلب وكان عليهم أنَ ينقلوه فوراً إلى مستشفى السهرودى فى الساعة الواحدة والنصف صباحاً. عندما أبلغ سورنچان كاچال تثاءب وقال:

ـ كيف نستطيع نقله فى هذا الوقت المتأخر؟ فلننتظر حتى الصباح ونتصرف.

ولكن فور علم بلال بالأمر أسرع قادما بسيارته وقام بكل الإجراءات ونقل سودهاموى إلى المستشفى، وظل هناك تحت الإشارة لتقديم أى مساعدة، وكان يؤكد لسودها موى كل فترة:

ـ لا تقلق يا عمى. كل شىء سيكون على ما يرام. أنا مثل ابنك.

تأثر سورنچان بقلق صديقه على أبيه وطوال فترة إقامة سودهاموى فى المستشفى واظب بلال على زيارته. ولم يتوقف لحظة عن التفكير فى صحة سودهاموى ونقل

الزائرين إليه بل وتوصية الأطباء ليعتنوا به عناية زائدة، كم عدد الذين يهتمون بأصدقائهم هكذا؟ كاچال كان لديه المال أيضا، ولكن هل لديه قلب كبير مثل هذا؟ معظم نفقات علاج سودهاموى دفعها رابيل. فجأة ظهر فى بيتهم فى تيكاتولى وسأل سورنچان:

ـ سمعت أن أباك فى المستشفى؟

وقبل أن يجيب سورنچان وضع رابيل مظروفاً مغلقا على المنضدة القريبة وقال:

ـ أصدقاؤك ليسوا غرباء.

ثم رحل بنعومة كما جاء. فتح سورنچان المظروف فوجد خمسة آلاف تاكا. لكن سبب قرب سورنچان من أصدقائه المسلمين لم يكن وقوفهم المادى والمالى معه، ولكن لأنه وجد نفسه قريباً منهم عن أصدقائه الهندوس فى التفكير والوجدان، وبشكل عام كانت صداقته مع حيدر وكمال ورابيل أعمق من صداقته بكاچال وآشيم وجاديب. وفيما يتعلق بالقلب كان أيضاً يحب بارفين ـ أخت حيدر ـ عقليا وعاطفيا أكثر من ارشانا أو ديبتى أو جيتا أو سوناندا.

لم يكن سورنچان يعرف التفرقة بين أصدقائه بناء على دينهم. فى طفولته عرف أنه هندوسى ولكن لم يعرف ما الذى يعنيه هذا بالضبط. أثناء دراسته فى مدرسة القرية فى ميمنسنج كان يدخل فى مشادات كلامية مع صبى اسمه خالد، وعندما وصلت المشادات إلى ذروتها قام الصبيان بشتيمة كل منهما للآخر بأفحش الكلمات. وعندئذ وصفه خالد بأنه هندوسى. وعرف سورنچان أن كلمة هندوسى كانت نوعاً من الحط من شأنه مثل كلمة كلب أو خنزير. ولكن بعد أن نضج بعض الشيء عرف أن كلمة هندوسى تعنى الطائفة الدينية التى ينتمى إليها. وعندما كبر واستطاع أن يتخذ قرارا فى هذه المسألة أعلن سورنچان أنه بعد كل شيء وقبله ـ إنسان بنغالى العرق. وأن هذا العرق لم تصنعه ديانة معينة وأنه لا يجب أن يضع الناس حدودا طائفية بين بعضهم البعض.

وكان يقول لأصدقائه وأسرته أن البنغاليين كعرق لا يجب أن يصنفوا أنفسهم بفروق طائفية أيا كانت، من أجل أن يبقى مصطلح «بنغالى» غير مقسم. ولسوء

الحظ فإن نظرة سورنچان المثالية لم تجد قبولاً كبيرا فى بنجلاديش. لأنهم كانوا يبحثون عن الوحدة لا بين أبناء الأمة الواحدة، ولكن بين أبناء الدين الواحد، حتى لو كانوا يعيشون فى بلاد أخرى مختلفة. ونتيجة ذلك ببساطة أن يُعامل أفراد مجموعة معينة من ديانة مختلفة على أنهم دخلاء بل ومنبوذون فى وطنهم.

هذه النظرة التى لاقت القبول فى كل الدولة هى التى أسفرت عن التقسيم بين الهندوس والمسلمين.

اليوم هو الثامن من ديسمبر، الأمة كلها فى حالة إضراب دعا إليه الأصوليون، بناء على دعوة أحد الأحزاب القوية وهو حزب «الجماعة الإسلامية»، اعتراضاً على هدم مسجد بابرى.

قضى سورنچان يومين من الكسل فى فراشه، قبل أن يقرر أن يستنهض نفسه ليرى ما الذى يحدث فى دكا مدينته المحببة. فى الغرفة المجاورة كانت أمه تستلقى مرعوبة مما يمكن أن يحدث لهم. لم يكن سورنچان متأكدا من مشاعر سودهاموى. الشيء الوحيد الواضح بالنسبة له هو أنه لن يلجأ إلى الاختباء هذه المرة، وإذا كانت نتيجة ذلك موته فليكن. إذا أتى المسلمون وقطعوهم إرباً، فليفعلوا.

لم يكن سورنچان واثقاً من مدى حكمة موقف أبيه، ولكنه كان بمثل تصميمه على البقاء فى البيت. مايا رحلت بمفردها ولا يمكنه أن يفعل لها شيئا. ذهبت للعيش فى بيت مسلم عند صديقتها بارول رفعت، مايا المسكينة، تمنى أن تكون فى أمان، وبينما كان يستعد للخروج نهضت كيرونموى وسألته:

ـ إلى أين تذهب؟

ـ سألقى نظرة على المدينة لأعرف ما الذى يحدث بها.

ـ لا تذهب يا سورو. لا أحد يدرى ما الذى يحدث فى الخارج.

أجاب سورنچان باستياء وهو يصفف شعره:

ـ فليحدث ما يحدث. يوما ما ينبغى أن نموت كلنا، لا ترتاعى هكذا. يزعجنى أن أرى الناس مرعوبين.

جرت كيرونموى وهى ترتجف بالخوف نحو سورنچان وخطفت المشط من يده قائلة:

- اسمعنى يا سورنچان. الموقف خطير فى الخارج. بالرغم من الإضراب فهم يهاجمون المحلات والمعابد.. ابق بالمنزل فليس هناك داعٍ للخروج.

لكن سورنچان كان دائماً ابنا غير مطيع. فلماذا يطيع كيرونموى الآن؟ لم يبال بكلامها وغادر البيت. اندهش سودهاموى الذى كان جالساً وحده من رؤية ابنه يخرج ولكنه لم يبد أى محاولة لمنعه.

هواء المساء منعش ولكنه مشحون بصمت متجهم مخيف، سورنچان لم يكن خائفاً فى بيته ولكن الآن بعد أن غادر ملجأه انتابه بعض الخوف، وبما أنه قرر التجول فى المدينة فقد صمم أن يفعل ذلك. فى الطريق ازداد شعوره بعدم الراحة عندما أدرك أن أحداً من أصدقائه المقربين لم يسأل عنهم أو يعرض عليهم اللجوء إلى بيته. لا بلال ولا كمال.. لا أحد، حتى إذا جاءوا لن يذهب معهم على أية حال، ولماذا يفعل ذلك؟ هل عليهم أن يحزموا حقائبهم ويهربوا فى كل مرة تنشب فيها حوادث العنف؟ إنه شىء مخجل وعار حقيقى. فى الواقع، كما فكر سورنچان، لقد كان أحمق عندما قبل ضيافة كمال فى آخر مرة. إذا جاءوا للسؤال عنه هذه المرة فسوف يقول لهم:

- كيف يمكن أن تقتلونا وتشفقوا علينا فى نفس الوقت؟.. الأفضل أن تجمعوا كل الهندوس فى البلد وتضعوهم أمام صاروخ منطلق، ساعتها ستنتهى كل مشاكلهم، بدلاً من أن تقتلوهم متفرقين أو تستعرضوا بأنكم تنقذونهم سراً.

بمجرد دخول سورنچان شارعا أكبر، صاح مجموعة من الصبية:

- أمسكوه، إنه هندوسى.

هؤلاء الصبية جيرانه، على مدار السنوات السبع الماضية كان يلتقى بهم مرة كل يوم على الأقل. وكان يعرف اثنين منهم شخصياً، واحد منهم اسمه علام كثيراً ما كان يأتى إلى بيتهم ليطلب مساهمة مالية فى نادى الحى. وكان سورنچان يشارك فى

بعض الأنشطة الثقافية التى ينظمها النادى، وفكر حتى أن يقوم بتعليم الأولاد أشعار د.ل. روى وهيمانجا بيسواس. كانوا يأتون إلى بيته دائما يطلبون كل أنواع المساعدة، ولأنهم جيران كان سودهاموى يعالجهم بالمجان غالباً. إنهم نفس الذين يهددون بضربه اليوم لأنه هندوسى!

أسرع سورنچان فى الاتجاه المضاد، لا بدافع الخوف، ولكن بدافع الخجل، كان خجلاً ومغتماً من فكرة أن هؤلاء الأولاد يضربونه. هذا الإحساس بالعار والحزن لم يكن موجها نحو نفسه، بل نحو هؤلاء الذين يمارسون العدوان وليس المعتدى عليهم!

اتجه إلى ميدان شابلا، صمت متوتر فى المنطقة. مجموعات صغيرة قليلة من الناس يقفون.. قطع من الأحجار ملقاة عبر الشارع مع أخشاب مشتعلة وزجاج مكسور، من الواضح أن حادث عنف اندلع فى المكان منذ قليل. بعض الشبان كانوا يعدون لعمل بعض المهام، وفى الاتجاه الآخر بعض الكلاب الضالة تعدو بلا هدف، بعض عربات «الريكشا» مرت، وسائقوها يدقون أجراسهم. لم يفهم سورنچان ما الذى يحدث بالضبط. فقط الكلاب التى لا تعانى من الخوف بدت أنها تجرى مبتهجة، لعلها كانت سعيدة أن بإمكانها الجرى فى الشوارع الخاوية، وتمنى سورنچان لو أنه يستطيع الجرى مثلها.

منطقة موتجيل التجارية المزدحمة فى العادة كانت الآن عارية وصامتة وأغرت سورنچان باستعادة طفولته.. أن يلعب الكرة ويتناول الفواكه أو يركب الأخشاب ويلعب الكريكيت.. نظر يساره فشاهد مبنى يحترق وأدرك أنه مكتب شركة الطيران الهندية، لم يبق شىء من لافتته وأبوابه ونوافذه.

بعض الناس وقفوا حول الحطام يثرثرون ويضحكون. فجأة تولاه شعور بأنه مراقب، أسرع بالابتعاد عن المكتب المحترق، لماذا يهتم ببعض المبانى المحترقة؟ أثناء سيره شاهد عددا آخر من المبانى المحترقة، هل هو يستمتع برائحة الخشب والطين المحترق كما يستمتع عادة برائحة الزيت المحترق؟ ربما!

لاحظ وجود تجمع خارج مبنى الحزب الشيوعى البنغالى ورأى الأحجار ملقاة

على الطريق. وبالجوار كانت هناك مكتبة يشترى منها الكتب عادة. لم تسلم من الاعتداء هى الأخرى؟ كتاب نصف محترق كان راقداً أمام قدميه. رواية «الأم» لمكسيم چوركى. فكر للحظة فى أنه بطل الرواية بايلولا سوف ثم تخيل أنه يشعل النار فى أمه ثم يسحقها تحت قدميه. ارتجف بلا إرادة من الفكرة، بينما الكتاب يتفحم عند قدميه، تجمع المزيد من الناس، يتحدثون بهمس مرتفع بينما المكان كله ملفوف بالتوتر والإثارة. ماذا حدث؟ ماذا سيحدث؟ لا أحد يعرف بالرغم من الشائعات التى تملأ الهواء، الشىء الوحيد الواضح هو أن مكتب الحزب الشيوعى قد احترق.

ولكن لماذا؟ البعض أجاب بأن الشيوعيين غيروا استراتيجيتهم بالفعل ولكنهم لا يستطيعون الهرب من غضب المتعصبين. الرفيق «فرهد» مات على ما يبدو وهناك جنازة ضخمة تم تنظيمها والدعوة إلى حفل تأبين يحضره الكل. وبالرغم من هذا، لم يتخيل أن الطائفية أحرقت مركز الحزب الشيوعى!

حدق سورنچان على أطلال المكتب المحترق. وفجأة شاهد قيصر يقترب منه. ذقنه غير حليق وشعره غير مهذب وعيناه بلون الدم، وقلق غريب تبدى فى صوته وهو يقول بلهجة آمرة:

ـ لماذا خرجت؟

أجاب سورنچان:

ـ ألا يمكننى أن أخرج؟

ـ لا، ليس ذلك، ولكنك تعلم هذه الحقارة.. كل هذا الكلام عن الدين، قل لى هل يؤمنون بالدين فعلاً؟ الإرهابيون شباب جماعة شيبر فعلوا هذا، أحرقوا مكتب الحزب والمكتبة ومكتب خطوط الطيران الهندية، هؤلاء الذين كانوا ضد الاستقلال ينتظرون الآن أى فرصة لإثارة المتاعب كما لو أن الجميع بانتظار سماعهم يصرخون.

خرجا من موقع الدمار معاً، سأله سورنچان عن الأماكن الأخرى التى أحرقوها. ذكر له قيصر أسماء أكثر من عشرة معابد ودور عبادة هندوسية تم هدمها وإحراقها وأضاف:

ـ المثير للسخرية أنه فى أثناء ذلك كانت المسيرات تنادى بالوئام الطائفى.

تنهد سورنچان بعمق، أزاح قيصر شعره إلى الوراء وقال:

ـ ليس المعابد فحسب. لقد أشعلوا النيران فى معسكر الصيادين فى ماجهير جهات، وعلى الأقل خمسون منزلاً تم تدميرها عن آخرها.

استطرد قيصر فى ذكر عشرات المعابد ودور العبادة ومئات المنازل ومحلات وممتلكات الهندوس التى أحرقت أو هدمت ونهبت والذين ماتوا والنساء اللواتى تعرضن للضرب والحرق.وفى نهاية هذه القائمة الطويلة من الدمار كان كل ما قاله سورنچان هو:

ـ أوه.

ولم يرغب فى قول أى شيء آخر، كل ما رغب فيه هو ركل الأحجار فى طريقه كما اعتاد أن يفعل خلال طفولته. واصل قيصر إخباره بالمزيد من الحالات ولكن سورنچان توقف عن الاستماع، لم يكن حتى مهتماً. توقف كلاهما أمام نادى الصحافة. كان هناك عدد من الصحفيين يقفون خارج المبنى، مستغرقين فى مناقشة حامية، حدق سورنچان فيهم وباهتمام غائم حاول سماع كلامهم، البعض قال أنه فى الهند قُتل مائتا شخص على الأقل فى حوادث عنف وإطلاق النار من البوليس، ووصل عدد الجرحى إلى عدة آلاف. الجماعات الأصولية تم حظرها وزعيم المعارضة استقال من منصبه. والبعض كان يحكى عن شخص فى تولسيدهام أمسك به أفراد الجماعة وكادوا يشعلون فيه النيران لولا أن تعرف عليه بعض الناس وقالوا لهم أنه مسلم.

الذين يعرفون سورنچان اندهشوا من رؤيته هناك. سألوه عن سبب خروجه من منزله ونصحوه بالعودة إلى البيت فوراً لأنهم يتوقعون المزيد من العنف.. لم يقل سورنچان شيئا. كان مرتبكا ومشوشاً. هل ينبغى أن يبقى فى البيت لمجرد أن اسمه سورنچان دوتا، بينما يستطيع قيصر ولطيف وبلال لا الخروج من البيت فحسب ولكن مناقشة الأحداث والانضمام إلى المسيرات المعارضة للطائفية. بالتأكيد ليس هذا عدلاً، أليس سورنچان مستقل التفكير ومنطقياً وحى الضمير مثلهم؟ استند على

حائط بجواره، وبدت نظرته خالية من المعنى وهو يشعل سيجارة «بانجلا فايف» اشتراها من محل قريب. شعر بالضياع والعزلة الشديدة. الكثيرون حوله من معارفه، وكان بالطبع مقرباً من بعضهم، ولكنه يشعر بالوحدة!

شعر بإحباط من كونه لا يستطيع الانضمام إليهم فى مناقشة تدمير مسجد بابرى والمعابد. حتى إذا أراد الاندماج والاختلاط معهم فلن يستطيع، لأنه كان هناك خط لا يمكنه تجاوزه. فهم لماذا يحاول الناس تجنبه وإخراجه من مجموعاتهم، ولماذا يشفقون عليه، ولكن لم يكن من السهل عليه قبول هذا. استغرق فى تدخين سيجارته ونفخ عدداً من حلقات الدخان، وعندئذ، وسط النشاط المحموم حوله ترك جسده ينفصل ويسقط على الحائط.. القريب.

عدد الذين يلقون بنظراتهم الجانبية إلى سورنچان كان يتزايد. معظمهم يندهشون من رؤيته، لأنه لم يكن هناك هندوسى واحد خارج بيته. ولذلك لم يكن مستغرباً أن يندهشوا من وجوده. انضم قيصر إلى مجموعة من الناس يعدون للخروج فى مسيرة. وتجمع الصحفيون بحقائبهم وكاميراتهم عند المشهد، من بينهم لوتفور، لم يناده سورنچان وبعد قليل جاء لوتفور بنفسه مذهولاً من رؤيته وقال:

ـ لماذا أنت هنا، يادادا؟

ـ لماذا لا أكون هنا؟

لوتفور كان قلقاً ومشغولا بشدة وهو يقول:

ـ آمل ألا تكون هناك متاعب فى البيت.

شعر سورنچان باستغراب من حمية صوت لوتفور وسلوكه، فى العادة كان الفتى خجولاً وصموتاً ولم يكن ينظر فى عين أى أحد مباشرة، كان شابا مهذباً وسورنچان هو الذى تحدث إلى رئيس تحرير مجلة «أكاتا» ونجح فى أن يحصل له على هذا العمل. أشعل لوتفور سيجارة «بنسون» وواصل استجواب سورنچان:

ـ هل أنت متأكد أنه لا توجد مشكلة؟

ضحك سورنچان وقال:

ـ أية مشكلة؟

شعر لوتفور بالحرج وقال:

ـ أنت تعلم يا دادا، أعنى حالة البلد.

ألقى سورنچان بعقب سيجارته وداسه بقدمه، كان مندهشاً بعض الشيء لأن لوتفور لم يرفع صوته عليه أبداً كما يفعل الآن، ولم يستطع سورنچان منع نفسه من الشعور بأن لوتفور كان وقحاً بعض الشيء.. نفث لوتفور دخان سيجارته وقال بعبوس:

ـ دادا، أعتقد أنه يجب أن تذهب إلى مكان آخر اليوم. ليس من الأمان أن تبقوا فى منزلكم. ألا تفكر فى الذهاب إلى بيت جار مسلم لليلتين على الأقل؟

نظر سورنچان بشحوب فى جزء من حبل محترق أمام محل السجائر وأجاب بلا مبالاة مقصودة:

ـ لا

ـ لا!!

انزعج لوتفور من موقف سورنچان واستطاع الأخير أن يستشعر القلق فى صوته، لكن ما كان يقوله الشاب الصغير ليس جديداً، وكل واحد لديه الجرأة قبله نصحه بنفس الشيء تقريبا:

ـ ليس من الصواب أن تبقى فى بيتك. الأفضل أن تختبىء. لا تكشف عن هويتك. اخرج عندما يخف توتر الموقف.

أراد سورنچان أن يشعل سيجارة أخرى، ولكن سلوك لوتفور وتحذيراته المستمرة أثنته عن إشعالها. وضع ذراعيه حول صدره وتطلع حوله، الأشجار ترتدى الأوراق الخضراء، ملابسها الشتوية. إنه يحب هذا الموسم والأشياء التى تصحبه: كعك الصباح والدخول تحت اللحاف الذى دفأته الشمس عندما يأتى الليل، وقصص

«العفاريت» التى تحكيها أمه...

عاد إلى الزمن الحاضر عندما رأى رجلا ملتحيا يحمل حقيبة تتدلى على كتفه، وقف بجوار لوتفور وأخذ يحصى بصوت مرتفع الأعمال الوحشية التى ارتكبت لعدد من المعابد ودور العبادة الهندوسية ومنازل ومحلات الهندوس. تساءل سورنچان هل يجب أن يغادر الآن، لأنه لم يعد يرغب فى صحبة أحد، فى نفس الوقت لم يعلم ماذا يفعل أو إلى أين يذهب بالضبط. هل يظل واقفا هنا، وينضم إلى المسيرة، أم يرحل إلى مكان بعيد؟ ربما يجب أن يذهب إلى مكان مقفر لا أصدقاء فيه ولا أقارب.. الرجل ذو اللحية والحقيبة المدلاة على كتفه انضم إلى مجموعة أخرى ليعيد ما لديه من أخبار، وبدأ لوتفور يستعد للرحيل لأن لا مبالاة سورنچان بدأت تزعجه.

لايزال هناك كثير من التوتر فى الهواء، مال مزاج سورنچان من جديد إلى مشاركتهم فيما يحدث، أن ينضم إلى الجمع ويقوم بإحصاء المعابد التى دمرت وأحرقت، ويسأل عن البيوت والمحلات التى نهبت وسرقت، وأن يعترض على ما يحدث . لابد من جلد هؤلاء المتعصبين. هؤلاء المتدينون المزيفون هم دجالون باسم الدين. لكن رغبته فى أن يصبح جزءاً من كل ما يحدث حوله كانت تخبو بنظرات الشفقة التى يوجهها إليه المحيطون به. بلا صوت، بدا وكأنهم يخبرونه بأنه لا يستطيع أن يشترك معهم. لقد كان حتى اليوم خبيراً فى إلقاء الخطب فى عدد كبير من الموضوعات وفى تولى القيادة فى مختلف النشاطات، اليوم كما لو أن قوة غريبة تنزع عنه صوته، ولا أحد حوله يريد تشجيعه على قول شىء أو عمل شىء، على أن يقف ويقاتل. انشق قيصر عن الزحام وأتى إليه وهمس:

ـ إنهم يخططون لعقد اجتماع فى «بيت المكرم» لمناقشة قضية مسجد بابرى. إنهم يتجمعون وسيكون من الآمن لك أن تعود إلى البيت.

سأله سورنچان:

ـ ألن تذهب أنت إلى البيت؟

ـ أوه لا، أفضل أن أحضر الاجتماع الذى يدعو إلى الوئام الطائفى.

خلف قيصر كان هناك شابان صغيران اسمهما ليتون وماهاتابا ، قالا أيضاً:

ـ هذا لمصلحتك. حتى جالخبار أحرقوه.. إنهم يفعلون ذلك حولنا، هل تتخيل ما سيفعلونه إذا عرفوا هويتك؟ إنهم يجرون علانية حاملين السكاكين والمخارط والسواطير.

نادى قيصر على عربة ريكشا ليرسل فيها سورنچان إلى بيته.

ظهر لوتفور وأمسك بيد سورنچان وقال بلهجة آمرة:

ـ تعال يا دادا، اذهب مباشرة إلى البيت. أنا فعلاً لا أفهم ماذا أخرجك من البيت اليوم!

كلهم بدأوا فى الإلحاح عليه بالذهاب إلى البيت. بعض الذين لا يعرفونه جاءوا مسرعين ليعرفوا ماذا يحدث. شرح لهم أصدقاؤه أنه هندوسى وليس من الأمان له أن يظل هناك، وأطرق الآخرون مؤيدين:

ـ نعم. لابد أن يعود إلى البيت.

لكن سورنچان لم يترك بيته لمجرد أن يجبروه على العودة إليه، دفعه الأصدقاء برفق نحو الريكشا بينما أمسك لوتفور بيده، فجأة انتاب سورنچان العناد وانتزع يده بقوة.

**

شعر سودهاموى بالتعب. كل ما أراده هو الاستلقاء فى الفراش والراحة، لكنه وجد نفسه ينهشه القلق، ففوق كل ما حدث غادر سورنچان البيت. وفور رحيله سمع سودهاموى طرقاً على الباب. قفز من فراشه آملاً أن يكون سورنچان قد عاد، ولكن الطارق كان أختارو جامان، الأستاذ المتقاعد فى الجوار الذى يبلغ الستين من عمره، دخل البيت ورد الباب الأمامى وسأل سودهاموى بصوت قلق:

ـ هل هناك أية متاعب؟

نظر سودهاموى إلى أكوام الكتب على المائدة وسأل بفتور:

ـ لا ، ما الذى يمكن أن يحدث؟

سحب اختارو جامان مقعدا وجلس عليه. كان يعانى من متاعب فى عظامه ولذلك يحافظ على رأسه مستقيماً بشكل غير طبيعى، وقال:

ـ أنا متأكد أنك سمعت بكل ما حدث لمسجد بابرى؛ لم يبق منه شىء. ياله من عار!

غمغم سودهاموى ولم يعلق.

ـ أليس لديك شىء تقوله؟ هل تؤيدهم؟

ـ ولماذا أؤيدهم؟

ـ إذن لماذا لا تقول شيئا؟

ـ الأشرار يفعلون أشياء شريرة. كل ما يمكننى عمله هو الشعور بالأسف.

ـ لا أكاد أصدق أن تحدث مثل هذه الأشياء فى دولة علمانية! ياللعار! المؤسسة القومية بأكملها، هذه البيانات السياسية، ومحكمتهم العليا، والبرلمان والأحزاب السياسية والتقاليد الديمقراطية، كل شىء يفعلونه ليس أكثر من بعض الضوضاء و الهواء الساخن. مهما قلت يا سودها ـ بابو، ليس فى بلدنا أية حوادث عنف مقارنة بالهند.

تزايد الألم فى صدر سودهاموى. استلقى باسترخاء فى الفراش. ربما يعيد إليه كوبا من الشاى الساخن بعض الحيوية، ولكن من يعد له الشاى؟ كيرونموى مكتئبة جداً بسبب ما فعله سورنچان ولا ينتظر منها أن تعد الشاى، لماذا خرج سورو بمفرده؟ وإذا كان يجب أن يخرج فلماذا لم يأخذ حيدر معه؟ ولكنه سورنچان مندفع دائما، ومن المستحيل إبقاؤه طالما يريد الخروج.. يفهم سودهاموى ذلك، ولكن الحزن والقلق طبيعة إنسانية لا تفهم بالمنطق، أخفى سودهاموى خوفه وقلقه وحول اهتمامه إلى ضيفه من جديد، وقال:

ـ الغريب أن كل الأديان هدفها واحد ـ هو السلام.. والآن باسم الدين تحدث كل هذه القلاقل وافتقاد السلام، دماء كثيرة تراق وبشر كثيرون يتعذبون. أمر يدعو

للشفقة أنه على مشارف نهاية القرن العشرين نشهد مثل هذه الأعمال الهمجية ترتكب باسم الدين، إن رفع لواء الدين كان دائما أسهل طريق إلى سحق البشر وروح الإنسانية.

كان دور اختارو جامان فى الكلام عندما دخلت كيرونموى إلى الحجرة تحمل كوبين من الشاى. وسألت زوجها:

ـ هل زاد ألم صدرك؟ لماذا لا تتناول أقراصك؟

وضعت الكوبين على المائدة وجلست على الفراش. قال لها اختارو جامان:

ـ يا بودى، أنت لا ترتدين ملابس الهندوس السانخا والسندور، أليس كذلك؟

نظرت كيرونموى لأسفل وقالت:

ـ ليس منذ ١٩٧٥.

ـ حمدا لله! على الأقل يمكن أن تضمنى سلامتك.. الأفضل أن يكون الإنسان آمناً عن أن يكون آسفاً.

ابتسمت كيرونموى ابتسامة شاحبة، ومثلها ابتسم سودهاموى. شرب اختارو جامان شايه بجرعات سريعة. ألم صدر سودهاموى لم يتراجع ولكنه قال:

ـ لقد كففت عن ارتداء الدهوتى أنا أيضاً منذ فترة من أجل عيون حياتى العزيزة يا صديقى.

وضع اختارو جامان كوبه وقال:

ـ سأذهب الآن، أعتقد أننى سأمر على بينود ـ بابو لأطمئن عليه أثناء عودتى.

بعد ذهاب البروفيسور العجوز رقد سودهاموى فى فراشه، برد شايه دون أن يمسه، أغلقت كيرونموى الباب وجلست وظهرها إلى الضوء ووجهها فى الظل، فى وقت ما كانت كيرونموى تغنى بصوت جميل، إنها ابنة محامى شهير فى بداهما نباريا تزوجت فى سن السادسة عشرة، بعد زواجها شجعها سودهاموى على تعلم الغناء والموسيقى وتلقت بعض الدروس على يد ميتهان دى. وسرعان ما أصبحت

مغنية جيدة لدرجة أنهم كثيرا ما كانوا يطلبون منها أن تغنى للجمهور فى ميمنسنج لأن عدد المطربين فى المدينة كان محدودا.

تذكر سودهاموى حادثة جرت عندما كان عمر سورنچان ثلاث أو أربع سنوات. توترت أعصاب سودهاموى ونزل عرقه بغزارة عندما جاء دور كيرونموى فى الغناء بعد مطرب مشهور اسمه سمير شاندرا دى. غنت أغنية «أماندا لوك.. مانجالا لوك.. بيراجو ساتيا سوندارو» (فى هذا العالم من السلام والسعادة، دعونا نعيش معاً، حتى نستوعب جماله..) أخذ الجمهور يصفق ويصيح طالباً للإعادة وأجبروها على غناء ثلاث أغان أخرى على الأقل. غنتها جميعا بجمال وإحساس لدرجة أن شخصا ملحداً مثل سودهاموى تأثر بعمق لدرجة البكاء، بعد الاستقلال توقفت كيرونموى عن الغناء للجمهور. وذات يوم طلب منها سورنچان أن تشاركه الغناء فى حفل محلى لكنها ضحكت وقالت:

ـ أنا لم أعد أتمرن وصوتى ليس فى حالته.

فقال لها سودهاموى:

ـ كفى عن التواضع. أنت تغنين ببراعة وكل الناس يعرفونك. وذات مرة صفقوا لك طلباً للمزيد.

ـ نعم، أعرف ولكن هؤلاء الذين صفقوا وهتفوا لى قالو أيضا: «لأن الهندوسيات لا يخجلن من تعلم الغناء، لذلك يجلسن وسط الناس أمام رجال أغراب ويغنين للجميع».

سألها سودهاموى:

ـ هل تعنين أن المسلمات لا يغنين؟

ـ نعم، يغنين الآن. ولكن قبل ذلك، عندما كانت المطربات لا يحظين بالشهرة الواسعة، كان علينا أن نتلقى كل التعليقات المسيئة.. ميناتى ـ دى كانت مطربة ممتازة ولكنها أحبطت ذات يوم عندما هاجمها بعض الصبية واتهموها بأنها تحاول أن تعلم المسلمات الغناء.

قال سودهاموى:

ـ ولكنه شيء جميل أن تتعلم الغناء؟

ـ ليس هذا ما يعتقده الجميع. كثير من الرجال يقولون أنه لا ينبغى للنساء تعلم الغناء. يعتقدون أنه يفسد أخلاقهن.

بمرور الوقت فقدت كيرونموى كل اهتمامها بالغناء. حاول أستاذها ميتهان دى تشجيعها ولكنها تنهدت بحزن وقالت له:

ـ لا، يا دادا، لم أعد أحب الغناء، ما الفائدة، إذا كان الناس يقولون أن الغناء والرقص قلة أدب؟

احترم سودهاموى رغبتها فى التوقف عن الغناء للجمهور ولكنه شكا أكثر من مرة رفضها أن تغنى حتى فى البيت. ولكن أين المناخ الملائم للغناء فى البيت؟! كثيرا ما كان يحدث فى منتصف الليل، عندما يجافيهم النوم، أن يستيقظوا ويصعدوا إلى سطح البيت.. وهناك، وهم يتطلعون إلى النجوم البعيدة فى صمت وتتطلع قلوبهم إلى بيتهم على ضفاف نهر براهما بوترا العظيم، فى مثل هذه المناسبات كانت تتغنى كيرونموى بأغنية للشاعر طاغور، تتكلم عن ذكريات حلوة لا يمكن نسيانها. وكان قلب سودهاموى الصلد يصبح ناعما ويمتلىء بالحنين إلى الأشياء الجميلة القديمة. ويشتاق إلى الحقول التى كان يجوبها فى طفولته وشبابه، وملعب المدرسة والنهر المتدفق وضفافه التى تؤدى إلى الغابات الكثيفة، سودهاموى القوى الصلب تحول فى سنواته الأخيرة إلى رجل تتكسر روحه من الأحزان التى أصابته. كان يستيقظ باكيا فى منتصف الليل، عندها كان يضم زوجته فى حضنه ليسكن من حزنه.

١٩٧١ كان عاماً سيئاً عليه، لأنه العام الذى اغتيل فيه أصدقاؤه جاجو نومى جوشال وبرانولا ساركار ونيتاى سن أمام عينيه. أخذوهم إلى معسكر الإعتقال وأطلقوا عليهم الرصاص. وبعد ذلك أخذوا أجسادهم فى شاحنة وألقوا بها فى فضاء موحش. حيثما كان يعثر الباكستانيون على الهندوس كانوا يمسكون بهم ويركلونهم بالأحذية، يطعنونهم بالحراب، يفقأون عيونهم ويكسرون ظهورهم. وإذا خرجوا من هذا كله أحياء كانوا يقتلونهم. رأى سودهاموى كثيرا من المسلمين

يُضربون ولكن حياتهم كان يتم الإبقاء عليها، وهذا لم يكن يحدث أبدا مع الهندوس، خلال حرب الاستقلال تكومت جثث الهندوس والمسلمين الذين قاتلوا فى سبيل وطنهم فى مدفن معتقل قريب. فى هذه اللحظة المثيرة التى ابتهج فيها الوطن باستقلاله الوليد جاء أقارب معارفه ماجد ورحيم وإدريس وبكوا فوق رفات الهندوس والمسلمين التى حشرت فى مقبرة ماتهورباتى. وكانت دموعهم تتزايد عندما يدركون أنه لا يمكن التمييز بين عظامهم. خرج سودهاموى من الأسر والتعذيب بقدم وثلاث عظام مكسورة فى قفص صدره، شفيت كسوره وكذلك الإصابات الشديدة التى تعرض لها قضيبه المشوه، ولكن ندوب قلبه بقيت إلى الأبد، لم يشف سودهاموى من آثار اعتقاله خلال حرب الاستقلال، عاد حياً من المعسكر ولكن هذا كان كل شىء، ومن وقتها لم يشعر بأنه حى فعلاً، حياة التخفى والخوف التى عاشها منذ ذلك الوقت لم تساعد على تحسن حالته العقلية، فطوال سبع سنوات عاش فى كوخ صغير من البوص تحت اسم مستعار هو عبد السلام، فى قرية آرجانخيلا فى فالبور.. تسمى سورنجان باسم صابر وكيرونموى باسم فاطيمة. وهو يتذكر هذه الفترة كانت تعاوده آلام ضلوعه المكسورة وقلبه الذى يتمزق من الخجل لأن زوجته الحبيبة كانت تتخفى باسم مستعار. فى ديسمبر عندما أتى المقاتلون فى سبيل الحرية إلى فالبور انتفضت كل القرية بشعار الاستقلال «چوى بانجلا» واستطاع سودهاموى اخيرا أن يناديها بالاسم الذى يعبده.. كيرون.. كيرون.. كيرونموى. وتلاشى الألم الذى أحرق قلبه بعد أن استعاد حرية أن ينادى كيرونموى باسمها الحقيقى وسط الناس. هذه كانت فكرة سودهاموى الشخصية عن الحصول على الاستقلال.

ذكريات سودهاموى قطعها فجأة طرق عنيف على الباب. كان الدكتور هاريبادا باتشاريا. قرص الدواء الذى وضعه سودهاموى تحت لسانه خفف ألم صدره إلى حد ما سمح له بتحية صديقه. ولكن هاريبادا سأله:

ـ هل أنت مريض؟ وجهك شاحب جداً.

ـ نعم يا هاريبادا، منذ مدة أشعر أننى لست على ما يرام. كما أننى لم أفحص ضغط دمى.

ـ لو كنت أعرف لأحضرت معى معدات قياس ضغط الدم.

ـ سورنچان خرج من البيت وسط كل ما يحدث، هل تتخيل مدى قلقنا عليه؟ ولكن كيف تمكنت من الوصول إلى هنا؟

ـ سلكت طريقا مختصرا بعيداً عن الطريق الرئيسى

لفترة طويلة لم يتحدث أيهما، ثم خلع هاريبادا عباءته وقال:

ـ اليوم فى دكا عقدت مسيرة للاعتراض على هدم مسجد بابرى. فى نفس الوقت سوف تعقد مسيرات سلام، الأحزاب السياسية وعدد من المنظمات الأخرى يطالبون الجميع بالحفاظ على الوئام الطائفى، والبرلمان وجه نداء إلى الشعب بضبط النفس. والشيخة حسينة بعثت برسالة قالت فيها أنه يجب الحفاظ على الوئام الطائفى مهما حدث. ٢٣٦ شخصاً قتلوا فى أحداث العنف فى الهند، وفرض حظر التجول فى ٤٠ مدينة وتم حظر الأحزاب الدينية كما وعد رئيس الوزراء بإعادة بناد مسجد بابرى.

كان هاريبادا يجلس الآن ناظراً أمامه فى حزن وسأل:

ـ هل قررت ماذا ستفعل؟ هل ستبقى فى هذا المكان؟ لا أعتقد أن من الصواب أن تستمر فى البقاء.. كنت أفكر فى الذهاب إلى بيت أهل زوجتى فى مانيكجونى. ولكن زوج أختى جاء هذا المساء وأخبرنى أنه فى مدينة مانيكجونى تم نهب وإحراق أكثر من مائة منزل، و٢٥ معبدا، فى قرية بوكجهورى أحرقت كل منازل الهندوس، كما تسللوا إلى منزل ديبنى شور فى منتصف الليل واختطفوا ابنته سارا سواتى واغتصبوها.

قال سودهاموى بصوت مرتفع يملؤه العجب والصدمة والخوف:

ـ ماذا تعنى؟ هل ما تقوله صحيح؟

ـ أين ابنتك؟

ـ مايا ذهبت إلى منزل إحدى صديقاتها.

ـ أتمنى أن يكون منزلا مسلما.

ـ نعم.

تنهد هاريبادا وهو يقول:

ـ في هذه الحالة فالأمور على ما يرام.

كيرونمــــوى التى أصـــابها الانزعـــاج مثل زوجـــها من الأخبـــار التى يحملها هاريـــبادا شعرت بالأطمئنان مجددا عندما ســـمعت رأى صـــديقهما فيمـــا فعلته مايا، أزاح سودهاموى نظارته ومســـحها وأعاد وضعها على عينيه وقال:

ـ في الحـــقيقة هـــذه المنطـــقـــة مليئـــة بالعنـــف، لم نـــر الكثير من حوادث العنف في ميمنســـنج. بالمناسبة يا هاريبادا هل ســـمعت عن أية أحداث فى ميمنســـنج؟

ـ نعم، سمعت أنه فى قرية باشوادى فى نالبور، تم هدم معبدين وحجرة صلاة صغيرة فى تريشال، ومعبد لكالى.

ـ ولكن في المدينة؟ بالتأكيد لم يحدث شيء في المدينة، في الحقيقة حوادث العنف نادرة في شمال البلاد. ما رأيك يا كيرونموى هل سمعت أبدا أنهم أحرقوا معبدا فى ميمنسنج؟

قبل أن تجيب كيرونموى كان هاريبادا يقول:

ـ مكتب بوجا في طريق نورث بروك هول، تمثال كالى فى بيت زاميندار والمعبد المجاور أحرقت كلها عن آخرها، اليوم في شانتفاجار نهب محلان للحلويات ثم أحرقا، في كوشيتا هاجمت جماعة شيبر ستة معابد فى منتصف الليل فوق هذا، لقد شعرت بالخوف عندما سمعت عما حدث فى شيتاجونج فى سيلهيت وبهولا وشيربور وبازار كوكس ونواخالى.

سأله سودهاموى:

ـ الخوف من ماذا؟

ـ من الخروج الجماعي..

ـ لا.. لا.. لا أعتقد أن حوادث العنف ستتسع فى البلد لا أعتقد أنه ستكون هناك هجرة جماعية..

ـ دادا، هل نسيت ما حدث فى ١٩٩٠؟ أم أنك غير قابل للتأثر على الإطلاق؟

ـ أوه، هذا كله كان من تدبير حكومة أرشاد.

ـ تعال يا دادا، لِمَ لا تلقى نظرة على سجلات مكتب إحصاء حكومة بنجلاديش؟ خروج هذا العام سيكون هائلاً.. الناس لا يرحلون بسبب أزمة مصطنعة، فى النهاية طين الوطن ليس مثل طين أصيص الزهور الذى يمكن ريه بالماء كل يوم وتغييره بانتظام، لا يادادا، أنا أشعر بالتوتر والخوف تماما، أحد أبنائى يدرس فى كالكتا، ولكن بناتى البالغات هنا، وأنا اقضى الليالى مؤرقاً من قلقى عليهن، أعتقد أننى سأرحل..

فجأة خلع سودهاموى نظارته بعنف وصاح فى صديقه:

ـ هل جننت يا هاريبادا؟ لا تقل مثل هذا الكلام مرة أخرى أبدا.

ـ أعلم ما ستقوله. ستقول لى أننى على ما يرام فى هذا البلد، وأننى أكسب مالا وفيرا ولدى بيتى الخاص.. أليس كذلك؟

ـ لا يا هاريبادا. ليس هذا هو السبب. لا علاقة للأمر بقدر المال أو الفرص المتاحة لك، حتى لو لم تكن تكسب الكثير فليس من الصواب أن ترحل. أليس هذا بلدك؟.. انظر إلىَّ، أنا على المعاش ولم أعد أكسب الكثير. وابنى لا يكسب أيضا. ولكننى نجحت فى مواصلة الحياة بالقليل الذى أجنيه من علاج المرضى، وهم قلائل جدا هذه الأيام، ولكن هل يعنى ذلك أن أترك البلد وأرحل؟ الذين يتركون بلادهم ليس لديهم إنسانية، مهما كانت أحوال البلد الحالية، فإن البنغاليين كجنس ليسوا همجاً أو غير متحضرين. نعم هناك بعض العنف الآن، ولكن الأكيد أن هذا أمر طارىء. عندما تتجاور بلدان وتندلع النار فى إحداهما، فلابد أن يطير بعض الشرر إلى الجيران.. وما رأيك ياهاريبادا فى أن أحداث عنف ١٩٦٤ لم يبدأها المسلمون

البنغال، بل البيهاريس.

لف هاريبادا نفسه بعباءته وقال:

ـ هل تعلم لماذا أختفى تحت هذه العباءة يادادا؟ ليس لخوفى من البيهاريس، إنهم إخوتك المسلمون الذين أخشاهم.

بعد هذا الكلام انسل هاريبادا بهدوء وغادر البيت ودخل فى الظلام، تركت كيروغموى الباب مواربا قليلا لترى ما إذا كان هناك أى أثر لسورنچان. وتزايد توترها مع كل دقيقة تمر، ولكن لا أثر لابنهما. كل فترة كانت تمر مسيرة وترتفع شعارات باسم الله، طلب واحد كان يتكرر ويتكرر هو أنه ينبغى على حكومة الهند أن تعيد بناء مسجد بابرى.

عاد سورنچان أخيرا، كان مرهقا وغير ثابت على قدميه، وأخبر أمه أنه لن يتناول العشاء.

* *

أطفأ سورنچان مصابيح غرفته واستلقى دون أن يواتيه النوم. وبينما كان يتقلب فى فراشه عاد عقله إلى الماضى. منذ سنوات كان يعمل فى مجلة «أكاتا» كمحرر وقد ثبت فيه عمله الصحفى القدرة على تنظيم أفكاره بشكل جيد، كما وفر له الاطلاع على كثير من المعلومات بشأن ما يحدث فى البلد.

دولة بنجلاديش تأسست على قاعدة من أربعة مبادىء رئيسية: القومية، العلمانية، الديمقراطية، والاشتراكية. جاهد البلد طويلا وكثيرا من أجل الاستقلال، بدءاً بالحركة من أجل اللغة ١٩٥٢، وفى النهاية تحقق الاستقلال.

أثناء ذلك انهزم أشرار الطائفية والتعصب الدينى، ولكن بعد الاستقلال حصل الرجعيون الذين وقفوا ضد الاستقلال على السلطة وغيروا الدستور وأعادوا شرور الطائفية والأصولية التى نبذت خلال حرب الاستقلال. الدين استخدم كسلاح سياسى وعدد كبير من الناس تم إجبارهم على اتباع تعاليم الإسلام. وهكذا، بشكل غير قانونى وغير دستورى أصبح الإسلام الدين القومى لبنجلاديش. ونتيجة لذلك

انفجرت الطائفية والتعصب الديني. من ١٩٧٩ إلى التسعينيات جرت المئات من حوادث التحرش والطرد والاستيلاء على الممتلكات والاعتداء والاغتصاب والقتل للهندوس في مختلف أنحاء البلد، ولم يتعرض مرتكبوها لأي عقاب قانوني من أي نوع. هذه القائمة من الكوارث التي لا حصر لها دارت في عقل سورنجان وحرمته من النوم، تذكر عمله الصحفي على مدار عامي ٨٨ - ١٩٨٩ كمراسل لصحيفة «أكاتا» وتذكر كيف كانت تقاريره تمتلىء دائما بمثل هذه القصص من المعاناة والألم. بعضها نشر في المجلة والبعض الآخر لم ينشر. كان رئيس تحريره يقول:

- هل تفهم يا سورنجان، كل هذه الحوادث هي نوع من قمع القوي للضعيف والغني للفقير. إذا كنت غنياً فلن يهم كثيرا أن تكون هندوسيا أو مسلما، هذه للأسف قاعدة النظام الرأسمالي، إذا ذهبت ونظرت ستجد أن المسلمين الفقراء يتعرضون أيضا للظلم، هذا لأن الأغنياء يستغلون الفقراء دائما، إنهم لا يهتمون إذا ما كان ضحاياهم هندوساً أم مسلمين.

اليــــوم الثـــالـث

لاچـــــا

قشعريرة الشتاء لم تكن شديدة كعادتها هذا الموسم، أزاح سورنچان لحافه، لم يشعر برغبة في الخروج من الفراش وخاصة أنه لم ينم طوال الليل، ولهذا استرخي يفكر في أحداث الليلة السابقة، لقد سار في كل أنحاء المدينة، بالرغم من أنه لم يشعر برغبة في زيارة أي شخص أو التحدث مع أحد، وبالرغم من أنه لم يطع والديه وترك البيت، كان قلقاً بشدة عليهما، مع أن قلقه لم يكن شديداً بدرجة تجعله يعود إلي البيت.

المشكلة أن خوف كيرونموي كان يصل إليه وفتور همة أبيه لم يكن له علاج علي الإطلاق. وأخته!.. لقد شعر برغبة في شرب الكحول حتي ينسى الخوف الذي رآه في عيني مايا وهي ترجوه أن يساعد الأسرة.. فكر بحب في أخته، شعر كما لو أنها بالأمس فقط كانت فتاة صغيرة تتعلق بأصابعه وهما يمشيان بجوار النهر، تذكر نوبات غضبها الصغيرة مع كل عيد «بوجاس» من أجل الحصول علي ملابس العيد الجديدة. كان سورنچان يقول لها:

ـ انس البوجاس! سوف يرقصون هذ الرقصات غير المهذبة أمام تماثيل الصلصال، وأنت تريدين ملابس جديدة في مثل هذه المناسبة؟ بصراحة أتمني أن تكبري.

عندئذ كانت مايا، السمراء الجميلة حتي في طفولتها، ترجوه بنعومة:

ـ دادا، خذني لمشاهدة البوجاس.. أرجوك

وكان سورنچان يصدها:

ـ لماذا لا يمكنك أن تكوني مجرد إنسانة؟ وتكفي عن التصرف كهندوسية.

وكانت مايا تقهقه ضاحكة وتسأله:

ـ لماذا؟ أليس الهندوس بشراً؟

في ١٩٧١ اضطرت مايا إلي استعارة اسم «فريدة»، وكثيرا ما كان سورنچان يخطيء ويذكر اسمها المستعار حتي بعد عام من انتهاء الحاجة إلي هذا الاسم، وكانت مايا تعترض وتنظر له بغضب، فيصالحها سورنچان بشراء الشيكولاتة لها. عندئذ تنسى مايا غضبها ويشع وجهها بالبهجة! ذكريات جميلة عديدة يحملها لها، كل عام خلال أعياد المسلمين تري صديقاتها يلعبن بالبالونات الملونة بفرح، فتطلب مثلها لنفسها، وتطلب أيضا «بومب» وألعاب نارية. وفي أحيان أخري كانت تشد ساري كيرونموي وتطلب منها طعاما من الذي تأكله صديقاتها المسلمات، وتقول:

ـ أنهم يطبخون الفتة واللحم في بيت نظيرة، أريد فتة أيضاً .....

وكانت كيرونموي تعد لها ما طلبته. مايا تركت المنزل الآن. رحلت منذ أمس الأول ولم تصلهم أخبار عنها حتي الآن، أبواه لم يكونا شديدي القلق عليها، ربما لأنها محتمية في بيت مسلم. بجانب هذا كانت مايا تحمل مسئولية الأسرة، ورغم صغر سنها فهى تكسب بعض المال من إعطاء الدروس لتلميذتين.. كانت طالبة في «كلية ايدن» ونادراً ـ إن لم يكن مطلقاً ـ ما طلبت أي دعم مالي من أجل دراستها.

سورنچان هو الذي كان يحتاج إلي المال دائماً، لم يكن يعمل، ولا يستفيد من «درجة الأستاذ» التي حصل عليها في الفيزياء. فور إنهائه لدراسته الجامعية حرص علي العثور علي عمل وتقدم لعدد من الوظائف بالفعل، لقد كان واحداً من أمهر طلاب الجامعة، ولكن المضحك أن الطلبة الذين كان يساعدهم في دراستهم حصلوا علي درجات أعلي من درجاته في الامتحان النهائي، والطلبة الذين حصلوا علي درجات أقل منه، حصلوا علي وظائف جيدة كمدرسين. ليس السبب أن أداء سورنچان لم يكن علي المستوي اللائق في اللقاءات الشخصية ـ إنترفيو ـ بل الأكثر

إثارة للعجب أن الذين كانوا يطرقعون بألسنتهم إحباطا بسبب أدائهم السيىء، كانوا أول من يحصلون على خطابات القبول. فى نفس الوقت لم يحصل سورنچان على أى خطاب، أحيانا قيل أن السبب هو افتقاده للسلوك الجيد والاحترام الكافى لمتحنيه. ولم يكن هذا صحيحا بالرغم من أن سورنچان أول من يعترف بأنه لم يضع نصب عينيه أن يقول لهم «السلام عليكم» أو غيرها من كلمات التحية. بالنسبة له لم تكن هذه هى الوسيلة الوحيدة لإبداء الاحترام، والحقيقة أن الذين كانوا يرددون «السلام عليكم» باستمرار ويبدون الكثير من الاحترام لمتحنيهم هم أول من يشتمونهم بمجرد خروجهم من الاختبار. ولكن هؤلاء هم الذين كانوا ينجحون، أما سورنچان الذى لا يتصنع الاحترام فكان يتهم بقلة الصبر والاحترام.. ربما هذه هى الأسباب ، أو ربما لأنه هندوسى. المهم أنه لم يحظ بأى وظيفة حكومية. حصل على عمل فى شركة خاصة ولم يعجبه فاستقال بعد ثلاثة أشهر. مايا، على أية حال، عرفت كيف تتنازل وتحيا، نجحت جدا فى دراستها وبدا أنها قادرة على الحصول على عمل فى المؤسسات غير الحكومية، وإن كان سورنچان قد راوده الشك بأن حياتها أسهل نسبيا بسبب صداقتها لچاهنجير.. هل سينتهى الأمر بمايا إلى الزواج منه عرفانا بالجميل؟ شعر بالقلق الشديد من هذا الأمر. فى تلك اللحظة دخلت كيرونموى بكوب من الشاى. عيناها منتفختان، أدرك سورنچان أنها قضت ليلة أرقة. لم يرغب فى أن يزيد همومها بالاعتراف بأنه لم ينم طوال الليل، ولذلك تثاءب وقال:

ـ لم أدرك أن الوقت تأخر هكذا.

لم تبد كيرونموى أية إشارة تدل على أنها سمعته، فى الحقيقة لم يبد أنها مدركة لأى شىء يحيط بها، وقفت هناك فقط تحمل كوب الشاى، كما لو أنها تنتظر من ابنها أن ينهض ويأخذ الكوب من يدها، كم اتسعت الهوة بينهما حتى تقف كيرونموى دون أن تنطق بكلمة طوال هذا الوقت، أخيرا، تكلم سورنچان:

ـ ألم تعد مايا؟

ـ لا..

كأنها في انتظار السؤال، جلست علي السرير بالقرب من ابنها. استنتج سورنچان أنها جلست بجانبه لأنها لا تشعر بالأمان، حول وجهه عن عينيها المؤرقتين وشعرها غير المصفف وساريها غير المرتب، جلس وأخذ رشفة من شايه وقال:

ـ لماذا لم تعد؟ هل المسلمون يحافظون عليها؟ أليس لديها ثقة فينا؟ إنها حتي غير قلقة علينا، هل يكفيها أنها تنقذ نفسها فحسب؟

لم ترد كيرونموي، أشعل سورنچان سيجارة، لم يكن قد دخن أمام أبويه أبدا من قبل، ولكن هذا ليس يوما عاديا. عندما سحب الدخان ونفخه لم يدهشه أنه لا يدخن بطبيعية في حضور أمه، بشكل ما، في هذه اللحظة، اندمجت الهوة بينهما وانهار الحائط الذي يفصل بينهما، لقد مضي وقت طويل لم يتواصل فيه مع أمه بتعاطف، أراد فجأة أن يضع رأسه علي حجرها مثل طفل بريء ويتحدث معها عن الطائرات الورقية التي كان يلعب بها في طفولته والتي كان يأتيه بها عمه نوبن من سيلهيت. نظر إلي حجر أمه باشتياق ثم نفخ حلقة أخري من الدخان وقال:

ـ ألم يأت كمال أو بلال أو أي أحد بالأمس؟

قالت بدون حماس:

ـ لا..

كمال لم يكلف نفسه أن يسأل عنهم؟ هذا غريب فعلا.. هل يعتقد أصدقاؤه أنه مات؟ أم أنهم لم يعودوا مهتمين بإنقاذ حياته؟

سألته كيرونموي بصوت مخنوق:

ـ أين كنت ليلة أمس؟ كنا وحدنا في البيت، ألا تبالي حتي بما يمكن أن يحدث لنا؟ وماذا لو حدث لك شيء؟ جوتام ذهب أمس لشراء بعض البيض فضربه أولاد الجيران المسلمون وكسروا له سنتين وأعتقد أنهم كسروا إحدي ساقيه.

ـ أوه.

ـ ألا تذكر منذ عامين عندما كانت تأتينا أم جيتا للعمل لدينا؟ لم يكن لديها مسكن لأنهم أحرقوا منزلها.. ولذلك إضطرت للعمل في بيوت الناس حتي تجمع

بعض المال لبناء بيتها. لقد كانت هنا هذا الصباح مع أطفالها لتخبرني بأنهم أحرقوا بيتها الجديد أيضا، وسألتني من أين يمكن أن تشتري بعض السم، أعتقد أنها أصيبت بالجنون. إذا عادت مايا سنصبح أكثر قلقا عليها.

ـ هذا لا يعني أن تظل تحت سقف مسلم بقية حياتها؟

صوت سورنچان كان صارماً، صحيح أنه اصطحبهم بنفسه مرة للاحتماء في بيت مسلم. ولكن يومها لم يكن اليأس يتمكن منهم مثل اليوم. بل شعروا ببساطة أن بعض الأشرار يرتكبون بعض الأفعال الشريرة، التي سرعان ما يتلاشي أثرها بمرور الوقت، وفي النهاية فلكل بلد نصيبه من هؤلاء الأشرار. لكن الأمر يبدو مختلفا هذه المرة، بشكل يشعرهم بأن هناك مؤامرة عميقة تهدف إلي التضحية بهم. في الواقع راود سورنچان الشك لدرجة صعب عليه معها أن يصدق أن أصدقاء مثل كمال وبلال وقيصر ولوتفور ليسوا طائفيين.

ألم يقم شعب بنجلاديش بحركة شعبية ١٩٧٨ من أجل إضافة كلمة «بسم الله» إلي الدستور في عهد حكومة ضياء الرحمن؟ ومرة أخري في ١٩٨٨ ألم يكن هناك مطلب شعبي لإعلان الإسلام دينا قوميا للدولة؟ كان مفترضا أن تكون العلمانية معتقدا قويا بين المسلمين البنغال، خاصة أثناء حرب الاستقلال، عندما تضامن الجميع في سبيل النصر. ماذا حدث لكل هؤلاء بعد الاستقلال؟ ألم يلحظوا بذور الطائفية وهي تغرس في بنية القومية؟ ألا يشعرون بالغضب؟ الغضب هو الذي أدي إلي الحرب المجيدة التي أسفرت عن الاستقلال. لكن لماذا لم يستشعروا الحاجة الماسة لخلع جذور الفتنة الطائفية بسرعة؟ كيف أمكنهم تبني الفكرة المستحيلة بأن الديمقراطية يمكن أن تحيا في بلد تغيب عنه العلمانية؟ المثير للسخرية أن هؤلاء الذين اتحدت أياديهم للقتال في سبيل الاستقلال هم أنفسهم الذين يسمحون للطائفية بالاستمرار.

ـ بالأمس دمروا معبد شواريجهات، هل سمعت بذلك؟ ومعبد شيارمبور أيضاً.

تمدد سورنجان بينما واصلت كيرونموي الحديث بصوت يخلو من أي أمل، وقاطعها قائلاً:

ـ هل ذهبت أبدا لتصلي في معبد حتي تشعري بكل هذا الأسف علي تدميرها؟ فليدمروا كل المعابد التي يرغبون في تدميرها. ثم ماذا؟ فليسووا كل هذه المباني الدينية بالأرض.

ـ إنهم يغضبون عندما يدمر أحد المساجد. ألا يدركون أن الهندوس يغضبون بنفس القدر عندما تدمر معابدهم؟ ألأن مسجدا واحدا دمر ينبغي أن يدمروا مئات ومئات المعابد؟ ألا ينادي الإسلام بالسلام؟

ـ المسلمون يعرفون جيدا أن هندوس هذا البلد لن يجنوا شيئا إذا أظهروا غضبهم. هذا هو سبب استمرارهم في التدمير بدون تردد، هل يمكن لأي هندوسى أن يلمس مسجدا واحدا؛ معبد نايابازار يرقد أطلالا منذ عامين، هل يملك أي هندوسى الشجاعة علي ان يوجه لكمتين بيديه إلي حائط أي مسجد؟

نهضت كيرونموي في صمت وغادرت الحجرة، أدرك سورنچان أنها تشيد حوائط كثيفة حول نفسها بشكل يتزايد خطورة، في وقت ما لم تكن تفرق بين بارفين وآرشانا ولكن مشاعرها وافكارها تتأرجح الآن دون توازن وشغلها سؤال وليد: هل من حق المسلمين وحدهم أن يغضبوا ويثوروا؟ ليس سرا أن الاعتداء علي الهندوس بدأ قبل أحداث ١٩٩٠ وهدم مسجد بابري بوقت طويل. تذكر سورنچان أنه في ١٩٧٩، صباح ٢١ ابريل قام شخص اسمه ايوب علي بتحطيم تمثال الآلهة كالي في معبد ساهب بازار التاريخي في مقاطعة راجاهي، بعد تحطيم المعبد تم تدمير محلات الهندوس أيضا، وخلال هذه السنوات الطويلة تعرض الهندوس لعشرات الاعتداءات من سرقة التماثيل وتحطيمها وحرق المعابد وهدمها والاعتداء علي ممتلكاتهم وسرقتها وإفساد احتفالاتهم وحوادث أخري عديدة استدعاها عقل سورنجان في رأسه قبل ان يقهقه ضاحكا:

ـ ثم يقولون أن بنجلاديش بلد يؤمن بالوحدة الوطنية!

كان وحيدا في الحجرة. عند الباب فقط تجلس القطة التي قفزت مرتاعة من صوت ضحك سورنجان. انصرف تركيزه الي الحيوان. ألم تذهب القطة إلي معبد داكشواري اليوم؟ تري ماديانة هذه القطة؟ هل هي هندوسية؟ ربما، طالما أنها تعيش في بيت

هندوس. لونها أسود في أبيض وكانت تنظر إليه بعذوبة كما لو أنها تشفق عليه. ولكن إذا كان بإمكانها أن تشفق فلابد أنها مسلمة! مسلمة ليبرالية! لأنهم عادة ما ينظرون إلي الهندوس بإشفاق. نهضت القطة ورحلت. ربما ذهبت إلي مطبخ المسلمين المجاور لانه لا يوجد طعام في هذا البيت. في هذه الحالة فالقطة ليس لها هوية دينية. الحقيقة أن بني الإنسان فقط هم الذين يختلفون فيما بينهم عرقيا وطائفيا. وهم فقط الذين لديهم معابد ومساجد. ضوء الشمس غمر الغرفة وأدرك سورنچان أن النهار يتقدم. اليوم ٩ ديسمبر حين تمني ان يصبح قطا!

لا يذكر أنه صلي في حياته ابدا. ولا أنه دخل معبدا. لقد نذر نفسه للاشتراكية والخروج إلي الشوارع وإلقاء الخطب وحضور الاجتماعات.وتبني قضية الفلاحين والعمال والسعي لأجل إحداث نهضة اقتصادية اشتراكية في البلد. الحقيقة أنه ضيع وقتا طويلا من أجل مصالح الآخرين بحيث لم يعد لديه وقت يرعي فيه مصالح عائلته ومصلحته الشخصية. ومع ذلك فها هم يشيرون إليه ويصفونه بالهندوسى! وها هو يطارده أبناء الجيران صائحين خلفه «امسكوه.. امسكوه». لم يضربوه اليوم، ولكن ربما يفعلون غدا، كما ضربوا جوتام عندما خرج لشراء البيض. عندما ذهب لشراء السجائر من محل «موتي» علي الناصية كان يمكن أن يتلقي ضربة قوية من خلفه، فتقع سيجارته من فمه وعندما يستدير ليري مهاجميه، ربما كان سيتعرف علي وجوه قدوس ورحمان وولايات وسبحان، يهددونه بالعصي والسكاكين. أغلق سورنچان عينيه واستغرق في التفكير. هل يعني هذا أنه خائف؟ ربما. بالرغم من أنه ليس جبانا؟ نهض من الفراش وبحث عن القطة. السكون الذي يلف البيت أذهله. كما لو أن أحدا لا يعيش هنا منذ زمن بعيد. في ١٩٧١ عندما تركوا القرية وأتوا ليعيشوا في منزل براهما بالي انزعج سورنچان من الهدوء والخواء المحيطين بالمكان.. وافتقد طائراته الورقية ولوح الكرة والبلي الزجاجي وكتبه. غياب الحياة النشطة والناس أصابه بالاكتئاب وملأه بالتوتر. مثل التوتر الذي يملأه اليوم. هل سيواصل أبوه الرقاد؟ إذا ارتفع ضغط دمه فمن سيستطيع أن يذهب لاستدعاء الطبيب؟ أو الذهاب إلي السوق وشراء الأدوية واستدعاء عمال الإصلاح وشراء الصحف.. لم يقم سورنچان أبدا بمثل هذه المهام الروتينية. ولم يكن لديه

الكثيرليفعله في هذا البيت. كان عادة يعود إلي البيت متأخرا في المساء، إن لم يكن متأخرا جدا، ليجد الباب الأمامي موصدا فيدخل من الباب الجانبي المؤدي إلي غرفته وعندما يحتاج إلي المال كان يطلبه من سودهاموي أو كيرونموي، بالرغم من خجله من هذا. كان في الثالثة والثلاثين من العمر ولايزال عاطلا، وفي كل مرة كان يقول له سودهاموي:

ـ سوف أعتزل العمل قريبا يا سورنچان وأعتقد أنه ينبغي أن تفعل شيئا.

صحيح أن سودهاموي لم يعهد له بحمل مسئوليات الأسرة، وواصل دعم الأسرة بعلاج قليل من المرضي في الغرفة الخارجية، ولكن من الواضح أن هذا مجهود شاق عليه. وذلك بينما سورنچان يتنقل ذهابا وإيابا بين مكتب الحزب ونادي الصحفيين وغيرهما من الأماكن التي يتردد عليها، ثم يعود إلي البيت مجهدا تماما ليجد الطعام في انتظاره علي المائدة، فيأكل إذا كان راغبا أو يتركه إذا كان شبعان.

مع الوقت اتسعت الهوة بين أفراد أسرته، ولكن هذا الصباح عندما أتت أمه لرؤيته حاملة كوب الشاي وجلست بجانبه علي الفراش، أدرك سورنچان كم لايزال والداه يعتمدان علي ابنهما الضال، غير المبالى وغير المسئول تماما. انتابه الأسي، ففي النهاية ما الذي قدمه لهذه الأسرة؟ كم مضت بهم الحياة! سودهاموي الذي كان ثرياً معظم حياته لا يشكو الآن ويرضي تماما بوجبة صغيرة من «الدال» والأرز. وهذا ينطبق علي سورنچان أيضا. يمكن أن يتذكر عندما كانت أمه تجبره علي شرب اللبن وأكل الزبد وتنظر إليه بغضب إذا رفض، ولكن ها هو اليوم حتي إذا اشتهي اللبن والزبد والسمك واللحم فهل يستطيع سودهاموي أن يوفرها له؟ علي أية حال الثراء والرفاهية لم يشغلاه أبداً، وأبوه هو المسئول عن طبع هذا الميل داخله، في الوقت الذي كان يهتم فيه كل أصدقائه بالملابس والموضة، كان سودهاموي يشتري لابنه كتبا عن حياة أينشتين ونيوتن وجاليليو، أو عن الثورة الفرنسية والحرب العالمية الثانية، أو روايات چوركي وتولستوي. أراد سودهاموي لابنه أن يصبح متميزا. ولكن هذا الصباح، وهو يبحث عن القط، لم يكن سورنچان متأكدا من أنه تميز بأي شكل من الأشكال، أو أنجز أي شيء من الأشياء! لم يكن جشعا أو ماديا. ولا أنانيا

بالمرة بل يهتم دائما بصالح الآخرين. ولكن هل هذا إنجاز؟ دخل سورنچان الشرفة مشوش الذهن. سودهاموي الذي كان يقرأ الجريدة نظر إلي ابنه وناداه:

ـ سورنچان.

ـ ماذا؟

ـ هل سمعت أنه قبض علي جوش و أدفانى وثمانية آخرين؟.. يقولون أن هناك أكثر من أربعمائة قتيل. سوف يحاكم كاليان سينج المسئول عن هدم المسجد. أمريكا والعالم كله أدانوا الاعتداء علي مسجد بابري. أعلن حظر التجول في بهولا. الحزب الوطني البنغالي ورابطة عوامي وأحزاب أخري عديدة تدخلت في محاولة لحماية الوئام الطائفي. ها هنا وصف تفصيلي لآخر التطورات.

عينا سودهاموي كانتا عذبتين وممتلئتين بالدهشة في مثل عيني القطة. وهو يواصل:

ـ هل تعرف الحقيقة، هؤلاء الذين يرتكبون حوادث العنف لا يفعلون ذلك بدافع الحب لأي دين. إن هدفهم الأساسى هو السرقة والنهب. هل تعلم لماذا يسرقون محلات الحلوي؟ ببساطة لكي يشبعوا نهمهم إلي الحلوي؟ وهم يقتحمون محلات المجوهرات كذلك سعيا وراء الذهب. أحداث العنف بوضوح تام من صنع قطاع الطرق. في الحقيقة ليس هناك فارق فعلي بين أعضاء الطائفتين المتقاتلتين. والمعدل الذي تنظم به مسيرات السلام يؤكد أن شيئا أو آخر سوف يصنع حالا لإعادة الأمور إلي طبيعتها. في ١٩٩٠، لو تذكر، ترتب علي أحداث العنف سقوط حكومة إرشاد. بالمناسبة يا سورو، هل عوض إرشاد الهندوس عن خسائرهم كما وعد؟

ـ هل جننت يا بابا؟

ـ في الواقع ذاكرتي تخونني هذه الأيام. المتهمون في قضية اغتيال نيدا رباد حكم عليهم بالموت شنقا.. هل تعرف؟

أدرك سورنچان أن سودهاموي يحاول إقناع نفسه بأن هناك عدالة تنجز في هذا البلد لصالح الهندوس. الحادث الذي يشير إليه جري في براهمانباريا في قرية

نيرادباد: لقد اختطفت بيراجابالا ديبنياث وأطفالها الخمسة إلي بحيرة دوباجوري، وقتلوا جميعا وتم تمزيقهم إلي قطع صغيرة ببلطة، ثم حشرت هذه القطع فى برميل، أغلق جيدا وألقي فى البحيرة. في اليوم التالي طفا البرميل إلي السطح واكتشفت الجثث الممزقة.. وتبين أن السبب هو محاولة قاتليهم التخلص من الشهود لأنهم سبقوا أن قتلوا زوج بيراجابالا في خلاف لطرده من أرضه. هؤلاء القتلة ـ تاجول إسلام وشهورا بادشاه ـ عوقبا بالموت فعلا بحكم صدر من المحكمة العليا بعد حوالي أربعة شهور من المذبحة الجماعية. وكان واضحا أن سودهاموي يشير إلي هذا الحادث ليقنع نفسه بأن الهندوس يعاملون بالمثل في هذا البلد وأنهم ليسوا مواطنين من الدرجة الثانية.

ـ هل انضممت إلي مسيرة السلام بالأمس؟ كم عدد الذين شاركوا فيها ياسورنچان ؟

ـ لا أعلم.

ـ لابد أن الحكومة وفرت حماية البوليس؟

ـ لا أعلم.

في منطقة شانكاري بازار قيل أن الطرق امتلأت عن آخرها بالسيارات الممتلئة بالشرطة.

ـ لا أعلم .

ـ الهندوس فتحوا محلاتهم، أليس كذلك؟

ـ لا أعلم.

ـ يقولون أن الموقف سيىء جدا في بهولا. هل هذا صحيح، أم أنهم يبالغون؟

ـ لا أعلم.

ـ لابد أنهم ضربوا جوتام لأسباب شخصية. صحيح أنه مدمن؟

ـ لا أعلم.

خمول سورنچان وجموده جعل حماس سودهاموي ورغبته في المعرفة يخبوان. فرد صحيفته أمام ابنه وقال:

ـ ألا تقرأ الجرائد؟

ـ ما الفائدة التي سأجنيها من ذلك؟

تجاهل سودهاموي رد ابنه وقال:

ـ في كل مكان تقريبا يعترضون علي أحداث العنف. الكل يحاول منع الموقف من التدهور. ومن ثم، فهل يمكن للجماعات أن تخترق حواجز الشرطة والوصول إلي المعابد؟

ـ ما الذي يعنيك بشأن المعابد؟ هل أصبحت متدينا فجأة في نهاية حياتك؟ ما الذي يضيرك إذا هدمت كل المعابد؟.. فليدمروا كل ما يصادفهم من معابد، وسوف أكون سعيدا بذلك.

شعر سودهاموي بالحرج. سورنچان أدرك أنه يؤذي هذا الأب البسيط الطيب ولكنه لم يحتمل وجهة نظره للموقف. كأعضاء في الأقلية الهندوسية كان من الحماقة، بالنسبة له، أن يحاولوا رؤية أنفسهم علي قدم المساواة مع المسلمين الذين هم مواطنون من الدرجة الأولي في هذا البلد. إنهم لم يكونوا أبدا من المحافظين علي التقاليد الهندوسية. وكانوا يتعاملون مع المسلمين كإخوة وأصدقاء.. ولكن إلي أين أوصلهم ذلك؟ ما الخير الذي جناه سودهاموي وسورنچان من ذلك؟ بالرغم من كل شيء الهوية الوحيدة التي حصلا عليها هي هويتهما الهندوسية. كانا دائما غير متدينين وقضيا حياتهما يناديان بالإنسانية والخير.. ولكن أي خير جنياه؟ لايزال عليهما أن يعيشا خائفين من التعرض للإهانة والأذي البدني، ولا يزال عليهما أن ينكمشا من الخوف من احتمال الاحتراق بنار الطائفية.

تذكر سورنچان يوم أن كان طالبا بالصف السابع، حين انتحي به صديق اسمه فاروق خلال «فسحة» الغداء وقال له:

ـ أحضرت معي طعاما لذيذا. لن أخبر أي أحد عنه. أنت وأنا فقط سنأكله بهدوء فوق السطح.

لم يكن سورنچان جوعان إلي هذا الحد ولكنه قبل دعوة فاروق. صعدا إلي السطح حيث فتح فاروق صندوق غذائه وأخرج الكباب وأعطاه لسورنچان. واستغرق كلاهما في الثرثرة أثناء الأكل وفى المقابل فكر سورنچان أن يطلب من أمه إعداد بعض حلوي الجوز اللذيذة لصديقه. وسأل فاروق:

ـ هل تصنع أمك هذا؟ لابد أن أدعوك لطعام أمي قريبا.

المفاجأة التي أدهشت سورنچان، أنه بمجرد انتهاء الطعام، صاح فاروق مبتهجا، وقبل أن يفهم سورنچان ما يحدث، كان فاروق يهبط السلم عدوا، لينضم إلي بقية الفصل في ضحكهم علي «مقلب» قيام فاروق باستدراج سورنچان حتي يأكل لحم البقر. وتجمعوا حول سورنچان يسخرون منه ويغيظونه، واحد يقرصه وواحد يضربه علي رأسه وآخر يشد قميصه وعدد منهم حاول حتي أن يخلع عنه بنطلونه. بعضهم أخرجوا له ألسنتهم، وآخرون مبتهجون، إلي أقصي درجة، ملأوا جيوبه بالصراصير الميتة. ارتعد سورنچان وامتلأت عيناه بالدموع، ليس خجلا من أنه تناول اللحم البقري ولكن من المتعة السادية التي يشعر بها رفاق فصله علي حسابه.. انتابه إحساس عميق بالغربة. وعبرت رأسه لأول مرة فكرة أنه ينتمي لنوع معين من البشر وأنهم جميعا ينتمون إلي نوع آخر. عاد إلي البيت يومها وانفجر في بكاء جارف وعندما سأله أبوه أجابه:

ـ لقد تآمروا عليّ لآكل لحم البقر.

ضحك سودهاموي وقال:

ـ هل هذا سبب يدعو للبكاء؟ لحم البقر لذيذ. سوف أذهب إلي السوق غدا وأشتري بعضا منه. وسنأكله معا.

في اليوم التالي وفي سودهاموي بوعده. وطبخت كيرونموي لحم البقر بعد أن استغرق سودهاموي بعض الوقت في إقناعها، باستفاضة، بعدم جدوي ولا منطقية مراعاة مثل هذه التقاليد. حتي القديسين وأبطال الملاحم لم يكن لديهم هذا التزيد،

كما أخبرها سودهاموي.. وبجانب هذا بين لها أنهم يحرمون أنفسهم من اللحم البقري المشوي المتبل لذيذ المذاق. وتدريجيا كفت أحاسيس سورنچان الطفل بالخجل والخوف والندم عن ازعاجه.

أسرة سودهاموي كانت تتطلع إليه في كل شيء، ومن جانبه أحسن سودهاموي تربية أبنائه. في الحقيقة كان سورنچان يري أن اباه إنسان فوق العادي، ولهذا أسبابه، ففي مثل هذه الأيام والظروف الصعبة من النادر أن تجد شخصا بهذا القدر من الشرف والبساطة ونقاء التفكير والسلوك والحب، وفوق هذا كله إحساس قوي بالعلمانية وكراهية الطائفية.

غادر سورنچان غرفة أبيه بهدوء. لم يكن راغبا في قراءة الجريدة. لم يكن مهتما بالمرة بوجهات نظر المثقفين في الطائفية ولم يكن راغبا في مشاهدة صور مسيرات السلام. لم يكن يحتاج إلي إحساس الطمأنينة الذي يحظي به أبوه من قراءة مثل هذه الأشياء. كان يفضل أن ينظر إلي القطة التي ليس لها هوية. القطط لا تنتمي إلي أي دين بعينه وتمني سورنچان مرة أخري لو كان قطا.

* *

عاد سودهاموي من معسكر الاعتقال بعد أيام قليلة. هل كانوا سبعة أيام؟ ستة؟ لم يعد يستطيع التذكر بدقة. كل ما يعرفه أنه كان ظمآنا للغاية خلال سجنه. ظمآنا لدرجة أنه كان، رغم يديه وقدميه المقيدتين وعينيه المعصوبتين، يحاول دحرجة نفسه علي أمل أن يسقط علي طبق من الماء. ولكن أين يمكن أن يوجد الماء في هذا المعسكر؟ نهر براهما بوترا يفيض بالماء ولكن كل آنية المعسكر كانت خاوية. عندما توسل من أجل الماء، ضحك الحراس الساديون منه. وذات يوم أعطوه بعض الماء. خلعوا عصابته وأجبروه علي مشاهدتهم يتبولون في أبريق. وعندما وضعوه علي فمه أشاح سودهاموي بوجهه مشمئزا ولكن أحدهم فتح فمه بالقوة بينما صب الآخر محتويات الإناء فيه. الذين كانوا يتفرجون انفجروا في ضحكات قاسية بينما السائل الملحي الساخن ينزلق إلي عنقه. وتمني سودهاموي ساعتها لو أنه شرب سما.

علقوه علي لوح خشبي وجلدوه. مع كل جلدة طلبوا منه أن يصبح مسلما، يقرأ

الشهادة ويشهر إسلامه. لكن سودهاموي ظل عنيدا. جلادوه الغاضبون قالوا له أخيرا أنهم سيجعلونه مسلما سواء قبل أم لا. ذات يوم بعد أن أحبط مساعيهم مرة أخري مددوه وختنوا قضيبه. شاهد سودهاموي الدماء وغرلته المقطوعة وسمع الضحك القاسى قبل أن يفقد الوعي. بعد هذا اليوم فقد الأمل في أن يعود إلي أسرته حيا. كل الهندوس في المعسكر وافقوا علي تلاوة الشهادة واعتناق الإسلام علي أمل النجاة بحياتهم ولكنهم قتلوا بالرغم من هذا. المفاجأة أنهم أبقوا علي حياة سودهاموي، ربما لأنه شديد «التدين».. التعذيب لم يتوقف وفي النهاية خرج من المعسكر منكسرا ومنسحقا. وحتي الآن يذهل سودهاموي من نجاحه فى الوصول إلى بيته بعظامه وضلوعه المكسورة ونزيف جروحه الخطيرة. أين وجد القوة والإرادة؟ ربما هي نفس القوة التي تجعله حيا إلي الآن. عندما وصل إلي براهما بالي سقط علي قدمي كيرونموي، التي ارتعدت من رؤية هذا الجسد النازف المحطم الراقد أمامها، لكنها وجدت قوي غير عادية علي للمة شتات زوجها وطفليها والحفاظ علي سلامتهم، دون أن تنهار أو تسمح لدموعها بالسقوط. وعلي مدار الشهور التالية لم تسمح لنفسها أبدا برفاهية الانهيار. وعندما قال لها الأصدقاء المسلمون:

- دعينا نستدعي الشيخ لتقرأوا الشهادة وتعلنوا إسلامكم.. هذه آمن وسيلة لسلامتكم. اشرحي الأمر لأبي مايا.

أبدت كيرونموي نفس قوة إرادة زوجها التي أبداها في المعسكر. وفي الليل، بعد نوم الجميع، كانت تواصل رعاية سودهاموي. تطبب جراحه وتضمدها بمزق القماش التي قطعتها من ساريها، طوال هذه المدة بالرغم من حملها الهائل، لم تبك كيرونموي ولو مرة واحدة. ولكن بعد الاستقلال، عندما تجاهلت الجميع من حولها، وألقت بنفسها بين ذراعي سودهاموي وبكت بمرارة، بكت مثل طفل باندفاع ورغبة دون أن تحاول كبح نفسها علي الإطلاق.

وهو ينظر إلي كيرونموي الآن، شعر سودهاموي أنها تدخر دموعها كما فعلت علي مدار تسعة أشهر خلال ١٩٧١. سوف تنفجر فجأة ذات يوم وسوف ينهار هدوئها غير الطبيعي. لم يكن لديه شك في أن سحبا سوداء من الحزن تجمعت في

قلبها، ولكنه عرف أنها سوف تنتظر حتي لحظة إعلان الـ «چون بالجلا» لتعبر عن مشاعرها بحرية. وسوف تنتظر الحرية حتي تزين جبهتها بالسندور وترتدي السانكهاس، ويرتدي سودهاموي الدهوتي، ويصبحوا كلهم أحرارا بلا قيود وتستعيد نفسها الحقيقية من جديد. متي تنقضي هذه الليالي اليائسة، كما انقضت ليالي ١٩٧١؟

حتي تزداد الأمور سوءا، أقلع مرضى سودهاموي عن زيارته أيضا. في الماضي كان يأتي منهم ستة أو سبعة علي الأقل يوميا حتي والمطر ينهمر، أما الآن فلا أحد يأتي، وجد الأمر خانقا أن يجلس عند الباب هكذا طوال الوقت يحدق في كل مرة تمر إحدي المسيرات صائحة «نارايا تكبير: الله أكبر.. أيها الهندوس ارحلوا إذا أردتم الحياة». بالرغم من تفاؤله وثقته برجال وطنه فهو يدرك أن المتعصبين يستطيعون تفجير منزلهم وإشعال النيران فيه في أي وقت، ومن الممكن تماما أن تسرق ممتلكاتهم أو حتي يتم اغتيالهم. تساءل عما إذا كان هناك «خروج جماعي» للهندوس فعلا، كان يعرف أن عددا من الهندوس غادروا البلد ١٩٩٠، ولكن لأن إحصائيات التعداد السكاني الجديدة لا تجري تقديرات منفصلة لأعداد الهندوس والمسلمين، لم يكن هناك وسيلة لمعرفة عدد الذين رحلوا. تجمع الغبار علي الكتب في رفوفها. حاول سودهاموي نفخه وتنظيفها. عندئذ لاحظ نسخة من كتاب إحصاء السكان لعام ١٩٨٦ الذي يحتوي أيضا علي إحصاءات أعوام ١٩٧٤، ١٩٨١.

في ١٩٧٤ كان يشكل الهندوس ١٣,٥٪ من إجمالي عدد السكان. في ١٩٨١ كانوا يشكلون ١٢,١٪ فقط. أين ذهب الباقون؟ هل مغادرة البلد كانت الحل الوحيد. ألم يكن ينبغي أن يبقوا في وطنهم ويقاتلوا في سبيل حقوقهم؟ لعن سودهاموي الهندوس المهاجرين لكونهم جبناء. شعر بأنه ليس بخير. عندما تناول كتاب التعداد من فوق الرف شعر بضعف في يده اليمني. والآن عندما حاول إعادته للرف لم يجد لديه قدرة علي فعل ذلك.

نادي كيرونموي، ولكن حتي في ذلك، شعر بثقل غريب في لسانه. انتابه الرعب، بقسوة وصلابة.. حاول نقل قدمه خطوة وأدرك أن قدميه لا تستجيبان له، صاح

بضعف:

ـ كيرون.. كيرون..

كانت زوجته قد بدأت في طبخ بعض الدال عندما سمعت نداء سودهاموي، فذهبت إليه. حاول الوصول إليها لكن يده سقطت بجانبه، همس:

ـ كيرون، أرجوك أرقدبني علي الفراش.

فوجئت كيرونموي بالتغيير الذي أصاب زوجها. لماذا يرتعش هكذا؟ ولماذا يتلعثم؟ ساعدته علي الرقاد في السرير وسألته:

ـ ماذا يؤلمك؟

ـ أين سورنچان ؟

ـ لقد خرج توا. طلبت منه البقاء ولكن لم يستمع لي.

ـ لست علي ما يرام يا كيرون، أرجوك افعلي شيئا.

ـ لماذا ثقل كلامك؟ ما الذي يحدث؟

ـ لا أشعر بيدي اليمني، وقدمي اليمني لا تستجيب أيضا هل أصبت بالشلل يا كيرون؟

شعرت كيرونموي بالخوف وأمسكت بذراعي سودهاموي قائلة:

ـ لاقدر الله! لا، لابد أنك تشعر كذلك بسبب الإرهاق. أنت لم تنم ولم تأكل جيدا.

تقلب سودهاموي بلا راحة في الفراش وقال:

ـ كيرون، أخبريني، هل أحتضر؟ هل يبدو أنني أموت؟

ـ من أستدعي؟ هل أستدعي هاريبادا ـ بابو؟

قبض سودهاموي علي يد كيرونموي بكل ما لدي يده اليسري من قوة وصاح يائسا:

ـ لا.. يا كيرون.. لا تتحركي من هنا.. ابق بجواري. أين مايا؟

ـ تعلم أنها ذهبت إلي منزل بارول، ولم تعد إلي الآن.

ـ أين ولدي يا كيرون؟

ـ كف عن الهذيان بهذه الطريقة.

ـ كيرون، افتحي كل الأبواب والنوافذ. أحتاج إلي بعض الضوء، بعض الهواء النقي.

ـ دعني أستدعي هاريبادا ـ يابو. استرخ بهدوء.

ـ كل الهندوس تركوا ديارهم ورحلوا. لن تجديهم.. استدعي مايا.

ـ كيف أرسل إليها.. قل لي؟ لا يوجد أحد هنا.

ـ لا.. لا تتحركي خطوة واحدة يا كيرون، استدعي سورنچان.

بعد ذلك أصبح صعبا إيقاف سودهاموي أو فهم كلماته المتلعثمة.. كيرونموي أصابها الانزعاج الشديد. ماذا تفعل؟ هل تصرخ لجذب انتباه الجيران؟ سوف يساعدونها فهي تعرفهم منذ سنوات. ولكن وهي تفكر في هذا، أدركت أنه لن يجدي. أي جار سوف يساعدها؟ حيدر أم جوتام أم واحد من أسرة شفيق صاحب؟

شعرت كيرونموي بالعجز التام. رائحة الدال المحترق ملأت الغرفة.

كما حدث في جولته السابقة، لم يكن يعرف سورنچان إلي أين يتوجه اليوم. فكر في الذهاب إلي بلال، ولكن بمجرد عبور كاكاريل ارتعب من رؤية الأطلال المحترقة لمحل جاالخبار المعروف. المناضد والمقاعد ملقاة خارج المكان محطمة. تطلع إلي المشهد وتشاءم، وقرر أن يغير خط سيره فجأة، والذهاب إلي بولوك في شاميباغ، نادي علي عربة ريكشا.

لقد مضي وقت طويل لم ير فيه بولوك، يسكن بجوار منزل بلال، حيث يقضي سورنچان وقته يضحك ويثرثر مع أصدقائه، دون أن يجد وقتا للمرور علي بولوك!

لم يجب أحد علي صوت جرس الباب ولكن سورنچان لم يرفع يده عن الجرس. وأخيرا سأل شخص من داخل المنزل بصوت يمكن بالكاد سماعه:

ـ من الطارق؟

ـ أنا ـ سورنچان .

ـ سورنچان من؟

ـ سورنچان دوتا.

تمكن سورنچان من سماع صوت القفل. بولوك الذي فتح الباب بنفسه قال بصوت خفيض:

ـ أدخل.

ـ ما هذا؟ لماذا تقوم بكل إجراءات الأمن هذه؟ ألا يمكنك ببساطة أن تعتمد علي «العين السحرية»؟

لم يجب بولوك. أغلق الباب وأعاد فحص القفل. اندهش سورنچان. قال بولوك بنفس الصوت الخفيض:

ـ كيف خرجت من منزلك؟

ـ رغبت في ذلك.

ـ ماذا تعني؟ ألا تخاف مطلقا؟ ماذا لو كلفتك هذه الحماقة حياتك؟ أم تسعدك المغامرة فحسب؟

جلس سورنچان وقال:

ـ كيفما تري.

لاحظ أن بولوك خائف حقا، فقد جلس علي مقعد آخر يتنفس بصعوبة وقال:

ـ هل لديك معرفة بكل ما حدث؟

ـ لا.

ـ الموقف بالغ السوء في بهولا، عشرات القري والمناطق تعرضت لخسائر فادحة. حوالي ٥٠ ألف هندوسى من حوالي ١٠ آلاف عائلة انتهوا تماما، العصابات أشعلت النار في بيوتهم بعد نهبها. سرقت ممتلكات لا تقل قيمتها عن ٥٠٠ مليون تاكا، قتل اثنان وأصيب مائتان بجراح..

واصل بولوك سرد حوادث العنف الأخري ضد معابد وبيوت الهندوس، وعندما انتهي سأله سورنچان:

ـ أين نيلا؟

ـ إنها خائفة للغاية؟ ماذا عنك؟

ـ يمكنني فحسب أن أقول أنني حي.

أغلق سورنچان عينيه واسترخي. سأل نفسه لماذا لم يذهب إلي منزل بلال بدلا من المجيء هنا؟ هل أصبح طائفيا، أم أن الموقف دفعه لذلك. فتح عينيه عندما سمع بكاء آلوك ابن بولوك، الذي يبلغ عمره ست سنوات. قال بولوك:

ـ هل تعرف سبب بكائه؟ أطفال الجيران الذين اعتادوا علي اللعب معه يوميا رفضوا أن يشاركهم اللعب اليوم. يبدو أن حجور طلب منهم عدم الاختلاط بأطفال الهندوس.

ـ من هو حجور؟

ـ إنه الشيخ الذي يأتي إلي منزلهم ليعلم أطفالهم اللغة العربية.

ـ لكن جارك هو أنيس أحمد؛ إنه عضو في الحزب الشيوعي علي ما أذكر، هل تقول أنه يعلم أطفاله اللغة العربية؟

ـ نعم.

مرة أخري أغلق سورنچان عينيه. حاول أن يضع نفسه مكان آلوك. يرتعش الطفل الصغير ويبكي علي أشياء يفهمها بالكاد. لقد حرم من أصدقائه الذين يلعب معهم يوميا في لحظة. تذكر سورنچان كيف أتت مايا من المدرسة ذات يوم لتقول باكية:

ـ المدرس طردني من الفصل.

لقد تقرر علي كل المدارس تخصيص دروس إجبارية في الدين، وطلب المدرس من مايا ترك الفصل في حصة الدين. كانت الهندوسية الوحيدة ولم يكن لديهما كتاب دين لها كما لم يكن هناك مدرس هندوسي في المدرسة ليعطيها الدرس، ولذلك وقفت خارج الفصل تشعر بالضياع والوحدة الشديدة سألها سودهاموي:

ـ لماذا خرجت من الفصل؟

ـ لأنني هندوسية كما تري.

قرب سودهاموي ابنته منه. كان مصدوما ومجروحا ومهانا بدرجة أعجزته عن الكلام لبرهة. في نفس اليوم ذهب إلي مدرس الدين وقال له:

ـ في المستقبل أرجو ألا تخرج ابنتي من الفصل، وألا تشعرها بأنها مختلفة.

بعد ذلك أصبحت مايا أسعد حالا عندما سمح لها بحضور درس الدين، وذات يوم سمعتها كيرونموي تردد أثناء لعبها بمفردها «الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين». شعرت كيرونموي بالخوف وسألت زوجها:

ـ ما هذا؟ هل من الإجباري أن يتخلي المرء عن عرقه ودينه ليحصل علي نصيب عادل من التعليم؟

التطور الجديد أقلق سودهاموي أيضا. من الصواب أن يحافظ علي سلامة ابنته العقلية بالسماح لها بتعلم مباديء الإسلام، ولكن هناك مشكلة جديدة: ماذا لو انشغلت مايا بالإسلام؟ ولهذا أرسل شكوي كتابية إلي ناظر المدرسة يقول فيها أن الدين شيء شخصي جدا ولا ينبغي أن يكون جزءا إجباريا من المنهج الدراسي وأنه كأب لا يرغب في السماح لأطفاله بتلقي أي معلومات عن أي دين علي الإطلاق، فكيف إذن تجبرهم سلطات المدرسة علي اتباع تعاليم دين بعينه . واقترح سودهاموي أنه بدلا من دروس الدين فالأكثر فائدة تدريس مادة جديدة عن سير العظماء وأفكارهم وتعاليمهم لأن من شأن هذا أن يفيد أبناء كل الطوائف بالمثل ولا يتسبب في إصابة الأقليات بعقدة الدونية. علي أية حال فقد تجاهلت سلطات المدرسة رسالة

سودهاموي ولـم يتغير شيء. دخلت نيلا الغرفة. كانت فتاة نحيلة جميلة. عادة كانت تتأنق ولكن ليس اليوم. هناك دوائر سوداء تحت عينيها الممتلئتين بالخوف والقلق. قالت بعصبية:

ـ سورنچان ـ دا، لماذا لم تزرنا منذ وقت طويل؟

ألا ترغب في السؤال عنا ومعرفة ما إذا كنا لانزال أحياء؟ إننا نعلم دائما عندما تأتي لزيارة الجيران.

عند هذه الجملة انهارت وبكت. لماذا تبكي لمجرد أن سورنچان لا يأتي لزيارتهم؟ هل هو الإحساس بالعجز الناشيء عن الشعور بالاضطهاد هو ما جعلها تبكي؟ هل شعرت أن سورنچان وبولوك وآلوك يشعرون بعدم الأمان والتعاسة مثلها؟ فجأة شعر سورنچان بقرابة شديدة إلي هذه الأسرة. منذ خمسة أيام فقط قضي ساعات في منزل بلال يثرثر ويستمتع بوقته مع الأصدقاء، ولم يرغب في زيارة بولوك وأسرته وقتها، الآن تختلف مشاعره.

ـ لماذا أنت عصبية؟ لن يمكنهم عمل الكثير في دكا. البوليس يتواجد في شانكهاري بازار واسلامبور وتانتيا بازار.

ـ البوليس كان متواجدا في المرة الأخيرة أيضا. ولكنهم سرقوا معبد داكشواري وأشعلوا فيه النيران في حضور رجال البوليس الذين لم يفعلوا شيئا.. أليس كذلك؟ ما الذي أخرجك اليوم؟ لا يجب أن تثق بالمسلمين. قد تعتقد أن شخصا ما صديقك، ولكن لا تفاجأ إذا جاء وقطع رأسك فجأة.

أغلق سورنچان عينيه من جديد، هل يساعده ذلك في تقليل معاناة قلبه وروحه؟ في الخارج قدر كبير من الصراخ والصياح. ربما يدمرون أحد محلات الهندوس.. بعينين مغلقتين أمكنه الإحساس بشيء يحترق، كما استطاع أن يري بعيني عقله عددا من المتعصبين يرقصون بالأسلحة البيضاء والقضبان الحديدية، في المساء السابق زار جوتام. وجد صديقه راقدا والكدمات تحت عينيه وصدره وظهره وضع يده علي قلبه وجلس بجوار سريره دون أن يتكلم. قال له جوتام:

ـ دادا، لم أفعل لهم شيئا. كانوا عائدين من المسجد بعد صلاة الظهر، وكنت ذاهبا لشراء بعض البيض.. لم أتصور أن هناك ما يجب أن أخشاه، لأن محل البيض قريب. وأنا أدفع ثمن البيض فوجئت بركلة في ظهري. فوجئت بستة أو سبعة أشخاص منهم. ماذا أفعل بمفردي ؟ صاحب المحل وكل المارة وقفوا يضحكون أثناء قيامهم بضربي. حتي عندما القوا بي وضربوني لم أقل شيئا بالمرة، وأثناء ذلك استمروا في شتيمتي:

ـ أيها الهندوس الوضعاء الملعونون.. سوف نقتلك يا ابن الحرام. هل تظنون أنكم ستفلتون بعد تدمير مسجد بابري؟ سوف نطردكم جميعا من هذا البلد.

استمع إليه سورنچان دون أن يجد كلمات يطمئن بها صديقه. شعر بدقات قلب جوتام العنيفة. هل يدق قلبه بنفس الطريقة؟ أحضرت نيلا الشاي، وأثناء تناوله تحدثوا عن مايا:

ـ أنا قلق علي مايا. ماذا لو قررت فجأة أن تتزوج جاهانجير؟

ـ يا الله الطيب، هل هذا صحيح يا سورنچان ـ دادا أرجوك امنعها قبل فوات الأوان. أنت تعلم كيف أننا نتخذ قرارات متسرعة دائما عندما نكون تحت ضغط الظروف.

ـ ربما أمر عليها أثناء عودتي إلي البيت لأصحبها معي.. لقد لاحظت تغيرا واضحا في مايا. ربما ترغمها الرغبة في النجاة علي تغيير اسمها... منتهي الأنانية.

بدت عينا نيلا وكأنهما تعكسان حقيقة موقفهم الجماعي. وراح آلوك في النوم، خداه يحملان، أثر الدموع. وقف بولوك وأخذ يتمشي بعصبية. أصاب سورنچان بعض قلقه. لقد نسيا شايهما الذي برد الآن. أراد سورنچان أن يغلق عينيه ويفكر. هذا البلد قولا وعملا هو بلده وبلد أبيه كما كان بلد جده وجد جده! لماذا برغم ذلك يشعر بهذه الغربة؟ لماذا يشعر بأنه لا يستطيع ممارسة حقوقه في هذا البلد، بلده؟.. ليس لديه الحق في الكلام بحرية ولا الانتقال كما يشاء أو ارتداء الملابس التي يريد ارتداءها، لا يستطيع، باختصار، عمل أي شيء بإرادته الحرة. كما لو أن أحدا يخنقه. لا إراديا امتدت يداه إلي عنقه وضغطتا بقوة حتي شعر بأنفاسه تهرب

منه، خفف سورنچان قبضته على عنقه وصاح بيأس:

ـ بولوك، لا أشعر أننى على ما يرام.

قطرات من العرق كانت متجمعة على جبهة بولوك. لماذا يعرق هكذا فى يوم شتوى؟ امتدت يد سورنچان إلى جبهته، فوجىء بأنها مبللة بالعرق أيضا. هل هو الخوف؟ لا أحد يضربهما أو يخنقهما فعلا. لماذا يشعران بالرعب إذن؟ لماذا تدق قلوبهما بهذه السرعة؟ توجه سورنچان إلى التليفون وطلب رقم ديليب دى، صديقه الذى كان من زعماء الطلبة المشهورين، وجده فى البيت لحسن الحظ. أخبره ديليب دى بمزيد من الحوادث التى جرت فى شيتاجونج . وهو يضع السماعة طلب منه بولوك أن يتصل بديبا براتا ليرى ما إذا كان على ما يرام. بعد ديبا براتا اتصل سورنچان بمزيد من أصدقائه الهندوس للاطمئنان عليهم. كان يتحدث إليهم لأول مرة منذ وقت طويل جدا، الآن كان يشعر بالقرابة لهم. دق جرس التليفون. التقطه سورنچان. كان أحدهم يطلب بولوك من بازاركوكس. بعد نهاية المحادثة قال بولوك:

ـ جماعة شيبر فى بازار كوكس أحرقوا العلم الوطنى.

فوجىء سورنچان بأن المعلومة لم تهمه. المفروض أن يمتلىء بالأسى والألم، والغريب أنه شعر بلا مبالاة تامة تجاه إحراق العلم الوطنى. فى النهاية هو ليس علمه، أليس كذلك؟ كان غريبا أن يشعر هكذا تجاه الأمر، وحاول أن يلملم نفسه ويعيد توجيه مشاعره.. كيف يكون ضيق الأفق وأنانياً هكذا؟ ولكن شعور اللامبالاة لم يغادره، وبينما المفروض أن يشعر بالغضب، لم يشعر بشىء. أتى بولوك وجلس بجوار سورنچان وقال:

ـ لا تعد إلى البيت اليوم. ابق معنا، لا تعلم ماذا يمكن أن يحدث فى الشوارع، لا أحد منا يستطيع الخروج الآن.

لوتفور نصحه بنفس الشىء ليلة أمس ولكن سورنچان تعجب من أنه يجد نصيحة بولوك مخلصة بينما شعر أمس أن نصيحة لوتفور كانت إعلاناً عن تكبره وقوته.تنهدت نيلا بيأس وهى تقول:

ـ أعتقد أننا لن نستطيع الاستمرار في هذا البلد. نحن في أمان اليوم، غدا قد نكون الضحايا. أي خوف نضطر جميعا إلي العيش فيه! الأفضل أن يعيش المرء فقيرا علي أن يعيش غير مطمئن.

كان سورنجان علي وشك قبول عرض بولوك بالبقاء عندما تذكر أن سودهاموي وكيرونموي وحدهما في البيت، وقرر أن يرحل:

ـ سأغامر بالذهاب في كل الأحوال. علي الأكثر سأصبح شهيدا. سوف يجد الناس جثة مجهولة تحت زهور وأوراق أشجار الأمة وسوف ينظرون نحوي ويقولون «مجرد حادث عابر.. » ما رأيك؟

ضحك سورنجان عاليا لكن نيلا وبولوك لم يبتسما حتي. في الخارج وجد سورنجان عربة ريكشا، ولكن الساعة كانت لاتزال الثامنة ولم يشعر برغبة في العودة إلي البيت. فكر بشيء من المرارة في حظ بولوك الطيب.. لقد وجد فتاة لطيفة واستقرارا ماديا. سورنجان وحده الذي لم يستطع تحقيق اي شيء. في وقت ما كان لديه الحافز علي الزواج وتكوين أسرة. بعد زواج بارفين قرر التخلص من هذه الفكرة نهائياً. ولكن منذ شهرين التقي بفتاة اسمها راتنا واشتعل الحافز القديم مجددا. لم يجد بالطبع وقتا ولا فرصة لإخبار راتنا بحبه لها، في أول مرة التقيا معا سألته راتنا:

ـ ماذا تفعل بوقتك؟

ـ لا شيء.

ـ ألست في الخدمة العامة، أو البيزنيس أو التجارة..؟

ـ لا.

ـ ألست منخرطاً في السياسة؟

ـ انسحبت منها.

ـ علمت أنك كنت عضوا باتحاد الشباب؟

ـ لم أعد احب كل هذا.

ـ ما الذي تحبه؟

ـ التنقل.. ولقاء الناس.

ـ ألا تحب الأشجار، والأنهار..؟

ـ نعم أحبها ولكن أحب الناس أكثر، هناك قصة ما أو سر داخل كل إنسان.. وأنا أحب اختبار هذه الأشياء المجهولة في عقل الإنسان.

• ـ هل تكتب الشعر؟

ـ لا، علي الإطلاق. ولكن بعض أصدقائي شعراء.

ـ لماذا لم تتزوج؟

ـ لم ترض بي واحدة.

ـ ولا واحدة؟

ـ واحدة فعلت.. ولكن رفضت في النهاية أن تخاطر.

ـ لماذا؟

ـ لأنها مسلمة وأنا، كما تعلمين، أُدعي هندوسيا. لم أطلب منها أن تصبح هندوسية ولكن كان يجب أن أغير أنا اسمي إلي شيء مثل «عبد الصبور».

ضحكت راتنا عندما سمعته يقول ذلك، وقالت:

ـ أفضل شيء في الدنيا عدم الزواج، الحياة قصيرة والأفضل أن يعيش المرء بدون روابط أو التزامات.

ـ هل هذا سبب عدم زواجك أيضا؟

ـ بالضبط.

ـ أعتقد أنه شيء طيب بمعني ما.

ـ طالما أن لدينا نفس الآراء فسوف تصبح صداقتنا قوية.

ـ بالنسبة لي الصداقة شيء واسع للغاية، ليس مجرد اتفاق علي بعض الأمور.

ـ هل ينبغي أن يصلي المرء ليحظي بصداقتك؟

ضحك سورنچان وقال:

ـ منذ متي أصبحت محظوظا هكذا؟

ـ يبدو أن ثقتك بنفسك قليلة.

ـ ليس هذا، ثقتي بنفسي كبيرة ولكن ليس بالآخرين.

ـ لماذا لا تجرب أن تثق بي؟

في هذا اليوم شعر سورنچان بسعادة كبيرة. أراد أن يستعيد هذا الإحساس في عقله. وتذكر راتنا لأنه كان يحتاج إلي رفع روحه المعنوية. في الأيام الأخيرة، عندما يغرق في الكآبة، يفكر في راتنا. تري كيف حالها؟ هل يذهب إلي آزيمبور لزيارتها. سوف يذهب ببساطة ليطمئن عليها. هل ستشعر ببعض الحرج عندما تراه؟

لم يعرف سورنچان ماذا يفعل. في الأيام الأخيرة يسعي الهندوس إلي الالتقاء ببعضهم للاطمئنان علي بعضهم البعض. ألن تعتقد راتنا أن هذا هو سبب زيارته؟ أن يطمئن علي سلامتها؟ وربما لا تشعر إذن بغرابة في مشاهدته أمام عتبة منزلها.

طلب من سائق الريكشا أن يستدير باتجاه أزيمبور.

فكر مجددا في راتنا. لم تكن طويلة، وبالكاد تصل إلي كتفيه. جميلة وذات وجه مستدير، وهناك حزن في عينيها يستغربه سورنچان ويتساءل دوما عن سببه.. فتح مفكرة جيبه ليراجع عنوانها.

**

لم تكن راتنا في المنزل. فتح رجل عجوز باب البيت الأمامي فتحة صغيرة وأخبره بأنها ذهبت الى مدينة سيلهيت وان موعد عودتها غير معروف .

هل ذهبت إلي سيلهيت لقضاء مهمة خاصة بالعمل؟ أم أنها في أجازة؟ أم هربت من دكا؟ أم.. أنها لم تذهب علي الإطلاق؟ هل يقولون سيلهيت ليتخلصوا منه؟

ولكنه أخبرهم باسمه وهو اسم هندوسي بوضوح.. لا ينبغي أن يخافوا منه، ملأت هذه الأفكار رأسه وهو يتمشي في شوارع آزيمبور.

لم يتعرف أحد علي هويته الهندوسية. معظم المارة يرتدون الطواقي علي رؤوسهم. بعض الشباب الثائرين واقفون في دائرة وآخرون كانوا يتسكعون فحسب. ولكن أحدا لم يتعرف عليه، استغرب سورنچان الأمر، لو استنتج واحد منهم أنه هندوسي فسوف يمسكون به ويلقونه جثة هامدة في المقابر بكل تأكيد. ليس لديه شك في هذا لأنه لن يستطيع الدفاع عن نفسه بمفرده. مرة أخري سمع دقات قلبه العالية، كما سمعها عند فراش جوتام. أمكنه أن يشعر بالعرق المتصبب علي جبهته. إحساس غريب هذا أن تبتل جبهته بالعرق بينما يشعر جسده بالبرد بسبب الريح الجليدية التي تخترق قميصه الخفيف.. مشى سورنچان حتي وصل إلي بالاش. وهنا فكر في المرور علي نيرماليندو جوون للاطمئنان عليه.. كان صديقه يستأجر غرفة في مجمع سكني لموظفي الفصل الرابع بكلية الهندسة. سورنچان يكن احتراما كبيرا لجوون لأنه شريف ومثقف ولا يتردد في الإعلان عن آرائه. عندما طرق الباب فتحت له طفلة صغيرة في حوالي الثانية عشرة. كان جوون جالسا في فراشه يشاهد التليفزيون.. وبمجرد أن رأي سورنچان أنشد بيتا من أغنية لطاغور تقول: «أرجوك أدخل إلي غرفتي المتواضعة..» سأله سورنچان:

ـ هل هناك فائدة من مشاهدة التليفزيون؟

ـ أشاهد الإعلانات. بطارية تعمل بالطاقة الشمسية، ساري من الحرير الفاخر، معجون أسنان جديد، كما أشاهد أيضا حمادنات والقرآن

لم يستطع سورنچان منع نفسه من الضحك وقال:

ـ هل هكذا تقضي يومك؟ لا أعتقد أنك خرجت من المنزل؟

ـ هناك طفل مسلم عمره أربع سنوات يعيش في منزلي. إننا نعتمد عليه فعليا ف إنقاذ حياتنا، بالأمس ذهبت إلي منزل آشيم، كان يسير أمامي وأنا أتبعه.ضحك سورنچان مجددا وقال:

ـ ولكن الباب فتح دون الاستعلام عن هوية الطارق. هل كنت تتوقع زائرا آخر؟

ضحك جوون بدوره وقال:

ـ ليلة امس في حوالي الثانية صباحا، وقف بعض الشباب في الطريق يعدون لتنظيم مسيرة، ويبحثون الشعارات التي يشتمون بها الهندوس. فجأة صحت عليهم «من هناك؟» فابتعدوا بهدوء. أنت تعرف أن الكثيرين يعتقدون أنني مسلم بسبب شعري ولحيتي.

ـ هل لازلت تكتب الشعر؟

ـ لا ما الفائدة؟ لقد توقفت عن كل هذا.

ـ هل يعرضون أي شيء في التليفزيون؟ أعني هل قالوا أي شيء عن المعابد التي يتم تدميرها؟

ـ لا، إطلاقا. إذا شاهدت التليفزيون سيواتيك الانطباع بأن الوئام الطائفي يسود هذا البلد، وأنه لا توجد أحداث عنف هنا، في الهند فقط تحدث مثل هذه الأشياء.

ـ بالأمس قال أحدهم أن ما لا يقل عن أربعة آلاف حادث عنف قد وقع في الهند. مع ذلك لم يغادر مسلمو الهند وطنهم، ولكن الهندوس هنا يضعون قدما في بنجلاديش والأخري في الهند، لمزيد من الوضوح، المسلمون في الهند يقاتلون في سبيل قضيتهم، أما الهندوس في بنجلاديش فيهربون.

قال جوون بأسي:

ـ المسلمون في الهند في موقف يسمح لهم بالقتال، لأن الهند دولة علمانية. هنا، السلطة في أيدي الأصوليين. ليس هناك مجال للقتال هنا. الهندوس مواطنون من الدرجة الثانية. منذ متي يكون لدي المواطنين من الدرجة الثانية حق القتال؟

ـ لماذا لا تكتب عن هذا؟

ـ أرغب دائما في الكتابة عن هذه الأشياء، ولكن لو فعلت سوف يتهمونني بالدعاية للهند. في الواقع أرغب في الكتابة عن عدد كبير من الموضوعات، ولكنني

لا أفعل. ما الفائدة علي أية حال؟

عاد جوون لمتابعة التليفزيون. أحضرت جيتا بعض الشاي. لم يرغب سورنچان في تناول الشاي بسبب التأثير الذي تركه كلام جوون عليه، قام وقد زاد إحساسه بالألم والمعاناة التي تجذرت في قلبه. هل المعاناة تعدي؟ ترك بالاش خلفه وتوجه إلي تيكاتولي. قرر عدم تأجير ريكشا لأن كل ما تبقي لديه كان خمسة تاكا. اشتري سيجارة من ناصية بالاش. عندما طلب نوع «بانجلا فايف» نظر إليه صاحب المحل باستغراب. سقط قلب سورنچان بين قدميه. هل خمن البائع أنه هندوسى؟ وهل يعلم أنه منذ هدم مسجد بابري فإنه يمكن ضرب أي هندوسي دون عقاب؟ دفع ثمن السيجارة بسرعة وابتعد. أدهشه أن يشعر بهذا الخوف الذي لم يعرفه أبدا من قبل. لقد غادر المحل بدون إشعال سيجارته لمجرد أنه فكر في احتمال أن يكتشفوا أنه هندوسي! هوية المرء الدينية ليست مكتوبة علي جسمه بالطبع.. ولكن سورنچان خشي أن يستطيعوا التعرف عليه من سلوكه وكلامه ومشيه! عندما دخل منطقة تيكاتولي عوي كلب ضال بصوت مرتفع فجأة، فقفز سورنچان خارج جلده تقريبا من شدة الرعب.

في نفس اللحظة سمع بعض الصبية يصيحون: «أمسك.. أمسك». وبدون أن ينظر خلفه انطلق يعدو بأسرع ما يمكن. تصبب جسده عرقا، انفتحت أزرار قميصه، ولكنه واصل الجري. بعد مسافة بعيدة توقف عند الناصية وتلفت خلفه، لم يكن هناك أحد علي مرمي البصر. هل جري بدون سبب علي الإطلاق؟ ألم تكن هذه الكلمات تعنيه؟ هل بدأ يسمع أصواتا غير حقيقية؟ أم أن كل هذا هلاوس صوتية؟

لم يطرق سورنچان باب البيت الأمامي، لأن الوقت كان متأخر. فتح باب غرفته الجانبي ودخل. عند ذلك سمع كلمات «بهاجافان .. بهاجافان..» تختلط مع صوت نحيب. تساءل عما إذا كان بعض أقاربه أو أصدقائه الهندوس في زيارة. دخل غرفة والديه فوجد كيرونموي تنحني أمام تمثال طيني صغير في أحد الأركان وتبتهل بالصلوات وهي تزداد انحناء وبكاء محزنا، «بهاجافان .. بهاجافان..» . فوجيء سورنچان بهذا المشهد غير المتوقع. وللحظة لم يعرف ماذا يفعل. هل يلتقط التمثال

ويلقي به إلي الخارج؟ أم يرفع رأس كيرونموي المنحني بيديه. شعر بالغثيان من رؤية أمه تنحني بهذه المعاناة. وقف عند رأسها وساعدها علي النهوض وهو يقول بخشونة:

ـ ماذا جري لك؟ لماذا تجلسين مع تمثال؟

أجهشت كيرونموي بالبكاء قائلة:

ـ يدا أبوك وقدماه أصيبت بالشلل ولسانه يتلعثم.

استدار سورنچان إلي والده. كان راقدا يتمتم بكلام غير مفهوم. جلس بجواره وأمسك بيده اليمني، لا إحساس بها علي الإطلاق. أثقل الموقف علي سورنچان. مثل هذه الحالة أصابت جده. قال الأطباء أنها صدمة ووصفوا له كثيراً من الأقراص والعلاج الطبيعي الطويل المدي. حدق سودهاموي بشرود في سورنچان وكيرونموي. لا أحد من أقاربهم هنا.. إلي من يمكن أن يذهب؟ في الحقيقة لم يعد لديهم أقارب من الدرجة الأولي في هذا البلد. شعر سورنچان بالضياع الشديد والعجز. كان ينتظر منه أن يتحمل مسئوليات الأسرة ولكنه ابن مسرف غير نافع، يواصل التسكع والبحث عن شيء يفعله، غير قادر علي الاستمرار في أي عمل أو إنجاز أي شيء. إذا واصل سودهاموي الرقاد في فراشه، لن يجدوا شيئا يأكلونه وسينتهي به المطاف إلي الشوارع.

ـ هل جاء كمال أو أحد غيره؟

أجابت كيرونموي وهي تهز رأسها؟

ـ لا.

أمر لا يصدق. لا أحد أتي للاطمئنان علي أحواله! وأن يفكر في أنه جاب أنحاء المدينة كلها، يسأل الجميع. كلهم بخير باستثناءه هو وأسرته. عندما يفكر في الأمر

يجد أنه ربما ليس هناك أسرة أخري يعرفها تواجه هذا القدر من الفقر والخسارة وعدم الأمان مثل أسرته! قبض سورنچان علي يد أبيه الميتة وشعر بأسى شديد من أجله. مع كل الأمور التي احتشدت ضده، هل شل نفسه عامدا؟ سأل سورنچان فجأة:

ـ ألم تعد مايا؟

ـ لا.

صاح سورنچان:

ـ لماذا لم تعد؟

غضبه غير المتوقع فاجأ كيرونموي. حملقت فيه بدهشة. مهما كانت أخطاؤه فهي لم تسمعه يرفع صوته عليهم من قبل. ما الذي أصابه؟ ليس هناك خطأ في ذهاب مايا إلي منزل بارول. علي العكس كان أمرا مطمئنا لأنها سالمة هناك. تمشي سورنچان بعصبية في الغرفة وقال:

ـ لماذا لديها كل هذه الثقة في المسلمين؟ كم من الوقت سيسمحون لها بالعيش هناك؟.. كيرونموي ألجمتها الدهشة تماما. هنا سودهاموي يقاتل في سبيل الحياة، وكل ما يفكر فيه سورنچان هو ذهاب مايا إلي بيت مسلم. دمدم سورنچان من بين أسنانه:

ـ لابد من استدعاء طبيب. من سيدفع ثمن العلاج؟ عندما هدده بعض الصبية التافهين باع بيتا ثمنه مليون تاكا مقابل ٢٠٠ ألف. ألا يخجل من الحياة هكذا الآن فقيرا وعاجزا؟

ردت كيرونموي بحدة:

ـ هل تعتقد أنه فعل ذلك بسبب هؤلاء الصبية فقط؟ لقد باع البيت بسبب القضية أيضا.

رفس سورنچان أحد المقاعد ساخطا. وقال:

ـ وابنتك ذهبت لتتزوج مسلما. إنها تعتقد أن هؤلاء المسلمين سوف يضعونها في أعينهم ويوفرون لها كل ما تحتاج إليه. إنها تريد أن تصبح ثرية.

غادر سورنچان البيت. في الجوار كان هناك طبيبان،هاريبادا تاشاريا الذي يسكن عند تقاطع تيكاتولي، وأمجد حسين علي بعد بيتين من منزلهم. من يستدعي؟ مشى متحيرا. لماذا يشتم مايا؟ ألأنها لم تعد؟ أم لأنها تعتمد علي المسلمين بهذا القدر؟

تساءل سورنچان عما إذا كان في طريقه لأن يصبح طائفيا. زادت شكوكه عندما وجد نفسه يتوجه إلي تقاطع تيكاتولي.

اليـــــوم الـــرابـــع

لاچـــا

أتى حيدر إلى منزل سورنچان ليس للاطمئنان، ولكن لتبادل الشائعات، حيدر كان عضوا بحزب «رابطة عوامى». فى وقت ما انضم إليه سورنچان لبدء مشروع صغير ثم انسحب عندما أدرك أنه يفضى إلى لاشىء. موضوع حيدر المفضل هو السياسة. سورنچان، أيضاً، كان مغرماً جداً بالسياسة ولكن فقد اهتمامه بها مؤخراً. ما فعلته حكومة ارشاد وما تفعله خالدة وما قد تفعله حسينة جعل السياسة عنده أقل أهمية من قضاء فترة راحة لاإزعاج فيها، كان حيدر يطنب فى الحديث حول موضوع الإسلام كدين قومى، عندما قاطعه سورنچان وهو ينهض من الفراش.

- بالمناسبة ياحيدر، أى حق يملكه بلدكم أو برلمانكم للتمييز بين الناس وفقاً لانتمائهم الدينى؟

كان حيدر يجلس على المقعد ويمد قدميه على المائدة يقلب فى صفحات كتاب. انفجر ضاحكا عندما سمع سؤال سورنچان وقال:

- ما الذى تعنيه بـ «بلدكم»؟ أليس هو بلدكم أيضاً؟

رسم سورنچان ابتسامة متكلفة وقال:

- سوف أسألك بضعة أسئلة أنتظر منك الإجابة عليها بشكل مباشر.

أنزل حيدر قدمه عن المائدة وقال:

- إجابة سؤالك هى النفى، هذا البلد لايفرق بين الناس على أسس دينية.

سحب سورنچان نفساً طويلاً من سيجارته وقال:

ـ هل لدى البلد أو البرلمان الحق فى تفضيل أو مناصرة دين على بقية الأديان؟

ـ لا

ـ هل لدى البرلمان الحق فى تعديل أهم مادة فى الدستور وهى العلمانية؟

ـ بالتأكيد لا.

ـ استقلال البلد مبنى على قاعدة المساواة بين الناس فى إطار الحقوق. باسم التعديلات الدستورية ألم تنهدم هذه القاعدة؟

نظر حيدر إلى سورنچان متشككاً. هل يمزح؟ لماذا يسأل أسئلة أجيب عنها بالفعل؟ واصل سورنچان سؤاله السادس:

ـ بإعلان الإسلام دينا قومياً، ألا يحرم مواطنو هذا البلد غير المسلمين من دعم الأمة؟

ـ نعم.

أثناء الحديث كان واضحاً أن سورنچان وحيدر يعلمان الإجابات والأكثر من ذلك أن سورنچان كان يدرك تماماً أن وجهات نظر حيدر تتفق مع وجهات نظره فى هذه المسائل. ولكن السبب وراء محاصرة حيدر بالأسئلة الخاصة بتعديل المادة الثامنة هو اكتشاف ما إذا كانت غرائز حيدر الطائفية يمكن أن تطفو أم لا. أطفأ سورنچان سيجارته وقال:

ـ سؤالى الأخير هو: خلال آخر عهد الحكم البريطانى قسمت الهند إلى بلدين. وتسبب هذا فى تعقيدات كثيرة . اليوم لماذا تستدرج بنجلاديش مرة أخرى إلى دوامة جدل حول الأمتين؟ لمصلحة من هذا الموقف؟

لم يجب حيدر هذه المرة. أشعل سيجارة، ونفخ بعض دخانها ثم قال:

ـ الحقيقة أنه حتى جناح تجاهل قضية الأمتين والعرقية كجزء من بنية البلد الأساسية وأعلن قولته: «من اليوم فصاعداً لن يتم تعريف الهندوس والمسلمين

والمسيحيين والبوذيين بديانتهم المحترمة، لكن بهويتهم الباكستانية»

اعتدل سورنچان في جلسته وقال:

ـ لقد كنا أفضل كباكستانيين، ألا تعتقد ذلك؟

نهض حيدر فجأة وقد أثاره كلام سورنچان وقال:

ـ لا.. باكستان لم تكن خيراً بالمرة، وعندما كانت باكستان، لم يكن لدى أحد منكم شيء يتطلع إليه. بعد مولد بنجلاديش سمحتم لأنفسكم بالاعتقاد بأنكم ستنالون شرف التمتع بالحقوق والامتيازات كمواطنين من الدرجة الأولى ، لأن هذه الدولة علمانية . ولكن عندما اكتشفتم أن آمالكم وآحلامكم لم تتحقق شعرتم بالألم فعلا.

انفجر سورنچان ضاحكا . وقال مبتسما :

ـ حتى أنت تقول «أحلامكم، آمالكم»! من هو «أنتم»؟ الهندوس؟ بعد كل هذه السنوات من عدم الإيمان بأي دين تصفني بالهندوسي؟

انتزع سورنچان نفسه من الفراش وبدأ يجوب الحجرة قلقاً.. في الهند قتل أكثر من ٦٥٠ شخصاً اعتقل البوليس ثمانية من الزعماء الأصوليين، من بينهم رئيس حزب بهارتيا چاناتا، وأعلن عن حالة الحداد اعتراضاً على هدم مسجد بابري اختفت حوادث العنف في بومباي ورانش وبعض المدن الأخرى. أطبق سورنچان قبضته في استياء من المتعصبين الهندوس. لو أن الأمر بيده، لجمع المتعصبين من كل أنحاء الأرض وأطلق عليهم الرصاص. زعماء الطوائف في بنجلاديش أعلنوا أن «الحكومة الهندية مسئولة عن هدم مسجد بابري... ولكن مقابل هذا الخطأ، لايجب أن يتحمل هندوس بنجلاديش المسئولية. ليس لدينا مشاعر سلبية، تجاه هندوس هذا البلد، ولا تجاه معابدهم.. فلننهض بروح الإسلام الحق ونحافظ على الوحدة الوطنية».

بث التليفزيون والراديو الرسالة، ولكن تبين أن هذا مظهر خادع. ففي يوم الإعلان عن الاحتجاج على هدم المسجد، انفتحت أبواب الجحيم، وتوابع المأساة التي تركها

بلطجية وقطاع الطرق خلفهم لم تكن مسبوقة. باسم الاحتجاج عاد قتلة ١٩٧١، ينهبوا ويحرقوا مقر لجنة جاتاك دالال نيرمول اليسارية ومكتب الحزب الشيوعى. لماذا؟ لقد التقى وفد من حزب الجماعة الإسلامية بقادة حزب بهارتيا جاناتا الهندى. ما الذى ناقشوه؟ أية مؤامرة خططوا لها؟ حاول سورنچان البحث عن إجابات لهذه الأسئلة. فى كل أنحاء شبه القارة تندلع أحداث العنف باسم الدين، وتتعرض الأقليات للأذى. وكون سورنچان أقلية فهو يفهم مأساتهم تماماً. ليس هناك مسيحى فى بنجلاديش يمكن اعتباره مسئولا عن فظائع البوسنة والهرسك. وبالمثل ليس هناك هندوسى فى بنجلاديش يمكن أن يحاسب على ما ارتكب ضد مسلمى الهند على أيدى أبناء بلدهم الهندوس. كيف يمكن لسورنچان أن يبرز هذا المنطق البسيط؟ ومن سيسمع له؟ قال حيدر:

- هيا، هيا استعد، سنذهب وننضم إلى منظمة «الترابط الإنسانى» التى ستعقد مسيرة لتأييد الوئام الطائفى.

الترابط الإنسانى! الفوز بالاستقلال والأحلام التى صحبته كانت بوضوح ثمرة الوحدة الوطنية والرؤية التى اشترك فيها الجميع، وكذلك الجهود التى بذلت للحفاظ على الاستقلال وسيادة دولتهم. فى ١٩٧١ بدأت حركة لمكافحة كل التأثيرات الطائفية والفاشية وتقوية روح الصداقة والتفاهم فى كل أنحاء البلد. كما بذل الجهد لترسيخ السلام العالمى أيضاً بالدعوة إلى «الإخاء الدولى» من خلال نشاط اللجنة المتعددة الطوائف والأعراق القومية» والتى جاهدت لتأسيس فروع «الترابط الإنسانى» فى كل أنحاء البلد. سأل سورنچان:

- ما علاقة هذا بى؟

- ماذا تعنى؟ ألا يعنيك الأمر مطلقاً؟

- لا.

وقف حيدر مصعوقاً فأسقط كرسيه، وأشعل سيجارة أخرى وقال:

- هل يمكن أن تعد لى كوبا من الشاى؟

ـ ليس لدينا سكر فى البيت.

كان حيدر على وشك الكلام مجدداً عن مسيرة «الترابط الإنسانى» عندما قاطعه سورنچان:

ـ ماذا قالت حسينة فى إجتماع «رابطة عوامى» أمس؟

ـ اقترحت إرسال قوة عسكرية إلى كل منطقة لكى تحافظ على السلام.

ـ هل سينقذ هذا الهندوس، أعنى نحن؟

نظر حيدر لسورنچان دون أن يقول شيئاً. ثم غير الموضوع بشكل مفاجىء:

ـ أين مايا؟

ـ ذهبت إلى الجحيم.

صعق حيدر، وفى محاولة لامتصاص الصدمة حاول أن يجعل الأمر نكتة، فقال باسماً:

ـ هل تستطيع أن تصف لى شكل الجحيم؟

ـ الثعابين تعض والعقارب تلدغ والنيران تحرق الأجساد تماماً، ولكن لاتموت.

ـ عظيم! أنت تعرف عن الجحيم أكثر مما أعرف أنا.

ـ ينبغى علىّ ذلك. ففى النهاية نحن الذين سنذهب إليه.

ـ لماذا يخيم السكون على البيت؟ أين والداك؟ هل أرسلتهما إلى مكان ما.

ـ لا.

ـ هل لاحظت شيئاً ياسورنچان؟ الجماعة الإسلامية يعرضون قضية غلام عزام فى ضوء مختلف باستغلال مسجد بابرى كمبرر.

ـ ربما، ولكننى لاأشعر تجاه غلام عزام مثلك، ولايهمنى أن يحكم عليه بالإعدام أم لا.

أشعل حيدر سيجارة أخرى. لم يفهم رغبة سورنچان فى البقاء بالبيت يوم

المسيرة. فى ٢٦ مارس من هذا العام، عندما عقدت محكمة الشعب كان سورنچان هو الذى أتى وأيقظ حيدر. لم يرغب حيدر فى الذهاب بسبب المطر وحاول إقناع سورنچان بالبقاء معه، ولكنه رفض وأصر على أن يذهبا رغم الريح والمطر

من التاسعة حتى الحادية عشرة صباحاً حاول حيدر أن يقنع سورنچان بالذهاب معه، لكنه لم ينجح فى ذلك.

**

أتت كيرونموى بمايا من منزل بارول. فور وصولها إلى البيت ارتمت على صدر أبيها باكية. لم يستطع سودهاموى تهدئتها وفى الغرفة المجاورة كان سورنچان يستشيط من الغضب. إنه يكره الدموع التى لا نفع منها. هل حققت الدموع أى شىء فى العالم؟ ما يحتاج إليه سودهاموى هو رعاية طبية عاجلة. لقد اشترى الأدوية التى وصفها الدكتور هاريبادا لثلاثة أيام وربما كان هناك مزيد من الأدوية فى دولاب كيرونموى لاتعلم بأمرها.

غضب سورنچان اختلط بالرثاء على الذات.. شعر أنه لايوجد أحد فى الأسرة يهتم به، وكل هذا لأنه عاطل عن العمل الآن. صحيح أنه لم ينجح أبداً فى الحصول على عمل دائم ولكن سبب ذلك هو كراهيته لأن يعمل لدى الآخرين. وهو يفكر فى احتمال إحياء مشروع العمل القديم مع حيدر شعر بالجوع الشديد.. ومرة أخرى رثى لحاله . من يمكن أن يعد له الطعام فى هذه الساعة؟.. لامايا ولاأمه كلفت نفسها بالمجىء إلى غرفته لمعرفة ما إذا كان جائعاً. هل تتجاهلانه لأنه بلا عمل وكسول؟

لم يذهب لرؤية والده اليوم. وهذا كان مظهراً من مظاهر علاقته بأسرته. إنه تقريبا لايقوم بأى مساهمة لهم، ومع ذلك يتوقع الكثير منهم. روتينه اليومى كان بلاهدف أو تخطيط ويتكون أساساً من ساعات التسكع مع أصدقائه وأصحابه، والانخراط فى السياسة. ما الذى جناه من وراء ذلك؟

انصرف حيدر. الذهاب معه لم يكن ليحرره من إحساسه المتعمق مؤخراً بأنه كائن ضائع.هو وحيدر كانا صديقين لسنوات طويلة. وخلال حياتهما المشتركة كثيرا ما كانا يتناقشان عن فوائد وأهمية المنطق والعقل والوعى، ويناديان بحماية التراث

الوطنى الثقافى ويتحمسان فى الدفاع عن حقوق الإنسان. اليوم أدرك سورنچان أن جهودهما كانت بلا طائل. والأفضل له إما أن ينخرط فى حياة تمتلىء بمتع الشراب واللهو أو أن يصبح عضواً مسئولاً بكليته فى الأسرة. المثالية لا نفع لها وهى التى زادت من هذه الهموم والقلق. أشعل سيجارة، وانسحب اهتمامه إلى كتاب صغير على المائدة لم يره من قبل. كان عن الصراع الطائفى عام ١٩٩٠ فتحه واستغرق فى سطوره المفزعة.

* *

قام الدكتور هاريبادا بتدريب كل من مايا وكيرونموى على تدليك ضلوع سودهاموى ومساعدته على استعادة قوته.. بدأت صحته في التحسن بفضل العلاج الطبيعي والدواء. ولكنه لم يتمكن من إستعادة نفسه القديمة مرة أخرى، وأكثر من آلمه ذلك كانت ابنته مايا. رؤية أبيها القوى الممتلىء بالحياة راقداً فى فراشه مثل لوح من الخشب. أفقدتها الكثير من حيويتها وحماسها. كانت تجفل بالألم كلما ناداها سودهاموى بصوته المختنق «مايا.. مايا». حتى فى رقاده هذا، كأنه مجرد ظل من نفسه القديمة، كانت عيناه اللتان بلا تعبير تبدوان وكأنهما تحملان شيئاً ما لابنته.كان أبوها ينصحها دائماً أن تكون كالسهم المستقيم، وصادقة مع نفسها. هو نفسه كان دائماً شريفاً بإفراط ومعارضا لأى محظورات اجتماعية يرى أنها مقيدة. كيرونموى كانت تذكره دائماً بأن ابنتهما تتقدم فى السن ولابد أن يفكرا فى زواجها ولكن سودهاموى كان يعارضها قائلا:

ـ يجب أن تدرس.. ثم تحصل على عمل وإذا رغبت بعد هذا أن تتزوج فلتفعل.

فتتقبل كيرونموى كلام زوجها بتنهيدة استسلام ثم تعود إلى موضوع آخر تفضله وهو إرسال مايا إلى خالها فى كالكتا. الخالى وأبها ونيليما وشيبانى كن جميعاً من عمر مايا وكلهن ذهبن إلى كالكتا لاستكمال الدراسة.

ـ لماذا تذهب؟ هل هناك ما يمنع التعليم فى هذا البلد؟ هل ألغوا المدارس والكليات؟

ـ ابنتنا كبرت ولا أستطيع النوم ليلا من قلقى عليها.. ألم يتعرض الصبية لبيجويا

أثناء ذهابها إلى الكلية؟

- هذه الأشياء تحدث لبنات المسلمين أيضاً.. هل تريدين أن تقولى لى أن المسلمات لا يتعرضن للاغتصاب أو الاختطاف؟

فى الحقيقة أدركت كيرونموى أن زوجها لن يوافق أبداً على خططها لمايا، وأن مايا نفسها لم تبد أى رغبة فى الذهاب إلى كالكتا. مرة واحدة فقط ذهبت إلى خالتها ولم تستمتع مطلقاً. وجدت أبناء خالتها تافهين وأنانيين ولا يبالون بها. لم يكونوا يدعونها أبدا لمشاركتهم أنشطتهم فكانت تقضى معظم اليوم وحدها تفكر فى بيتها فى بنجلاديش.

وفقاً للخطة الأصلية كان المفروض أن تقضى أجازة عيد البوجاس فى كالكتا، ولكن قبل أن تنتهى أجازتها بوقت طويل طلبت من زوج خالتها أن يعيدها. قالت خالتها:

- ولكن ديدى أرسلتك لعشرة أيام

فلمعت عينا مايا بالدموع وقالت:

- أفتقد منزلنا...

كالكتا خلال البوجاس تمتلىء دائما بالأضواء والمرح والتسلية ولكن هذا لم يجذب مايا وعادت بعد سبعة أيام بالرغم من أن كيرونموى كانت تأمل أن تبدأ فى حب المكان والبقاء هناك.

جلست مايا عند رأس سودهاموى وفكرت فى چاهنجير. تحدثت إليه مرتين من تليفون منزل بارول.. بدا أنه فقد حماسه القديم لصحبتها، قال إن عمه فى أمريكا دعاه لاستكمال دراسته هناك، وأنه يعد ترتيبات المغادرة. صدمت مايا وكادت أن تصرخ، لكنها تمالكت نفسها وقالت:

- هل ستسافر فعلاً؟

- نعم، إنها أمريكا. بالطبع سأذهب.

ـ ماذا ستفعل هناك؟

ـ سأشغل نفسي بأي شيء لبعض الوقت حتى أحصل على الجنسية.

ـ ألن تعود؟

ـ ماذا سأفعل هنا إذا عدت؟ هل يمكن لأى إنسان عاقل أن يبقى فى هذا البلد؟

ـ متى ستذهب؟

ـ الشهر القادم. شاشا يتعجلنى. إنه يخشى من احتمال تورطى فى السياسة هنا.

ولا مرة واحدة خلال محادثتها سأل چاهنجير ماذا ستفعل مايا فى غيابه. هل يتوقع منها أن تلحق به، أو على الأقل تنتظره؟ حبهما الذى دام أربع سنوات ولقاءاتهما فى المطاعم ومناقشاتهما الدائمة حول زواجهما على ضفاف بحيرة كرسنت.. كيف تنسيه أحلام أمريكا كل هذا؟ كيف تنسيه تطلعاته جائزة حياته، مايا؟

جلست مايا بجوار سودهاموى لاتفعل شيئا سوى التفكير فى چاهنجير. تحاول ولا تستطيع أن تنساه. وحتى تزيد همومها أضيف إليها آلام أبيها شبه المشلول.

عذاب كيرونموى كان أعمق ويستحيل تخفيفه. كانت تستيقظ فجأة فى منتصف الليل باكية . لماذا تبكى أو على من، كانت أسراراً لاتبوح بها. تجف الدموع وتواصل تأدية أعمال المنزل فى صمت، الطبخ، الغسل، مراعاة زوجها.

توقفت كيرونموى عن استخدام السيندور فى تفريق شعرها واللوها والسانخا فى تزيين رسغيها كما تفعل الهندوسيات المتزوجات. طلب منها سودهاموى أن تتوقف عن هذا ١٩٧١، وتوقفت كيرونموى عن استخدامها تماماً مع ١٩٧٥، سودهاموى أيضاً توقف عن ارتداء الدهوتى الذى يحبه. ذهب إلى «الترزى» تارو خليفة وطلب منه تفصيل مجموعة من البيچامات. عندما عاد إلى المنزل فى هذا اليوم أصابه صداع وحمى. كانت كيرونموى تعرف أن سودهاموى يصاب بالحمى عندما يكون مهموماً.

الذى فاجأ مايا وحيرها هو سلوك سورنچان الذى ظل بمعزل عن الأسرة حتى فى هذا الوقت العصيب. يقبع فى حجرته طوال اليوم، لايبالى بواجباته ولا يطلب الطعام عندما يجوع، والغريب أنه لم يكن حتى قلقا على أبيه المريض المحتضر. أصدقاؤه يزورونه فى حجرته، حيث يجلسون ويخوضون مناقشات حامية. يخرج عندما يريد دون أن يخبر أحداً بوجهته أو موعد عودته. لا أحد يطلب منه مالاً ولكن أليس من واجبه كابن أن يرعى والده على الأقل؟ أن يحضر له الدواء، ويستدعى الطبيب، أو أقل القليل أن يجلس بجواره ليشجعه ويقويه. لأن جميعهم كانوا يعلمون أن سودهاموى يرغب فى أن يأتى ابنه ليجلس معه ويثبت له أنه مهتم به.

تحسن سودهاموى كثيراً تحت علاج الدكتور هاريبادا. أصبح كلامه أقل تلعثماً ولكن لايزال يجد صعوبة فى تحريك أطرافه المشلولة. الطبيب أكد له أنه مع استمرار العلاج الطبيعى ستتحسن حالته أكثر. بقيت مايا مع أبيها طوال الوقت لتلبية احتياجاته. استطاعت توفير كل هذا الوقت لأنها كانت قد توقفت عن إعطاء الدروس لتلميذتيها. أم آخر تلميذة أخبرتها ذات يوم بأن ابنتها لن تتلقى مزيداً من الدروس لأنهم راحلون إلى الهند. سألتها مايا:

ـ لماذا الهند؟

أطرقت أم التلميذة ميناتى دون أن ترد بشىء . تذكرت مايا شيئاً آخر عن تلميذتها ميناتى. كانت تدرس فى مدرسة بهيكارونيا. ذات يوم أثناء درس الحساب سمعتها تتمتم: «الحمد لله رب العالمين.. الرحمن الرحيم..» ولما أبدت مايا دهشتها قالت الفتاة:

ـ إننا نتلو فقرات من القرآن فى طابور الصباح.

ـ هل هذا صحيح؟ إنهم يتلون القرآن فى طابور صباح المدرسة؟

ـ نعم سورتين، ثم النشيد الوطنى بعد ذلك.

ـ ماذا تفعلين عندما تتلى السور؟

ـ أتلو مثلهم وأغطى رأسى أيضاً.

ـ أليس هناك صلاة للهندوس أو البوذيين أو المسيحيين؟

ـ لا.

وجدت مايا أن هذا الشيء محير جداً. وبدا لها أنه شيء لا أخلاقى أن واحدة من أشهر مدارس العاصمة لاتراعى وضع صلوات من مختلف الأديان لتلاوتها فى طابور الصباح.

تذكرت مايا التلميذة الأخرى التى كانت تعلمها، اسمها سومية وكانت من أقارب بارول. ذات يوم قالت لمايا فجأة:

ـ ديدى، لاأريد أن تعلمينى أكثر من ذلك..

ـ ولم لا؟

ـ آبا يقول أنه سيجد لى معلمة مسلمة.

كانت هذه هى الكيفية التى فقدت بها مايا تلميذتيها.. ولكنها لم تذكر ذلك لأى أحد فى المنزل حتى لاتقلقهم بدون داع. سورنچان يأخذ نقوداً من مصروف البيت، وإذا بدأت هى فى عمل نفس الشيء، فكيف تتدبر كيرونموى أمرها.

كانت كيرونموى فى المطبخ تعد الأرز والدال. المفروض أن تعد أيضاً بعض الحساء وعصير الفاكهة لسودهاموى ولكن من يأتى لها بالفاكهة؟ تعجبت كيف يمكن لابنها أن يرقد فى الفراش طوال اليوم، بينما هم يحتاجون إليه بوضوح. انزعجت مايا من أخيها لسبب آخر أيضاً. لقد توسلت إليه فى السابع من ديسمبر حتى يجد لهم ملجأ ولكنه لم يرفع أصبعاً واحدا للمساعدة، إنهم لا يزالون يتعرضون لخطر كبير ولكن كل ما يفعله أخوها غير النافع هو الكسل.

محبطة ومكتئبة بسبب لامبالاة أخيها، ومع الفتور العام الذى يقبض على أفراد أسرتها، بدأت مايا أيضاً فى التوقف عن التفكير فى خطط يتجاوزون بها الأزمة. أصبحت سلبية تدريجيا وتعلمت أن تقبل الأشياء كما هى، طالما أن سورنچان لم يكلف نفسه أن يقلق على سلامتهم أو صحتهم فماذا تفعل هى؟ فى النهاية هى لاتعرف أحداً يمكنهم الذهاب إليه. حتى فى منزل بارول لم تشعر بالراحة، بارول

كانت بدون شك صديقة مخلصة جداً ولم يكن أحد فى بيتها يتساءل عن وجودها فى منزلهم. ولكن هذه المرة، نظرة عيون أهل بارول كانت مختلفة، وبالرغم من أنهم يعرفونها جيدا بدا لأول مرة وكأنهم يستغربونها. كأن نظرتهم تقول «لماذا أنت هنا؟» بارول أيضاً قالت أن منزلها ليس آمنا بشكل كافٍ لبقاء مايا فيه لوقت طويل.

فكرت مايا: أى ظلم هذا أن يثار سؤال الأمان معها فقط، وليس مع بارول مثلاً؟ هل يمكن أن تضطر بارول إلى المجيء والبحث عن ملجأ فى منزل مايا؟ بعض أقارب بارول كانوا فى زيارة لهم عندما سألوا مايا:

ـ ما اسمك؟

ـ مايا.

ـ ما اسمك كاملاً؟

فى هذه اللحظة تدخلت بارول وقالت بسرعة أن اسم صديقتها هو زكية سلطان. فيما بعد شرحت لمايا سبب إصرارها على إخفاء اسم مايا:

ـ إنهم مختلفون عنا.. شىء مثل رجال الدين الكبار. ولن يدهشنى أن يذهبوا ليقولوا عنا أننا نأوى الهندوس فى منزلنا.

حاولت مايا أن تفهم وجهة نظر صديقتها ولكنها ظلت تتألم. أى جريمة فى أن يأووا الهندوس؟ لماذا ينبغى على الهندوس أن يبحثوا عن مأوى أصلاً؟ لقد اجتازت مايا امتحاناتها بتفوق وحصلت على نجمة فى امتحانات المرحلة المتوسطة بينما نجحت بارول بالكاد. وحتى الآن، يبدو وكأن بارول تملك أوراق اللعب كلها.

ـ بابا، أطبق أصابعك، حاول أن ترفع يدك.

أطاع سودهاموى مثل طفل صغير مطيع وتشجعت مايا من عودة بعض القوة إلى أصابعه، وأمسكت بيديه.

ـ ألن يأكل دادا؟

ـ من يعرف؟ لقد رأيته نائما..

بدت كيرونموى غير مبالية إطلاقاً بسورنچان. هى أيضاً لم تأكل ولكنها أعدت لمايا نصيبها من الطعام. مايا المرهقة كانت تنعس وتطرق برأسها فجأة. أصوات الشعارات الغاضبة فى الخارج تصل إلى الغرفة المظلمة القاتمة المغلقة الأبواب والنوافذ. «أيها الهندوس إذا أردتم أن تحيوا، ارحلوا عن هذا البلد» سودهاموى أيضاً سمع الشعارات وضغط بأصابعه على يد مايا علامة أخرى أنه استعاد بعض قوته.

معدة سورنچان تقلصت من عضات الجوع. قبل ذلك، سواء جاع أم لا، طبق من الأرز كان يبقى فى إنتظاره على مائدة الطعام. واضح أن اهتمام أسرته به تضاءل ولكنه قرر ألا يطلب منهم الطعام. خرج إلى الصالة، غسل وجهه فى الحمام وتنشف، وعاد إلى حجرته وغير قميصه وغادر المنزل. فى الشارع لم يكن قد قرر بعد إلى أين يذهب. إلى حيدر؟ ولكنه لن يكون فى البيت فى هذه الساعة. إلى بلال أو كمال؟ ربما ولكن ماذا لو اعتقدا أنه جاء يبحث عن مأوى؟ أو شفقة؟ لا، لن يذهب إليهما . سوف يتجول حول المدينة وحده. فى النهاية المدينة ملكه. فى وقت ما لم يكن يستطيع تحمل الرحيل عن ميمنسنج وفى ليلة باع سودهاموى البيت دون أن يخبر ابنه. وعندما استيقظ فى الصباح التالى لم يكن يدرك أن المكان الذى ولد فيه، المعبق بالزهور والبركة الكريستالية الرائقة التى كان يسبح فيها، كل منزل آل دوتا وأرضهم لم تعد ملكه. عندما عرف أنهم سيتركون البيت فى خلال أسبوع ثار وانفجر غاضباً وخرج ولم يعد إلى المنزل لمدة يومين.

لم يفهم سورنچان أبدا سبب عاطفيته الشديدة هذه. ولماذا يجرح أى شيء كبرياءه؟ أحيانا يشعر بأن اللوم يقع على أفراد أسرته كلهم، وهو منهم. أحيانا يشعر أن بارفين كانت هى المخطئة جلقدعلته يعتقد أنها تحبه.. كانت دائماً تهرع إلى حجرته وتقول:

ـ هيا لنرحل بعيداً.

ـ إلى أين؟

ـ بعيداً إلى التلال.

ـ أين هى التلال؟ يجب أن نذهب إلى سيلهيت أو شيتا جونج لنجد تلالا.

ـ سنفعل ذلك ونبنى بيتنا هناك.

ـ وماذا نأكل؟ العشب؟

عندئذ كانت تضحك بارفين وتلقى بنفسها على سورنچان قائلة:

ـ لاأستطيع أن أحيا بدونك.

ـ هناك كلمات طائشة تقولها البنات عادة. فى الواقع أنهن لايمتن.

سورنچان كان على حق. بارفين لم تمت. بالعكس لقد تزوجت مثل طفلة مطيعة من الشخص الذى أتى به والداها. قبل يومين من زواجهما، جاءت إليه لتخبره بأن أسرتها تريد منه اعتناق الإسلام ضحك سورنچان وقال:

ـ أنت تعلمين جيداً أننى لا أومن بالأديان.

ـ لا، لابد أن تصبح مسلماً.

ـ لا أريد أن أصبح مسلماً.

ـ وهذا يعنى أنك لاتريدنى.

ـ بالطبع أريدك ولكن لماذا ينبغى أن أصبح مسلماً لمجرد أن أفعل ذلك؟

تلون وجه بارفين الجميل بحمرة الغضب على الفور.

كان يعرف سورنچان كم الضغط الذى تمارسه عليها أسرتها لتتركه. وتساءل عن موقف أخيها حيدر. إنه صديقه ولكن لم يعلق أبداً على علاقتهما. صمته ضايق سورنچان جداً ولكن لم يكن هناك وسيلة يجبره بها على إبداء رأيه. لم يعتنق سورنچان الإسلام وبالتالى نبذت بارفين حلمها بالعيش فى التلال معه. هل يمكن نبذ الأحلام بهذه السهولة ـ مثل تماثيل البوجاس الصغيرة التى تلقى فى الماء، هل هدف الأحلام فقط هو منح الناس إحساسا مؤقتاً بالسعادة؟ لقد تزوجت بارفين من رجل أعمال مسلم ولكن الزواج سرعان ما اصطدم بالمشاكل. حيدر قال له ذات يوم:

ـ ربما تطلق بارفين من زوجها.

تطلق؟ بعد عامين من الزواج؟ أراد سورنچان أن يقول هذا ولكن منع نفسه.لقد طرد بارفين من رأسه، ولكن أخبار طلاقها المحتمل أسعدته وأحيت ذكرياته معها.

ألا يزال محتفظاً باسم بارين بعناية ورقة فائقتين، ملفوفاً فى أمان فى قلبه؟ ربما! كم مضى منذ رآها آخر مرة؟ شعر بالحنين، وبذل جهداً حتى يحول أفكاره نحو راتنا.

راتنا متيرا فتاة جميلة تناسب سورنچان جداً. إذن سوف تطلق بارفين.. كيف يفترض أن يؤثر هذا فيه؟ لقد تزوجت من شخص مسلم وافقت عليه أسرتها. كلهم توقعوا خيرا من هذا الزواج كأنه أمر مضمون أن الزواج من نفس الدين والطائفة لابد أن يدوم. لماذا تعود إذن؟ ألم يصحبها زوجها إلى التلال؟ ألم يحقق أحلامها؟ وأين مكانه هو فى ذلك؟ إنه مجرد شاب هندوسى عاطل لايفعل شيئا سوى التجول فى الشوارع.

استقل سورنچان عربة ريكشا من تقاطع تيكاتولى. بارفين لم تغادر عقله. من داخل قلبه كان وجهها يطل متقافزاً ويستولى على اهتمامه. وهى معه كانت تقبله ويحتضنها بقوة ويقول لها:

ـ أنت عصفور صغير.

فتضحك بارفين وتقول:

ـ وأنت قرد.

هل هو قرد فعلاً؟ بالطبع هو قرد وإلا فلماذا ركدت حياته هكذا؟ خمس سنوات مضت، مثل عناقيد الماء الأصفر التى تتكاثر فى الأحواض الآسنة، ولكن هل استفاد شيئاً من الوقت والحياة؟ على الإطلاق! لم تقل له واحدة غير بارفين «أحبك». اليوم الذى قالت له بارفين هذا سألها:

ـ هل راهنت شخصاً ما على أنك تستطيعين أن تقولى لى هذه الكلمات؟

ـ لا على الإطلاق.

ـ هل تعنين ما قلته؟

ـ أنا أعنى ما أقوله دائماً.

نفس هذه الفتاة التى حدثته بهذه الثقة انهارت فى اللحظة التى فتحت فيها أسرتها موضوع الزواج. كل أحلامها تبخرت، فرديتها والأشياء التى أرادت تحقيقها ـ كل شيء ذهب. فكر أيضاً أن بارفين لم تعترض على زواجها مرة واحدة ولم تقل: «أريد أن أتزوج القرد الذى يعيش فى هذا المنزل!» بيته كان على بعد خطوتين من بيتها، ذهبت كيرونموى ومايا إلى حفل الزفاف ولكنه لم يذهب.

قال لسائق الريكشا أن يذهب إلى شاميلباج. ضوء الغسق كان يسقط على المدينة شعر بالجوع الشديد. كان يعانى من عسر الهضم فى الماضى ولكن الآن يعانى من الصفراء أيضاً. وصف أبوه له مضادات للحموضة ولكنه يكره الأدوية التى تبيض لون شفتيه. بجانب هذا فقد نسى الأقراص فى البيت. قرر الذهاب إلى بولوك ليأكل شيئاً. سيكون فى بيته بالتأكيد على اعتبار أنه لم يخاطر بالخروج منذ خمسة أيام.

أول شيء قاله سورنچان عند ما فتح له بولوك:

– أرجوك أحضر لى شيئا آكله. لاأعتقد أنهم طبخوا أى طعام فى منزلنا.

– لماذا؟

– الدكتور سودهاموى دوتا يعانى من أزمة صحية، وزوجته وابنته مشغولتان بتمريضه. سودهاموى دوتا، ابن الثرى سو كومار دوتا، عاجز اليوم عن دفع ثمن علاجه .

– الحقيقة أنه يجب عليك أن تفعل شيئا مفيدا، أن تحصل لنفسك على عمل.

– أوه لقد حاولت! ولكنك لا تستطيع الحصول على عمل فى بلد مسلم. بجانب ذلك من يرغب فى العمل عند هؤلاء الجهلة؟

صدم بولوك وقال:

– هل تشتم المسلمين يا سورنچان؟

– لا داعى للرعب. أنا أشتمهم حقاً، ولكن لك أنت فقط. هل تعتقد ان من

الممكن أن تشتمهم فى وجوههم؟ ألن يفصلوا رأسى عن جسدى؟

فى الحال قدمت له نيلا بعض الأرز والخضروات بالكارى. وسألته بقلق:

- سورنچان - دا، ألم تأكل شيئا طول اليوم؟

إبتسم سورنچان بضعف وقال:

- من يهتم بأمر أكلى؟

- لابد أن تتزوج.

إبتلع سورنچان طعامه وقال:

- أتزوج؟ من ترضى بالزواج منى؟

- ليس من العدل أن تتوقف عن التفكير فى الزواج لمجرد أن هذه البنت، بارفين.

- ليس هذا هو السبب. لقد كنت أجهل اننى قد أضطر إلى الزواج.

لم يكن سورنچان يستمتع بالطعام كما لو انه فقد حاسة التذوق أو يأكل لمجرد إسكات جوعه. سأل بولوك وهو يأكل:

- هل يمكن أن تقرضنى بعض المال؟

- كم تريد؟

- القدر الذى تستطيع التخلى عنه. لا أحد فى البيت يخبرنى بشئ عن الوضع المالى. ولكنى أعتقد أن كيس امى خاوى.

- حسنا، سوف اعطيك ما تريد. ولكن هل لازلت تتابع آخر تطورات الموقف فى البلد؟ فى أبهولا وشيتا جونج وسيلهيت وبازار كوكس وبيروزبور؟

- أعلم ما تريد أن تخبرنى به.. أنهم دمروا معابد كثيرة ونهبوا وأحرقوا بيوت الهندوس وقتلوا وضربوا رجالهم واغتصبوا نسائهم.. إذا كان هناك أى جديد اخبرنى به.

- هل كل هذا طبيعى بالنسبة لك ؟

– ولكن، بالطبع، أنه طبيعى. ماذا تتوقع غير هذا فى هذا البلد؟ أنت تجلس عارى الظهر ولا تستطيع أن تتحرك عندما يضربونك عليه!

جلس بولوك فى مواجهة سورنچان صامتا لبرهة ثم بدأ يسرد عشرات الأماكن والمواقع المختلفة التى تعرضت للنهب والحرق والاعتداء، حتى أن سورنچان قاطعه قائلاً:

– هل هذا صحيح؟

– كل الأشياء حدثت يا سورنچان. لا أعلم حقا كيف سننجو فى هذا البلد. فى شيتا جونج الجماعات والحزب الوطنى البنغالى انضموا معا فى تدمير المنازل والمعابد. لقد اخذوا الآنية والملابس من أكبر عدد ممكن من بيوت الهندوس وأخرجوا الأسماك من أحواضهم. منذ أيام والهندوس لا يجدون ما يأكلونه.. ألن نعترض على أى شئ من هذا ؟

– هل تعلم ماذا سيحدث إذا اعترضنا؟ تذكر قصيدة د. ل. روى التى تقول «إذن أنا رفستك، ولكن كيف يمكن أن تكون وقحاً وتتألم بسبب هذا؟».

عاد سورنچان بظهره الى الوراء وأغلق عينيه بينما واصل بولوك:

– لقد دمروا أكثر من ألف منزل فى بهولا. هذا الصباح تم رفع حظر التجول لمدة إثنتى عشرة ساعة. وخلال هذه الساعات القليلة أعتدى رجال مسلحون بالعصى والقضبان الحديدية على دار عبادة لاكشمينارا للمرة الثالثة. واكتفى رجال البوليس بالوقوف ومشاهدة كل شئ، سعداء أكثر منهم منزعجين. فى بورها نودين هوجم أكثر من ألف ونصف ألف شخص ودمر ألفا منزل على الأقل. فى تاجمودين، دمر ألفان ومائتا منزل تماما والفان منزل جزئيا. وفى بهولا دمر مئتين وستة معابد.

ضحك سورنچان وقال:

– أنت تعطينا وصفاً تفصيلياً مثل الصحف. هل تشعر بالأسف على حدوث هذه الأشياء؟

حملق بولوك فى سورنچان بتعجب وقال:

- ألا تشعر أنت بالأسف؟

ضحك سورنچان مرة أخرى وقال:

- لا، لا أشعر بأسف على الاطلاق .

بدت الحيرة على وجه بولوك وهو يقول:

- فى الحقيقة لدى عدد من الأقارب هناك ولا يمكننى إلا أن أشعر بالقلق عليهم.

- المسلمون فعلوا فعلتهم ولكن لن يحدث أن يسعى الهندوس الى الثأر! أخشى اننى لا أستطيع التعاطف معك يابولوك. أنا آسف حقا.

نظر بولوك باستغراب إلى سورنچان. ثم غادر الحجرة وعاد بألفى تاكا أعطاها له. عندئذ سأله سورنچان:

- كيف حال آلوك؟ هل ضمه أصحابه إلى فريقهم؟

- لا . إنه وحيد طول اليوم وليس هناك ما يفعله سوى مراقبة أصحابه يلعبون بينما هو يعانى وحده فى هذه الحجرة.

- هل تعلم يا بولوك، هؤلاء الذين نعتقد أنهم غير طائفيين أو أنهم أهلنا وأصدقاؤنا، هم طائفيون للغاية فى أعماقهم.. إننا نختلط ونندمج كثيرا مع المسلمين فى هذا البلد، ولا نتردد فى ان نقول «السلام عليكم» او قول كلمة «بانى» بدلاً من «جال» و«جوسول» بدلاً من «سنان» إننا نحترم ممارساتهم الدينية ونتجنب شرب الشاى أو التدخين علنا خلال شهر رمضان. بل إننا لا نذهب حتى إلى مطاعمهم فى هذا الشهر رغم أنها مفتوحة. ولكن ما مدى قربهم منا فى الواقع؟ ولمن نقدم هذه التضحيات؟ ما عدد الأجازات التى نحصل عليها فى البوجاس؟ مع هذا فمطلوب من الهندوس أن يعملوا لساعات أطول فى المستشفيات، بينما هم يتمتعون بأجازتى عيد طويلتين. لقد مرر التعديل الثامن وأطلق حزب «رابطة عوامى» إحتجاجه الصاخب ولكن هذا كل شئ. حسينة نفسها غطت رأسها كما تفعل النساء بعد العودة من الحج. إنهم متشابهون جميعا يا بولوك وليس أمامنا سوى الإنتحار أو الهجرة.

تحرك سورنچان نحو الباب. لقد طلبت منه أمه مؤخراً أن يذهب لزيارة رئيس الدين الذى باعوا له منزلهم فى ميمنسنج بمبلغ بخس، ربما يساعدهم على تجاوز أزمتهم المالية الحالية. ولكن سورنچان رفض أن يطلب المساعدة من رئيس الدين.. لقد كان يكره الاقتراض فى كل الأحوال ولكن الأزمة حادة ولابد من دفع نقود للبقالة وأشياء أخرى. بدلاً من الذهاب الى رئيس الدين اقترض من بولوك. ربما لأن سورنچان سبق أن ساعده من قبل، او ربما، مرة أخرى، لأنه هندوسى مثله، فإن بولوك يمكن ان يفهم أكثر من غيره متاعب الأقلية. فى الحقيقة، خلال اليومين الماضيين توصل سورنچان الى قرار بعدم طلب المساعدة من أى مسلم.

ودع بولوك واسرته واتجه الى البيت. وهو يمشى، فكر فى الطريقة التى يعاملونه بها فى البيت. لا أحد يريد ان يحمله مسئولية شئ. ربما لأنهم يعتقدون انه وطنى لا يهتم سوى بمصلحة الوطن العامة وليس لديه وقت لاى شئ آخر. سوف يعطى المال الى كيرونموى اليوم. أدهشته الطريقة التى تحافظ بها كيرونموى على تماسك الأسرة. لم تشكُ ابداً من أى شخص، ولا حتى ابنها عديم النفع. شعر سورنچان فجأة بأن حياته لا تستحق ان يحياها. ها هو سودهاموى معلق بين الموت والحياة، يحتاج إلى شخص بجواره دائماً. ما فائدة حياة مثل هذه؟ ولماذا ينبغى ان يعيش سورنچان نفسه؟ فكر للحظة فى شراء بعض امبولات البيثيدرين وقتل نفسه. وللحظة استطاع ان يتخيل موته بوضوح. سوف يرقد فى فراشه ميتاً، ولكن اسرته لن تعلم بموته. سيعتقدون أنه متعب ويستريح ولا يجب ان يزعجوه. سوف تأتى مايا وتقول:

- يادادا، انهض.. يجب ان نفعل شيئاً من اجل بابا..

ولكن دادا لن يرد. استغرق فى مثل هذه الأفكار أثناء مشيه، ولاحظ مسيرة تمر عند ناصية بيجوى ناجار. انها مسيرة الوئام الطائفى. كانوا يرددون شعارات تؤكد على الإخاء بين الهندوس والمسلمين. لم يستطع سورنچان ان يمنع نفسه من ابتسامة ساخرة. قبل ان يعود إلى البيت، مر على منزل جوتام. كان احسن حالاً ولكن لا يزال يرتعب وينزعج من أقل ضوضاء.

الغريب ان شخصاً مثل جوتام شغل كل وقته بمهنته كطبيب، دون ان يهتم بالسياسة، والأكثر من هذا ليس له أعداء فى المنطقة، يتعرض للضرب بلا رحمة هكذا لأن مسجد بابرى هدم فى الهند! أ م جوتام جلست بالقرب منهما وهمست فى أذن سورنچان بحرص:

- سوف نرحل.

- ترحلون؟

- نعم ، نعد الترتيبات لبيع المنزل.

لم يرغب سورنچان فى معرفة مكان رحيلهم. إذا جلس أكثر من ذلك قد يضطر إلى سماع الحقيقة المرعبة بأنهم سيرحلون عن البلد كله. ولذلك دفع مقعده للوراء ونهض بسرعة ليرحل. ولكن أم جوتام أوقفته وقالت بصوت تخنقه الدموع:

- لا يابنى ، لاتذهب الآن، الله أعلم إذا كنا سنلتقى مرة أخرى قبل رحيلنا أم لا. ابق معنا بعض الوقت..

- أنا آسف ياما شيما ولكن لدى بعض العمل فى البيت. سآتى لأراكم مرة أخرى.

لم يستدر سورنچان ليرى جوتام أو امه. بعينين منخفضتين خرج من البيت دون أن ينجح فى إخفاء تنهيدة يأس.

اليـــــــــوم الخامــس

لاجـــا

بيرو باكشا شاب مجتهد ينتمى إلى نفس حزب سورنچان السياسى. هذا الصباح لم يكن سورنچان قد نهض من فراشه بعد عندما دخل بيروباكشا غرفته.

- إنها العاشرة ولاتزال فى الفراش؟

- لست نائماً لكننى أستلقى فقط. عندما لايكون هناك شيئاً تفعله فالأفضل أن ترقد. ليس لدينا الشجاعة على تدمير المساجد ولذلك ليس أمامنا سوى الرقاد.

- أنت على حق. إنهم يدمرون مئات المعابد ولكن إذا ألقينا حجراً واحداً على مسجد فهل تتخيل العواقب! الباكستانيون حولوا معبد كاليبارى رومانا الذى يرجع عمره إلى ٤٠٠ سنة مضت إلى تراب، ولكن ليس واضحا إذا ماكانت الحكومة ستعيد بناءه.

- حسينة تتكلم دائماً عن إعادة بناء مسجد بابرى ولكن فى بنجلاديش، حتى لو كان هناك أمل فى تعويض الهندوس، فإن شيئاً لايذكر إطلاقاً عن إعادة بناء المعابد. يبدو أنهم لايدركون أن الهندوس لم يأتوا إلي بنجلاديش مع مياه الفيضان. إننا مواطنون هنا مثل أى شخص آخر. لدينا الحق فى الحياة، وأيضاً الحق فى حماية حياتنا وممتلكاتنا وأماكن عبادتنا.

- واضح أن هذا النهب والسرقة ليسا بسبب مسجد بابرى. فى صباح ٢١ مارس ١٩٩٢ اختطف مسلمان ابنة رجل هندوسى يعيش فى نفس المنطقة واغتصباها.

- يونس ميا رئيس منطقة أوبازيلا على ميردا عضو حزب الاتحاد اضطهدا عائلات

منطقة مونى كانايلال كثيرا لإجبارهم على الهجرة.

واصل الإثنان تبادل الأخبار من هذا النوع عن الهندوس الذين تعرضوا للسرقة أو الخطف أو الإجبار على الرحيل أو الاغتصاب ووجد سورنچان نفسه يستدرج إلى المحادثة. أشعل سيجارة وعندما انتهت نهض من الفراش وذهب ليغتسل. فى طريقه إلى الحمام توقف ليطلب من كيرونموى كوبين من الشاى. كان قد أعطى الألفين تاكا لأمه فى الليلة الماضية. مؤكد أنها لاتشعر الآن بأن ابنها عديم المسئولية تماما. تبدو أقل توتراً اليوم، ربما لأن موقفها المالى أفضل مؤقتاً. عاد إلى حجرته ليجد بيروباكشا جالساً مهموماً. طلب منه سورنچان أن يبتهج قليلاً - هو نفسه يشعر بتحسن الآن. فكر فى الذهاب إلى حجرة سودهاموى للاطمئنان عليه. فى نفس الوقت جاءت مايا بكوبين من الشاى قال سورنچان مازحاً :

- لقد نحفت خلال الأيام الماضية. ألم تكونى تحصلين على طعام كاف فى منزل بارول؟

تجاهلت مايا سؤاله وخرجت، منزعجة جداً من أخيها. سودهاموى مريض وليس من اللائق بالطبع أن يضحك ويطلق النكات فى هذه الساعة. عاد بيرو باكشا من أفكاره وقال:

- سورنچان - دا، أنت لاتؤمن بالدين، وأعلم أنك لاتصلى وأنك تأكل لحم البقر أيضاً، لماذا لاتخبرهم بأنك لست هندوسيا تماماً، وأنك نصف مسلم؟

- الحقيقة هى أنى إنسان. وهذا أكثر مايعترضون عليه. الغريب أنه لايوجد تناقض بين المتعصبين الهندوس و المسلمين. لابد أنك لاحظت أوجه التشابه بين الجماعات هنا وبين حزب بهارتيا جاناتا فى الهند. كلا الحزبين يسعيان إلى السيطرة على بلديهما المحترمين.

- فى الهند ليس حزب بهارتيا جاناتا ولكن حزب المؤتمر هو المسئول عن أحداث العنف.

واصل الصديقان مناقشتهما عن موقف الأحزاب فى كلا البلدين من التعصب الطائفى وطريقة استغلالها لأحداث العنف فى سبيل الحصول على مزيد من

الأصوات الانتخابية. قطعت مايا الحديث بدخولها إلى الغرفة. وضعت مظروفا مغلقا على المائدة وقالت:

- ماما طلبت منى أن أعطيك هذا. قالت أنها لاتحتاج إليه.

قبل أن يسأل سورنچان استدارت وتركت الغرفة. فتح سورنچان المظروف فوجد الألفى تاكا التى أعطاها لأمه ليلة أمس. شعر بإهانة بالغة. ماذا تفعل كيرونموى؟ هل يرفض كبرياؤها مساهمته؟ أم أنها تعتقد أن ابنها العاطل سرق هذا المال؟ انزعج سورنچان جدا حتى أنه رغب فى ألا يتحدث مع أى أحد، ولاحتى بيرو باكشا، وتمنى أن يتركوه وحده.

أبو كيرونموى كان محاميا معروفاً زوج ابنته ذات الستة عشر ربيعا إلى طبيب شاب ورحل مع عائلته كلها إلى كالكتا، على أمل أن تلحق به ابنته وزوجها عاجلاً أو آجلاً. كيرونموى أيضاً أملت فى أن يحدث هذا ،خاصة أن معظم عائلتهم هناك. ولكنها عائلة غريبة هذه التى تزوجت منها. فقد بقيت مع حمويها ست سنوات، حزم فيها كثير من الأصدقاء والأقارب أمتعتهم ورحلوا، ولكن زوجها لم يفكر فى هذا مرة واحدة. كيرونموى كانت تذرف الدموع سراً. ومن كالكتا كتب إليها أبوها قائلاً:

«عزيزتى كيرون ..

هل قررت عدم المجيء بعد كل شيء؟ اطلبى من سودهاموى أن يفكر فى الأمر مرة أخرى. نحن أيضاً لسنا سعداء بترك بلدنا، ولكننا كنا مجبرين على هذا. أيضاً لسنا سعداء جدا هنا ونشتاق إلى بلدنا، ولكن ينبغى أن نكون عمليين وواقعيين. أنا قلق عليك» .

كانت تقرأ كيرنموى هذه الرسائل وحدها وتبكى. أحيانا فى الليل كانت تحاول إقناع سودهاموى بالرحيل دون جدوى. لاأحد فى عائلة زوجها بدءاً بوالد سودهاموى وحتى سورنچان كان يفكر فى ترك بنجلاديش. ولم يكن لديها بديل سوى قبول قرارهم. ولكن مسئولية الحفاظ على الأسرة خلال كل الأزمات التى تعرضوا لها وقعت على عاتقها. لم تشك أبدا وكانت آخر تضحية قامت بها هى بيع

زوج من أساورها الذهبية إلى زوجة الدكتور هاريبادا. لم تخبر أى أحد فى البيت بالأمر. فى النهاية الذهب ليس أهم من زوجها وشفائه. عندما تحصل على بعض الوقت للتفكير فى علاقتها بزوجها كانت تتساءل عن هذا النبع العميق داخلها الذى ينشأ منه حبها لزوجها . لم يكن رابطاً جسديا، ذلك أنهما لم يمارسا الحب منذ ١٩٧١، وكان كثيرا مايقول لها سودهاموى:

- كيرونموى، أعتقد أننى خدعتك،

وبالرغم من أنها كانت تفهم مقصده، لم تكن تجيب بشىء مع أنها كانت ترغب حقا فى أن تقول:

- لا... أنا لم أخدع. من قال هذا؟

لكنها لم تكن تجد الكلمات الصحيحة لتعبر عن نفسها فتسكت. وكان سودهاموى يقول بتنهيدة يائسة:

- هل ستتركيننى وترحلين ياكيرو؟ أتعلمين أننى أرتعب أحيانا.

لم يكن لهذا السؤال معنى، لأنها لم تكن لتتركه أبدا، أبداً. فى النهاية هل الجنس هو العنصر الهام الوحيد فى العلاقة بين الرجل المرأة؟ هل كل شىء آخر تافه؟ هل خمس وثلاثون سنة من الرباط الزوجى ليس لها قيمة إطلاقاً؟ هل من السهل أن تتجاهل الأحداث المؤسية والمفرحة التى اجتازاها معا لإستكمال دائرة حياة الأسرة. لا، كانت تردد كيروموى لنفسها. لسوء الحظ، جزء من حياتهما تعطل ولكنها استطاعت تقبل الأمر. وعندما كان يوقظها سودهاموى فى منتصف الليل ليعتذر لها ويسألها عما إذا كانت تعانى بسبب عجزه، كانت تقول دائماً:

- لا، لماذا يجب أن أعانى؟

لكنها كانت تعلم أن سودهاموى يمتلىء بالألم والإحباط من عجزه، خاصة عندما يدفن رأسه فى مخدته. وكانت كيروموى بدورها تستدير نحو الحائط وتقضى ليلها مؤرقة. أحياناً كان يقول سودهاموى:

- إذا رغبت فى بدء حياة جديدة لن أمانع.

ليس صحيحاً أن كيرونموى لم تشعر بالرغبة أبداً. عندما كان يأتى أصدقاء

سودهاموى لزيارته ويقضون الوقت فى الحديث كانت ظلالهم تقع أحياناً على حجر كيرونموى. وبدون إرادة تقريباً، كانت تتمنى أن تصبح هذه الظلال حقيقية. وتتخيل جمال أن يتحول أحد الظلال إلى لحم ودم يمكنه أن يريح رأسه على حجرها. لكن رغبة كيرونموى الجسدية لم تكن تدوم طويلاً، وسرعان ما كان يعتاد جسدها الحرمان.

الحياة لم تتوقف عند أى نقطة وواصلت التحرك، وبينما العمر يمر بها، كان يتلاشى حنينها السابق. لقد مرت إحدى وعشرون سنة ولم تعد تشعر بالحرمان الكثير. أحياناً تفكر: ماذا لو كنت ذهبت مع رجل آخر وتبين أنه عاجز أيضاً؟ أو حتى إذا كان عاشقاً جيداً، هل سيكون لديه قلب كبير وطيب مثل سودهاموى؟ عرفت كيرونموى أن سودهاموى يحبها جداً. شعرت بذلك بطرق عديدة، وملأها هذا بالإحساس أنها بخير. لايأكل أبداً بدونها، ودائماً مايضع الجزء الأكبر من السمك فى طبقها، وإذا حدث أن غابت الخادمة (قبل أن تتدهور حالتهم المادية) كان يعرض عليها المساعدة فى الغسيل وتنظيف البيت بوجه عام. فى الأمسيات عندما تجلس وحدها وتبدو وحيدة كان يقترح عليها أن يصفف لها ضفائرها، أو يطلب منها الذهاب إلى السوق وشراء زوج من السارى أو يقول لها:

- لو كان عندى مايكفى من المال ياكيرو لاشتريت لك منزلاً أكبر. ولكان بإمكانك أن تسيرى حافية فى الفناء والحديقة المزروعة بكل أنواع الفواكه والخضروات والزهور. فى الحقيقة منزل براهما بالى كان يناسبك للغاية، ولكنك تعرفين المشكلة.. المال لم يكن مهماً عندى ولاهدفى. لم يكن يبدو أننى لاأستطيع كسب المال. أبوك اطمأن على موقفى المالى وحكم على ذلك من بيتى. الآن لم يعد لدى بيت ولاثروة. أعلم أننا نعيش فترة صعبة الآن. يمكننى أن أنجح ولكنى متأكد أنك تعانين ياكيرون.

كانت كيرونموى تفهم من هذا كله، وغيره، أن هذه الروح البسيطة المستقيمة تحبها بإخلاص وصدق. إذا كان على المرء أن يخسر بعض متع الحياة الصغيرة، أو حتى بعض المتع الكبيرة ويحظى فى المقابل بحب شخص مثل هذا، فالاختيار لن يكون صعبا. بالتأكيد منذ كان عمرها ثمانية وعشرين عاماً لم تتحقق بعض رغباتها ولكن

فى أعماق قلبها روحها كان يتقلب ويتحرك كل هذا الحب غاسلاً فى طريقه جراح الجسد فى كل مرة تظهر فيها.

تحولت أفكارها إلى ابنها. أعطاها سورنچان بعض المال. لقد إقترضه بالتأكيد، ربما لأنه شعر بأنه غير نافع، ولكنها لم تعط ظهرها للحائط بعد، ولاتزال تستطيع الاستمرار ببعض المال المتبقى معها، كما أنه لايزال لديها بعض الحلى الذهبية. لذلك أعادت المال إلى سورنچان دون أن تدرك كم يمكن أن يؤذيه هذا، ولذلك حملقت فيه بدهشة عندما دخل حجرتها وسألها غاضباً:

- هل تعتقدين أننى سرقت هذا المال؟ أم تخجلين من أخذ نقود من شخص عديم الجدوى وعاطل! أعلم أننى لاأستطع أن أفعل شيئاً لك.. ولكننى أتمنى لو أننى إستطعت. ألا يمكنك أن تفهمى هذا؟

كلماته طعنت قلبها ولم تنطق بكلمة.

**

طرق سورنچان باب راتنا. فتحت بنفسها ولم تبدُ عليها الدهشة من رؤيته. وكأنها كانت تتوقع مجيئه، أخذته مباشرة إلى غرفتها. كانت ترتدى سارياً بسيطاً من القطن وراح يتأمل جمالها. تركته وذهبت لإعداد الشاى. كل مانطقت به هو «كيف حالك»؟ ولم يكن هو الآخر أكثر منها تحدثاً. خانته الكلمات لأنه أدرك أنه جاء ليحب إنسانة أخرى بعد بارفين. لأول مرة منذ أيام حلق لحيته وارتدى قميصاً نظيفاً ووضع بعض الكولونيا أيضاً.

والدا راتنا كانا عجوزين جدا. لها أخ متزوج ولديه أطفال. هؤلاء الأطفال الذين لم تقدمه لهم، كانوا فضوليين جداً بشأنه، وظلوا متعلقين بالقرب من الباب يصفرون كل فترة. نادى سورنچان الطفلة ذات السبع سنوات وسألها عن اسمها، فقالت بسعادة:

- مرتيكا.

- ياله من اسم جميل. هل تقربين لراتنا؟

- إنها عمتى.

- أوه .

- هل تعمل فى مكتب عمتى؟

- لاأعمل، أنا أتسكع فقط .

بشكل ما، بدا أن مرتيكا أعجبها تعبير «أتسكع» وكانت على وشك مواصلة الحديث عندما دخلت راتنا الغرفة بصينية عليها الشاى والبسكويت والحمص الساخن ونوعان من الحلوى. قال سورنچان:

- ويقولون أن الهندوس لايجدون طعاما فى بيوتهم هذه الأيام لأنهم لايستطيعون الخروج. ولكن يبدو أن هذا لاينطبق على بيتكم. يمكنك أن تفتحى محلاً بكل هذا الطعام! إذن متى عدت من سيلهيت؟

- لم أكن فى سيلهيت. وإنما فى هابيجونج وسونا مجونى ومولفى بازار. وأمام عينى فى هابيجونج أحرقوا ثلاثة معابد.

- من قام بذلك؟

- من غيرهم؟ المسلمون الذين يرتدون الطواقى ويطلقون اللحى. بعد أن دمروا معبد كالى فى السوق الرئيسى نهبوا عيادة أحد أقاربى، الدكتور تابان، ودمروها، فى الثامن من ديسمبر دمروا معبدين فى سونامجونى، وفى التاسع نهبوا أربعة معابد وخمسين محلاً ثم أحرقوها تماماً. فى مولفى بازار دمروا ستة معابد و فى براهمان بازار نهبوا سبعة محلات.

- لابد أنها كانت محلات هندوسية .

لم تستطع راتنا منع نفسها من الضحك وهى تقول:

- بالطبع .

مدت الشاى والحمص الساخن إليه وقالت:

- هل تعتقد أنه من الممكن البقاء فى هذا البلد؟

- ولم لا؟ هل هذا البلد من ممتلكات المسلمين؟

ابتسمت راتنا، ومسحت لمسة من الحزن ابتسامتها.

– إنهم يبيعون بيوتهم وممتلكاتهم بأرخص الأسعار فى بهولا، هذا إذا استطاعوا أن يبيعوها أصلاً.

– من يعيش فى بهولا؟ الهندوس؟

– بدون شك .

تناول سورنچان بعض الحمص وقال:

– إذن لماذا لاتقولين هذا؟

كان يعلم أنها لاتحتاج إلى هجاء . حقيقة أن من يتعرضون لهذه المعاناة هم الهندوس. مع ذلك أصر على أن تقول أن «الهندوس» هم الذين يطردون. ومهما كان مافهمته راتنا من سلوكه، فإنها لم تفعل شيئاً سوى التحديق فيه وهو يأكل. عقل سورنچان كان مركزا على شيء واحد فقط هو أنه أصبح مستعداً ذهنيا اليوم أن يقول لها بدون تردد: «أحبك كثيرا. وإذا كنت تهتمين بذلك يسعدنى أن أتزوجك».

عندما نهضت راتنا لإحضار كوب من الماء لمست يده حافة ساريها أثناء مرورها أمامه. ارتعش من اللمسة وفكر أن زواجه منها سيكون شيئاً جميلاً. إنه لايريد أن يتزوجها لكى يرسخ حياته الضائعة وإنما لعلمه بأنه سيسعد معها. ولكن ماذا عنها؟ ماالذى يختبيء فى أعماق عينيها؟ شعر سورنچان ببعض الإحباط من أنه لايعلم السبب. قال لها:

– جئت لأرى إن كنت «سليمة» .

– «سليمة»؟ الكلمة لها معنى واحد لدى الرجال ومعنى مختلف عند النساء. ماالذى جئت لتراه فعلاً؟

– الاثنين ..

ضحكت راتنا وخفضت رأسها. لم يكن هناك بريق يتلألأ فيها عندما ابتسمت، ولكنه وجد متعة فى مراقبتها. ودون أن يرفع عينيه عنها تساءل إذا ماكان كبيرا فى السن بالنسبة لها؟ هل هو غير مناسب للزواج بالمرة؟ بينما تدور هذه الأفكار فى رأسه لاحظ أن راتنا عادت تحدق فيه من جديد. بدا أن هناك نظرة من الافتتان فى عينيها. سألته بابتسامة:

– ألا تزال مصراً على قرارك بعدم الزواج؟

فكر سورنچان بعض الوقت قبل أن يجيب:

– الحياة مثل النهر، هل تعرفين؟ النهر لايتوقف عن التدفق عند أى نقطة؟ القرارات أيضاً تتغير، إنها لاتبقى بدون تغير طوال الوقت.

استمعت إليه راتنا. وعندما نهض ليرحل، ضحكت بجمال وقالت:

– الحمد لله!

بإعتبار مايتعرض له الهندوس، والموقف العام، بدا أنه من غير اللائق قليلاً أن يسمع كلمات «الحمد لله»، ولكن سورنچان لم يتضايق. لم يحتج أن يسألها عما تعنيه لأنه عرف بالضبط ماالذى دفعها إلى إبداء تلك الملاحظة.أمدته راتنا بنوع من السعادة النقية الخالصة وأراد أن يمسك بأصابعها النحيلة الصغيرة بين أصابعه ويقول: «هيا، لنذهب إلى الغابة، حيث نستطيع أن نستلقى معاً، تحت حماية القمر.. وسنطلب منه ألا يخفى ضوءه..» كما أراد أن يقول: «فلنغير هذه الأفكار المتخشبة والقرارات القديمة ونصنع شيئاً معا». لكنه لم يستطع أن يقول أى شىء من هذا ومرت اللحظة. نظرت إليه راتنا، وهو ينزل السلم وقالت:

– أرجوك عد للزيارة فقد شعرنا الآن بالاطمئنان أن هناك من يقف بجوارنا. وأننا لسنا وحدنا..

شعر سورنچان مجدداً بحيوية الربيع التى أيقظتها فى قلبه ذات مرة العصفورة الصغيرة البهيجة بارفين. ورأى أنه فى طريقه للتحليق فى سماء السعادة التى فتحتها له بارفين مرة أخرى.

اليـــــوم الســـــادس

لاچـــــا

التقط سورنچان الجرائد مع كوب شاى الصباح. شعر باسترخاء اليوم بعد أن قضى ليلة من النوم الهادئ. بعد تصفح الجرائد نادى أخته قائلاً:

– ماذا بك يا مايا ؟ لماذا تبدين كئيبة هكذا طوال الوقت ؟

– لا شئ بى.. أنت الذى تتصرف بغرابة. إنك حتى لم تجلس بجوار أبينا ولو مرة.

– لا أستطيع مواجهة هذه المواقف. لا أستطيع أن أرى رجلا أعتاد أن يكون وافر القوة والعافية راقدا هكذا مثل الخشبة! والأسوأ أن أراكما تجلسان هناك تبكيان. بالمناسبة، لماذا أعادت لى أمنا النقود التى أعطيتها لها؟ هل لديها الكثير من المال؟

– لقد باعت أساورها الذهبية.

– حسنا، هذا شئ جيد فأنا لا أحب الحلى إطلاقا .

– لاتحبها؟ اذن لماذا أهديت بارفين خاتما من اللؤلؤ؟

– كنت ساذجا وغير ناضج وقتها، ولا أتمتع بكثير من الذكاء إذا أردت الحق..

سألته مايا بابتسامة:

– هل نضجت الآن؟

أسعدت الابتسامة سورنجان، فقد مر وقت طويل لم ير فيه ابتسامة أخته. وحتى يطيل من ابتسامتها فرد أمامها الصفحة الأولى من الجريدة وقال:

- انظرى. إننا نعيش فى بلد يحيا فيه الناس من مختلف الطوائف فى وئام، كفوا عن الطائفية وعاقبوا الذين ارتكبوا أعمال الشغب الجماعية من قتل ونهب وسرقة.. هذه هى الرسالة العاجلة «لوفد سلام كل الأحزاب». فى الهند هدأت أعمال العنف. أعلنت المحكمة العليا عدم قانونية احتلال أراضى مسجد بابرى بالقوة. وأعلن ناراشمها راو أن هدم المسجد هو بالكامل من عمل الحكومة المحلية لولاية أتار باريشار وأن الحكومة المركزية ليست مسئولة بأى شكل من الأشكال. ولايات غرب البنغال وجوجارات وماهارا شترا لاتزال تحت حماية الجيش. قوى اليسار أعلنت الحرب الشاملة ضد الطائفية. اليوم يعقد اجتماع فى بالتان دعا إليه الحزب المركزى البنغالى. حزب « رابطة عوامى» أعلن عن تشكيل فريق سلام للحفاظ على الوئام الطائفى. لجنة التنسيق بين المدن طالبت بالقبض على المسئولين عن إثارة حوادث الشغب. لجنة محو الطائفية دعت لاجتماع آخر. مسيرة سلام كل الأحزاب تعقد فى تونجى. كتلة الثقافات المتعددة رفعت شعار «بنجلاديش ستنتصر على الطائفية بالتأكيد». خمسون شخصية بارزة أعلنوا أن كل المواطنين يتحملون مسئولية الحفاظ على الوحدة الوطنية. الكولونيل أكبر أعلن أنه لابد من اجتثاث جذور الجماعات الفاشية. فى باريسال تشكلت لجنة من مختلف الطوائف. اتحاد مدرسى جامعة دكا أعلن أن انهيار الوئام الطائفى من شأنه أن يدنس حرمة «شهر النصر» القادم. قبض على ٢٨ شخصا فى دهاموى بتهمة نهب المعابد. جيوتى باسو حاكم غرب البنغال قال إنه يشعر بحزن عميق لأن الهند فقدت احترامها فى نظر العالم.

- أنت تقرأ الأخبار الجيدة فقط.

عارضته مايا وهى تجلس على الفراش تضع ساقاً فوق أخرى وأخذت الصحيفة منه وقالت :

- ماذا عن بقية الأخبار. عشرة آلاف أسرة تعرضت للتشريد فى بهولا. حرق

٧٠٠ منزل فى شيتاجونج. تدمير المعابد فى كيشور جونى. حرق ٧٠٠ منزل فى ميرسارى.

قال سورنچان بحزم:

– لن أستمع إلى أية أخبار سيئة اليوم، لأننى فى مزاج رائق .

– لماذا؟ لأن بارفين ستطلق ؟ لقد جاءت بالأمس . قالت أن زوجها كان يضربها كل ليلة.

– ثم ماذا؟ لقد كانوا مقتنعين بأنها لن تكون سعيدة إلا مع زوج مسلم. مزاجى لاعلاقة له بارفين. هذه المرة ليس فيها مسلمون.. حتى لا نطالب عندما نقرر الزواج بتغيير ديننا.

ضحكت مايا من قلبها. مر وقت طويل لم يسمع فيه هذه الضحكة الجميلة! فجاة قال سورنچان بجدية:

– كيف حال بابا الآن؟ ألن ينهض قريباً؟

– إنه أحسن نسبيا. يمكنه الكلام جيدا الآن. ويمكنه الذهاب إلى الحمام مع المساعدة. كما بدأ فى تناول الطعام المهروس. بالمناسبة بلال بهاى أتى ليلة أمس ليسأل عنك والتقى بأبى. وقال إنه لا يجب أن تخرج من البيت هذه الأيام لأن هناك خطورة كبيرة فى هذا.

قفز سورنچان فجأة.. اعتقدت مايا أنها تعرف سبب تعجله وقالت :

– هل ستذهب إلى مكان ما ؟

– وهل أنا من النوع الذى يبقى فى البيت ؟

– ماما ستقلق جدا إذا خرجت. دادا ، أرجوك لا تخرج. أنا أيضا قلقة وخائفة.

– لابد أن أعيد المال إلى بولوك؟ هل معك بعض النقود؟ أنت تعملين ، فأعطنى بعض النقود من أجل السجائر.

- لا ، لن أعطيك نقودا من أجل السجائر. لا أريد لك أن تموت صغيراً .

وهى تقول ذلك ذهبت مايا وأحضرت مائة تاكا. نظر سورنچان إلى أخته بإعجاب وتذكر حادثة قديمة جرت منذ سنوات طويلة. كانت مايا صغيرة جدا عندئذ وقد انهارت عندما غاظتها بعض فتيات المدرسة قائلات : «يا هندوسية، ياهندوسية.. الهندوس يأكلون رأس البقرة» وعندما عادت سألت سورنچان :

- هل أنا هندوسية يادادا؟

- نعم.

- لا أريد أن أكون هندوسية بعد اليوم. إنهم يضايقوننى بسبب ذلك .

سودهاموى ، الذى سمع حوارهما قال :

- من قال إنك هندوسية ؟ أنت إنسانة. ليس هناك أرقى من هذا.

فى هذه اللحظة دق قلب سورنچان إحتراماً لأبيه . لقد تعامل مع رجال كثيرين، ولكن لا أحد منهم كان فى نبل وصبر وفهم وتسامح أبيه.

**

فى ١٩٦٤ تدخل سودهاموى لإيقاف فتنة لم تنتشر لحسن الحظ بسبب تدخل الشيخ مجيب. كانت من تدبير حكومة أيوب خان لكى تعطيها مبرراً لمنع ازدهار الحركات المعارضة لها. إدعت الحكومة أن أحداث العنف كانت ضدها وقاضت الطلبة والزعماء السياسيين ومنهم سودهاموى. لم يكن سودهاموى من النوع الذى يغرق فى النوستالچيا. ولكن بلا إرادة منه تقريبا كان الماضى يعود إليه متقطعا، ويؤدى به إلى الحزن. تكريس حياته لخدمة البلد ورفاهيته ومستقبله.. إلى أين أدى كل هذا؟ منذ ١٩٧٥ والعناصر الأصولية تتولى إدارة البلد باءزدياد. الناس يدركون هذا ولكن لا أحد يريد أن يقوم بأى رد فعل. أليس لدى هذا الجيل إحساس بالقيم؟ أين ذهبت روح الماضى؟ الروح التى ألهبت الشباب ١٩٥٢ للخروج فى مظاهرات جماعية من أجل جعل البنغالية اللغة القومية؟ وتعرض الشباب لمذبحة جماعية

بسبب قضيتهم. أين أمثال هؤلاء الشباب الذين ضحوا بحياتهم فى انتفاضة ١٩٦٩؟ أين الثلاثة ملايين وطنى الذين خرجوا ١٩٧١؟ من ورث شجاعتهم وإحساسهم بالرسالة؟ أين هذا الحماس والإثارة التى دفعت سودهاموى داخل الحركة الشعبية؟ لماذا يبدو جلد شباب اليوم بارداً مثل جلد الثعبان؟ ولماذا تنتشر الطائفية هكذا فى بلد علمانى؟ كأن أحداً لا يدرك أية مرحلة خطيرة تتهدد البلد؟ أستولت هذه الأفكار على سودهاموى. حاول أن ينهض من فراشه ولكنه فشل. الألم والفشل اللذان يعانى منهما أنطبعا على وجهه المتعب.

وزير الحقوق فى حكومة حزب رابطة عوامى حرك فى البرلمان «قانون ملكية العدو» الذى وضعه أيوب خان وحظى بكراهية شديدة تحت اسم مختلف هو «قانون الملكية المكتسبة». تحت نظام الحكم القديم كانت ممتلكات الهندوس الذين يغادرون البلد يتم إعلانها «ملكية عدو» ويستولى عليها. بكلمات أخرى، هل أعمام سودهاموى أعداء للوطن؟ كان لديهم الكثير من الممتلكات والأراضى الشاسعة. اليوم يعيش سودهاموى فى منزل مظلم رطب فى تيكاتولى، وعلى بعد خطوات منه منزل ضخم كان ملك أحد أعمامه ذات يوم ولكن الحكومة استولت عليه وفقاً لقانون «الملكية المكتسبة» الذى خلف قانون «ملكية العدو». لو أن هذا القانون صدر لصالح أقرب الورثة الأحياء لمن يهاجرون، لخفت معاناة الهندوس الباقين بشكل كبير. وقد اقترح هذا على عدد من أصحاب المناصب الرفيعة والهامة دون جدوى. وكان هذا فشلاً آخر من خيبات حياته. اليوم وهو محكوم عليه بأن يعيش نصف مشلول، لم يجد سببا للاستمرار فى الحياة، وفكر فى أنه لو مات فى سريره لما تأثر أحد بذلك بكل تأكيد. على العكس، ستستريح كيرونموى من سهر الليالى والمعاناة المتواصلة. ومرة أخرى لم يستطع منع نفسه من التفكير فى فشل الحكومة فى حماية المواطنين الهندوس. دستور البلد يكفل نفس الحماية ويضمن نفس الحقوق لكل مواطنيه ولكن قانون «ملكية العدو» يعد انتهاكاً واضحاً للدستور، وعلامة على عدم احترام الشخصية المستقلة للبلد واستقلاله. فكر سودهاموى فى نياز حسين وفازلول علام وأنور أحمد وكثيرين غيرهم رحلوا الى الولايات المتحدة أو بريطانيا مع

عائلاتهم وتركوا وراءهم أقارب بعيدين أو مستأجرين لأراضيهم. ولم تعتبر ممتلكاتهم «ملكية أعداء» على الإطلاق. وهو يفكر فى هذا الظلم حاول سودهاموى القيام من سريره. تفصد جسده بالعرق. لا أحد فى البيت. أين ذهبت مايا وكيرونموى وسورنچان .

**

تمشى سورنچان فى شوارع دكا القديمة .لا يزال يتذكر ميمنسنج جيدا، بالرغم من أنه يعيش فى دكا منذ سنوات طويلة. لقد ولد فيها وقضى طفولته وشبابه. عندما وضع قدميه فى مياه نهر بوريجانجا فى دكا، سرحت أفكاره مع نهر براهما بوترا فى ميمنسنج. إذا أراد المرء أن ينكر حقيقة ميلاده، يمكنه فقط أن ينكر مكان ميلاده، أو النهر الذى يجرى فى مكان ميلاده. عائلة جوتام ستترك البلد وترحل. بدأوا يشعرون أن البلد لم يعد مكانا آمنا يمكن العيش فيه. إذا كان هذا هو شعورهم، فلماذا يبكون كثيرا قبل رحيلهم؟ منذ خمس سنوات جاء خال سورنچان الذى يعيش فى كالكتا لزيارتهم، إنهار وبكى مثل طفل. وسألت كيرونموى سورنچان ما إذا كان يريد الذهاب إلى كالكتا مع خاله لكنه رفض الفكرة تماما. منذ حوالى خمس أو ست سنوات ذهب سورنچان إلى ميمنسنج لحضور حفل عمل. جلس بجوار نافذة القطار وتطلع إلى حقول الأرز الخضراء الزاهية وصفوف الأشجار، والأكواخ الطينية، وأكوام القش والأطفال الذين يلهون شبه عرايا فى البرك الصغيرة ويحاولون صيد الأسماك بشبكاتهم البدائية والفلاحين الأبرياء الذين يلتفتون فى كل مرة يمر فيها القطار بجوارهم. سيطرت المشاهد على سورنچان وشعر أنه دخل لب قلب هذا البلد. الشاعر جيربا ناندا داس تأثر بهذا الجمال لدرجة أنه رفض أن يذهب لمشاهدة أجمل الأماكن الطبيعية فى أى مكان آخر بالعالم. لكن حماس سورنچان خفت عندما لاحظ أن محطة راملا كشمانبور تغير إسمها إلى أحمد بارى. وكان إسم محطة كالى بازار قد تغير إلى فاطيمة ناجار وكريشنا ناجار تحولت إلى عليان ناجار. كل البلد تم أسلمته والآن لا يمكنهم حتى إنقاذ محطات السكة الحديد الصغيرة فى ميمنسنج!

وأدرك السبب الذى جعل إسم كلية باريسال بروجو موهون يختصر إلى كلية ب. م.وجعل إسم كلية موراى شاند يختصر إلى كلية م. ش. ذلك أن الناس تحت اى ظرف لا يريدون أن ينطقوا إسماً هندوسيا.

فى دكا القديمة لاحظ سورنچان أن محلات الهندوس لا تزال مغلقة. كيف يفتحوا محلاتهم؟ ومن يؤكد لهم أنه ليس هناك داع للخوف؟ لقد أعادوا فتحها بعد أحداث عنف ١٩٩٠، وتكررت الأحداث فى ١٩٩٢، ربما لأن جلد الهندوس سميك على ما يبدو. لهذا تمكنوا من إعادة بناء بيوتهم محلاتهم المنهوبة والمحطمة. على الأقل يمكن بناء البيوت والمحلات بالرمل والطوب والملاط، ولكن ماذا يستخدمون لجبر قلوبهم المحطمة؟

عاد عقله إلى حوادث ١٩٩٠ الفظيعة. عشرات من دور العبادة والبيوت والمحلات الهندوسية نهبت وأحرقت ودمرت، شاهد بعضها بعينيه وسمع عن بعضها الآخر . ظل سائراً دون هدف لبعض الوقت لا يعلم إلى أين يذهب.

مايا أعطته مائة تاكا. لا يريد إنفاقها. فكر فى عدد المرات التى اشترى فيها علب سجائر «بانجلا فايف» ولكن السجائر لا تدوم.. فما الفائدة ؟ ليس لديه ضعف نحو المال.. عندما كان يعطيه سودهاموى نقوداً لتفصيل قمصان وبنطلونات كان ينفقها على الأصدقاء. اذا أراد أحدهم أن يهرب ويتزوج فإن سورنچان يمده بالمال. ذات مرة أنفق المال المخصص لرسوم إمتحاناته على ولد إسمه رحمات. أم الولد كانت فى المستشفى وليس هناك من يدفع ثمن علاجها.

فكر فى الذهاب إلى راتنا. ثم واصل المشى بلا هدف. عندما ترك المنزل شعر بأن هناك أشياء عديدة سيفعلها. المدينة من حوله تمتلئ بأناس يمشون كل الى طريقه نحو هدفه. هو وحده ليس مشغولا بشئ، وليس لديه ما يفعله. فى مدينة الرعب والفزع هذه .أراد أن يجلس فى مكان ما ويتحدث إلى شخص ما. هل يذهب إلى دولال أم إلى ما هديف - دا؟ ربما يذهب الى كاچال ديبناث. لماذا يفكر فى الهندوس فقط؟

بالأمس أتى بلال لزيارته، ويمكنه أن يرد الزيارة بالتأكيد؟ أول أمس زاره حيدر، ولن تكون فكرة سيئة أن يزوره أيضاً. ولكن هناك عائق أساسى يمنعه من زيارتهم وهو إحتمال مناقشة قضية مسجد بابرى وما يحدث فى الهند وعدد الموتى، وما يقوله زعماء حزب بهارتيا چاناتا والمدن التى نزل فيها الجيش بقواته، والذين قبض عليهم والأحزاب التى حظرت. سورنچان كان متعباً من كل هذا. بهارتيا چاناتا فى الهند هو الجماعة الاسلامية فى بنجلاديش. الهدف واحد وهو تأسيس ما يمكن أن يسمى بالأصولية. لو أن من الممكن فقط حذف الدين من جدول الأعمال السياسى فى كلا البلدين!

الدين يفرض نفسه بقوة على المناخ الاجتماعى. ومن الصعب جدا على شعوب العالم الثالث الفقيرة والضعيفة والمعذبة أن تهرب من قبضته الحديدية. تذكر أحد أقوال كارل ماركس المفضلة لديه : «إن المشاكل التى تتعلق بالدين هى فى الحقيقة تجلٍ لأوجه النقص العملية وإعتراض عليها أيضاً. الدين هو تنهيدة المعذب و المضطهد، قلب هذا العالم الذى لا قلب له، وروح المجتمع الذى لا روح فيه. الدين هو أفيون الشعوب.».

ردد سورنچان هذه الكلمات لنفسه أثناء سيره فى شوارع المدينة المزدحمة. تمشى حتى ما بعد الظهر وفى النهاية وصل إلى منزل كاچال. مثل كل الهندوس هذه الأيام كان فى بيته. وكان هناك آخرون.

– ما الحكاية ؟ انه اجتماع هندوسى تماما كما أرى.

لم يضحك أحد على تعليق سورنچان، هو وحده ضحك ، ثم سأل:

– ما الأمر؟ لماذا يعبس الجميع هكذا؟ لأن الهندوس يضربون؟

قاطعه سوبهاس:

– هل هناك شئ يدعو للسعادة؟

كاچال ديبنات كان عضوا فى جمعية وحدة الهندوس والبوذيين والمسيحيين. لم

يؤيد سورنچان الجمعية لانها بدت له ذات نكهة طائفية. لو وقف بجانب أى من هذه الجمعيات، فلن يكون هناك معنى لمناداته بتحرير السياسة من الدين. كانت وجهة نظر كاچال أنه بعد ٤٠ سنة من الآمال والتطلعات، تأسست الجمعية كخندق حماية أخير للحفاظ على إحترامهم لأنفسهم واستقلالهم.

- هل اعترفت خالدة ابداً بأن الطائفية تغزو هذا البلد؟

عندما أثار أحد الحاضرين هذا السؤال أجابه شخص آخر:

- وما الذى فعله «رابطة عوامى» بهذا الخصوص؟ إنهم يعطون أعذارا ويحاولون تفسير الموقف، لكن هذا هو ما تفعله الجماعة الاسلامية أيضاً.. عندما فازت رابطة عوامى بالحكومة فى الانتخابات الأخيرة اثاروا وعدا زائفا بأن كلمة «بسم الله» سوف تحذف من الدستور. الآن بعد أن فقدوا السلطة رأوا أنهم بمعارضتهم للتعديل الثامن سوف يخسروا شعبيتهم. هل ساسة رابطة عوامى يريدون مجرد الفوز بالانتخابات أم أنهم يريدون أن يكونوا أصحاب مبادئ؟ لوأن المبادئ تعنى لهم شيئاً، فلماذا لا يقولون شيئا ضد التعديل الثامن؟

قال سيدالرحمن مدافعاً عن «رابطة عوامى»:

- ربما يعتقدون أن من العملى أن يسعوا إلى السلطة أولاً ، ثم يقومون بالإصلاح بعد ذلك.

قال كاچال:

- لا يمكن أن تثق بأحد . أى شخص سيصل إلى السلطة سوف يمتدح الإسلام وفى الوقت نفسه ينتقد الهند بقدر الإمكان. الناس هنا مغرمون بشيئين : انتقاد الهند ومعارضتها وامتداح الإسلام.

- ولكن يا كاچال. دا ، ألا تعتقد أن من الأفضل ان تشكل جماعة غير طائفية أفضل من هذه الجمعية؟ ولماذا لا يكون سيدالرحمن عضوا فيها؟

- غياب سيدالرحمن ليس بسببنا، ولكن بسبب هؤلاء الذين اخترعوا فكرة الدين

القومى. من قبل لم يكن لدينا سبب لتشكيل هذه الجمعية. لماذا شكلناها الآن؟ ببساطة لأن بنجلاديش لم توجد من تلقاء نفسها. ولكن بفضل الجهود المشتركة للهندوس والمسلمين والبوذيين والمسيحيين. أن نعلن أن دينا بعينه هو الدين القومى هو نوع من التمييز الطائفى ضد أصحاب الديانات الأخرى. حب المرء لبلده لا يختلف فى الدرجة من شخص إلى آخر أو من طائفة إلى أخرى. إنه شعور عالمى. ولكن عندما تجد مجموعة من الناس أن دينها يعتبر من الدرجة الثانية، أو الثالثة لأنهم لا ينتمون إلى الدين القومى، وعندما يكونون مصنفين أيضا كمواطنين من الدرجة الثانية، فإن كرامتهم تجرح بشدة. فهل يمكن أن تلومهم بعد ذلك إذا تحولت قوميتهم إلى طائفية؟

بما أن السؤال كان موجهاً إلى سورنچان فقد أجاب مضطراً بصوت خفيض:

- ولكن فى دولة حديثة كيف يمكن أن تبرر وجود هذه الجمعية الطائفية؟

أجاب جاتين شاكر فارتى بسرعة:

- من المسئول عن هذا الإحساس بالطائفية بين الأقليات؟

استمر الحديث عن الأصولية والعلمانية ومظاهر التمييز بين المسلمين والهندوس فى مختلف المجالات فى بنجلاديش. تمدد سورنجان على السجادة بجانب كاچال وقد أنهكه الجوع والتعب. سمع سوبهاس يتحدث عن الاقتراحات التى تقدم بها إلى الحكومة لتعويض الهندوس عن ديارهم ومعابدهم، فقاطعه قائلاً:

- هذه الحكومة لن تقبل اقتراحا واحدا من اقتراحاتك

وأكد كبير شودهرى على كلامه:

- أتفق معك أن وزير الإسكان غير جدير بمنصبه وخائن

قال سيدالرحمن :

- من المرعب أن يكون هؤلاء الخونة فى الحكم الآن. لقد غفر لهم الشيخ مجيب ومنحهم ضياءالرحمن السلطة واستثمرهم إرشاد فى سلطات أوسع، ووصلت

خالدة إلى السلطة بدعم منهم.

تاباس بال الذى كان ينتظر دوره فى الكلام صابرا انتهز الفرصة ليندفع فى سرد قائمة طويلة من حوادث العنف الجديدة ضد معابد وبيوت ومدارس الهندوس.

وعندما بدا أنه لا نهاية لقائمته قاطعه سورنچان:

- أرجوك بحق الله توقف. بدلاً من هذا لماذا لا تغنى لنا أغنية؟

اصيب الجميع بصدمة بالغة. حاول تاباس بال ان يتكلم مجدداً، موضحاً لسورنچان خطورة ما يحدث، الا أنه قاطعه مرة أخرى مغيراً الموضوع:

- كاچال – دا، أنا جوعان جداً. هل يمكن أن تقدم لى بعض الأرز؟

- أرز فى هذه الساعة ! ماذا أصاب سورنچان؟

استمر تبادل أخبار العنف. سورنچان شبه النائم كان يستمع الى شذرات متفرقة عن الممتلكات التى يستولى عليها والنساء اللواتى يغتصبن. فجأة نادى أحدهم عليه:

- اصح يا سورنچان اصح، الأكل وصل

لابد أن كاچال – دا هو الذى ناداه. هكذا كانت تناديه مايا دائماً : «دادا، تعال، الأرز جاهز ، هيا..». فكر سورنچان بشكل ضبابى : لابد أن يشترى بعض الحبوب المنومة الليلة بالنقود التى أعطتها له مايا. يشعر أنه لم ينم منذ وقت طويل. بق الفراش يبدأ فى القرص بمجرد هبوط الظلام. سريره كان يمتلئ ببق الفراش. تذكر كيف كانت كيرونموى تنظف فراشه فى طفولته. عندما يعود سوف يطلب من مايا تنظيف الفراش. البق يعضه طول الليل، حتى فى رأسه. مجرد تذكر ذلك يجعل رأسه تتألم. شعر بالاعياء. عندئذ سمع أحدهم (ربما كان تاباس) يقول ان ثلاثين معبدا تعرضت للاعتداء بجوار مسكنه وكذلك كل البيوت المحيطة بها. وسرعان ما التقط الخيط شخص آخر ليسرد ما حدث فى منطقته.. لو يغلق سورنچان أذنيه بقطع من القطن! كل شئ حوله يتحور حول مسجد بابرى وحكايات الحرق والتدمير، لو أنه ينعم ببعض السلام والهدوء. ما أروع ان يستطيع الهروب إلى ميمنسنج حيث

الأضرار أقل بكثير! لو يستطيع أن يستحم فى مياه براهما بوترا لعل الشعور بإحتراف ظهره يخف بعض الشئ. وقف على قدميه. معظم الموجودين رحلوا. كان سورنچان على وشك الرحيل أيضا عندما قال كاچال - دا:

- الطعام على المائدة. ألن تأكل؟ كيف تنام فى هذه الساعة؟ هل أنت بخير؟

تمطى سورنچان وقال:

- لا يا كاچال - دا، لا أريد أن أكل. أنت على حق، أشعرأننى لست بخير.

- ماذا تعنى ؟

- لا أعنى شيئا، ولكن أخبرنى، ماذا أفعل؟ أحيانا أشعر أننى جوعان جداً، وقبل أن أكل يتلاشى إحساسى بالجوع. لابد أنها الحموضة. أشعر بالنعاس ولكننى لا أستطيع النوم.

وضع جاتين شاكرا فارتى يده على كتفى سورنچان وقال:

- أنت تنهار، تمالك نفسك. لن ندع ذلك يحدث لأى منا. فى النهاية لابد أن نستمر.

كان سورنچان واقفا منكس الرأس. كلمات جاتين - دا تبدو مثل نصائح سودهاموى. لقد مر وقت طويل لم يجلس فيه بجانب أبيه المريض. قرر أن يعود للبيت حالاً. هذا ما يحدث دائماً عندما يزور كاچال - دا. يكون هناك عدد كبير من الناس ومناقشات حامية فى السياسة والقضايا الأخرى حتى وقت متأخر من الليل. رحل دون أن يأكل. لابد أن وقتا طويلا قد مر على آخر مرة أكل فيها فى البيت. فكر فى أن يفعل ذلك اليوم بصحبة مايا وكيرونموى وسودهاموى. الحواجز تفصل بينه وبين بقية أفراد أسرته. وهو السبب. قرر أن يكسر الحواجز اليوم، أن يضحك ويتحدث مع الجميع ويشعر بالرضا والسعادة كما كان يشعر فى الصباح. لن يذهب إلى شخص آخر. لا إلى بولوك ولا راتنا. سوف يذهب مباشرة إلى تيكاتولى، يأكل أى شئ يتوفر ويسهر معهم ثم ينام بسلام. رافقه كاچال - دا حتى البوابة، وقال له بقلق:

- لا يجب أن تتنقل كثيرا. نحن لا نغامر بالخروج إلى أبعد من المنطقة المجاورة، وها أنت تجوب البلدة كلها وحدك.

لم يكن لدى سورنچان ما يقوله. بدأ السير بخطوات واسعة. معه ما يكفى لاستئجار عربة ريكشا، ولكن قلبه لم يطاوعه على إنفاق نقود مايا. أنه لم يدخن طوال اليوم، ولكن الآن فى نهاية اليوم، بالرغم من قلقه على النقود، إشتاق إلى التدخين. توقف عند أحد المحلات واشترى سيجارة «بانجلا فايف» وأشعلها. جعلته يشعر بأنه ملك. وصل إلى تقاطع كاكريل واستأجر عربة ريكشا. هذه الأيام، كما فكر، تنام المدينة مبكراً مثل رجل مريض. ما هى علة المدينة؟ وهو يفكر فى هذا، تذكر صديقا كان لديه «دمل» فى ظهره. وكان يصرخ من الألم طوال اليوم، لكنه لم يعالجه أبدا بسبب خوفه الشديد من العلاج، وخصوصا الحقن. هل المدينة مصابة «بدمل» فى ظهرها؟

فكر سورنچان بذلك، وهو يجلس فى الريكشا باءتجاه البيت.

**

سأل سودهاموى:

- مايا، ما حكاية سورنچان؟ هل تعلمين أين يمكن أن يكون فى هذه الساعة؟

- قال أنه سيذهب إلى بولوك - دا. لابد أنه هناك.

- هل هناك سبب يدعوه إلى البقاء فى الخارج حتى حلول الظلام؟

- لا أعلم.. ولا أفهم. المفروض أن يكون قد عاد.

- ألا يدرك أننا قد نقلق عليه وأنه يجب أن يعود إلى البيت فى وقت معقول..

حاولت مايا أن تهدئ سودهاموى:

- لا تزعج نفسك. لا ينبغى أن تتكلم كثيرا. إسترح فحسب، وبعد تناول الطعام

سوف اقرأ لك إذا أردت وفى العاشرة يجب أن تنام بعد أن تتناول أقراصك. عند ذلك الحين سيكون سورنچان قد عاد بالتأكيد، لا تقلق.

- أنت تمرضيننى وتعيدين لى صحتى قبل الأوان يا مايا. كنت أستطيع البقاء فى الفراش أياما أخرى. هناك عيوب فى أن يكون المرء بصحته أيضاً.

قالت مايا، وهي تجلس بجواره وتسحق الارز الخاص به:

- مثل ماذا؟

- انت تطعميننى، وأمك تدلك لى جسدى، وتضغط لى صدغىّ.. هل كنت سأحظى بهذا الحب والعناية لو كنت بصحتى؟ عندئذ كنت سأنشغل بمرضاى، والذهاب الى السوق، وربما الشجار معك..

ضحك سودهاموى عالياً، وتأملته ابنته بدهشة. هذه أول مرة يضحك فيها منذ مرضه.بعد ذلك بقليل، طلب من كيرونموى فتح نوافذ البيت:

- ليدخل بعض الهواء المنعش. لا أشعر بهواء الشتاء إطلاقاً. هل تعتقدين أننا لا نحب الهواء النقى سوى فى الربيع. عندما كنت صغيرا، كنت أجوب الشوارع لتعليق الملصقات على الحوائط فى برد الشتاء القارص، وأنا لا أرتدى سوى قميص خفيف جداً على ظهرى. فى كل المناطق الجبلية فى سوشونج دور جابور مع مونى سينج. هل قلت لك شيئا عن حركة تونك الشعبية وعصيان هاجونج فى تلك الفترة ياكيرونموى؟

ذهن كيرونموى كان أكثر إسترخاءً، قالت لزوجها :

- قلت لى الكثير عن هذا بعد زواجنا. إذا كنت أتذكر، فأنت قضيت ليلة مع مونى سينج فى بيت غريب فى نيتراكونا.

قال سودهاموى فجأة:

- كيرونموى.. هل ارتدى سورنچان ملابس ثقيلة؟

كشرت مايا بتهكم وقالت:

- بالطبع لا.. أنه أيضا يرتدي قميصا خفيفاً كما كنت تفعل. أنه ثورى «مودرن» فى النهاية! لا يتأثر برياح الطبيعة لأنه مشغول برياح التغيير!

قالت كيرونموى بغضب:

- السماء أعلم بأين يحوم طول اليوم حتى الآن.. ماذا يأكل.. ما الذى يأكله بالمرة.. إن إهماله يزداد كل يوم.

عندئذ سمعوا طرقة واحدة على الباب. هل عاد سورنچان؟ نهضت كيرونموى وذهبت لفتح الباب. هذه هى الطريقة التى يطرق بها سورنچان الباب، ولكنه عادة يذهب الى غرفته مباشرة عن طريق الباب الخاص به إذا كان الوقت متأخراً. بما أن الوقت غير متأخر جداً فلا بد أنه سورنچان. كانت مايا تخلط الدال بالأرز لإطعام سودهاموى. فكرت أنه إذا صنعت من الخليط كرات مستديرة ناعمة سيكون من الأسهل له ابتلاعها. منذ أن سقط مريضاً وهو يعيش على السوائل، وأخيرا سمح له الطبيب بتناول الطعام المهروس. أعدوا له سمكا خفيفا بالكارى مع الدال والأرز.

بينما كانت مايا تخلط السمك مع الأرز، سمعت الطرقة على الباب. إتجهت كيرونموى إلى الباب وسألت من الطارق، أرهف زوجها أذنيه ليسمع. كان هناك رد غير واضح. فتحت الباب. وفى ومضة إندفع سبعة رجال إلى الداخل، نحوا كيرونموى جانبا فى طريقهم. أربعة منهم مسلحين بالقضبان، ولكن كل شئ حدث بسرعة كبيرة لدرجة أنه كان من الصعب معرفة بقية ما يحملونه. كلهم فى حوالى الواحدة والعشرين من العمر. اثنان منهما يرتديان الطاقية والبيجاما والباقون يرتدون القمصان والبنطلونات. لم يضيعوا وقتاً، على الفور بدأوا فى تحطيم كل شئ فى الغرفة بطريقة مرتبة، وببرود. لم ينطق أحدهم بكلمة واحدة. الأصوات الوحيدة كانت تحطم الموائد والمقاعد وجهاز التليفزيون والمرايات الزجاجية وأرفف الكتب والمراوح.. وقماش الملابس التى تتمزق إلى قطع صغيرة. حاول سودهاموى المرعوب أن يجلس مستقيما، دون جدوى. صرخت ابنته: «بابا..». كيرونموى

المذهولة ظلت واقفة مكانها عند الباب المفتوح. وعندما اقتربوا من إنهاء مهمتهم، سحب أحدهم ساطوراً وقال مهدداً:

- يا أولاد الحرام ! هل تعتقدون أنكم ستفلتون بتدمير مسجد بابرى؟

بجنون ووحشية واصل الشبان تدمير ممتلكات آل دوتا. أفراد الأسرة العاجزة والصامتة راقبوا بيتهم وهو يتحول إلى خراب.. ثم إنفك سحر الصمت عنهم عندما أمسك أحد المعتدين بمايا. صرخت أمها فى رعب وتأوه سودهاموى المريض. فى محاولة يائسة للنجاة أمسكت مايا بيد السرير. جرت امها وألقت بنفسها فوق ابنتها، فى محاولة مستميتة لحمايتها. ولكن المعتدين القساة جروا كيرونموى من فوق إبنتها، وخلصوا قبضة مايا عن السرير ورحلوا بنفس السرعة التى جاءوا بها، حاملين معهم الجائزة التى فازوا بها. إستعادت كيرونموى نفسها وجرت وراءهم تصرخ وتتوسل:

- أرجوكم اتركوها، ارجوكم اتركوا ابنتى

فى الخارج عربتا ريكشا كانتا بإنتظارهم. يدا مايا لاتزالان ملطختين بالأرز والكارى، ملابسها مفتوحة مثل عيناها الجاحظتين بالهلع، وهى تصرخ نحو أمها:

- أمى.. أرجوك، أمى..

صارعت آسريها وهم يجرونها بعيداً ، وهى تنظر خلفها فى ألم ورعب ، تأمل ضد الألم أن تستطيع أمها انقاذها. حاولت كيرونموى بأقصى ما تستطيع، دون أى مبالاة بسلامتها الشخصية، ألقت بنفسها عليهم وتفادت الساطور اللامع الذى وجهوه إليها، وحاولت أن تمسك بمايا. ولكن الرجلين الممسكين بابنتها تفاديا هجوم كيرونموى وزجوا بمايا داخل إحدى العربتين. وبينما العربة تسرع، جرت كيرونموى خلفهم تصرخ وتنوح:

- انهم يخطفون إبنتى .. الحقونى

عند ناصية الشارع نفدت قوتها فتوقفت. شعرها وملابسها فى حالة مزرية. رأت موتى ميا أحد معارفها و ترجته :

- دادا، خطفوا مايا، ساعدنى أرجوك

نظر اليها الرجل مشدوهاً، كما فعل الجميع من حولها، كأنها شحاذة مجنونة تتسول الفضلات. إستجمعت كيرونموى ما بقى لديها من قوة، وجرت فى ظلام الليل، بدون جدوى، تطارد ابنتها التى اختفت..

فوجئ سورنچان بأن الباب الأمامى مفتوح على مصراعيه.وهو يخطو إلى الداخل صعق من الدمار الذى ملأ عينيه. المناضد مقلوبة، الكتب مبعثرة فى كل مكان. المراتب والملاءات ممزقة فوق السرائر، دولاب الملابس محطم والملابس مكومة. لهث سورنچان وهو يتنقل بين غرفة وأخرى. الزجاج يتكسر تحت قدميه. وجد أباه على الأرض يتأوه من الألم. مايا وكيرونموى ليسا هناك . خاف أن يسأل أبيه عما حدث فى غيابه. وهو يحاول صياغة الأسئلة وجد أن صوته يرتعش من الصدمة. قال أبوه بصوت بالغ الضعف:

- خطفوا مايا.

الصدمة تحولت إلى غضب وخوف.

- ماذا تعنى ؟ خطفها ؟ من أين ؟ متى؟

لم يستطع أبوه الرد وسرعان ما انهارت قواه. رفعه سورنچان وأرقده على السرير برقة. أنفاسه قصيرة لاهثة وجسده يتفصد بالعرق. همس سورنچان:

- أين مايا؟

وجه سودهاموى كان بالغ الشحوب. وبدا واضحاً أنه فى سبيله إلى الموت إذا لم ينقذه أحد. حيرة سورنچان كانت مرعبة. هل يبقى مع أبيه أم يذهب للبحث عن أخته؟ ارتعد من الخوف واليأس. طفت برأسه رؤية للبحر الثقيل الذى يهدد بإبتلاعه. وتبعتها رؤية الكلاب الضالة التى تتحلق حول قطة ضعيفة عاجزة. إتخذ قراره وتوجه إلى باب الخروج. قبل أن يرحل، ربت يد أبيه الفاقدة للإحساس وقال:

- سوف أعيد مايا مهما حدث يا أبى.

توجه إلى منزل حيدر. طرق الباب بقوة أحدثت جلبة شديدة حتى أن حيدر جاء بنفسه مسرعاً وفتح الباب. اندهش من رؤية سورنچان.

- ماذا هناك يا سورنچان ؟ ماذا حدث.

لم يستطع سورنچان أن يجيبه. كأن الألم واليأس اللذين يشعر بهما انتزعا منه القدرة على الكلام. اخيراً نجح فى أن يقول بصوت متكسر بالمشاعر:

- لقد خطفوا مايا.

- متى حدث هذا؟

لم يجب سورنچان. تجهم وجه حيدر. كان عائداً للتو من إجتماع للحزب، وعلى وشك تغيير ملابسه عندما آتى سورنچان. صدمه مشهد سورنچان، الذى بدا كإنسان ضاع منهِ كل شىء فى الإعصار. كان يمسك بالباب ولكن يديه بدأتا فى الإرتعاش حتى أنه كورهما فى قبضتين. وضع حيدر يده على كتفيه وقال فى محاولة لتهدئة صديقه:

- اهدأ، فلندخل ونفكر كيف سنتصرف

عندما لمس حيدر يد سورنچان إنهار وارتمى بذراعيه على حيدر باكياً :

- أعد مايا إلى البيت يا حيدر.. أرجوك أعد مايا..

بدأ عذابه واضحاً فى هذه الشهقات الهائلة التى تهز جسده. وأخيراً سقط عند قدمى حيدر الذى نظر إليه برعب. لم يتصور أبداً أن صديقه القوى الصلب فى هذه الحالة. أوقف سورنچان على قدميه وبالرغم من جوعه قرر تأجيل الأكل، وقال:

- هيا، لنذهب ونرى ما يمكن أن نفعله.

فوق دراجة حيدر البخارية انطلقا خلال حوارى وشوارع تيكاتولى. مر حيدر ببيوت صغيرة فقيرة وأخرى فاخرة، تحدث إلى عابر مثير للشبهات وتباحث مع

شاب حسن الطلعة. دخل مناطق قريبة لم يكن سورنچان يعرف حتى أنها موجودة، وفى النهاية لم يخرج بشئ. تركا تيكاتولى باتجاه «الطريق الانجليزى» وأخترقا شوارع كثيرة وأماكن عديدة، وكل جزء من المدينة اعتقد حيدر أنه يصلح كمكان للاختباء ولكن لم يعثرا على أثر لمايا. طرق حيدر أبواب بيوت كثيرة. تحدث وتحدث مع أناس لم يرهم سورنچان فى حياته.. ولا شئ.

فى كل مرة يتوقف فيها حيدر، كان الأمل يراود سورنچان.. أنه فى هذه المرة سوف يجدان مايا! لابد أنها مقيدة وربما يضربونها، ولكنه سيعثر عليها. ولكن ماذا لو لم يكتفوا بضربها وكانوا يفعلون شيئاً آخر؟ أرهف سورنچان أذنيه حتى يسمع بكاء مايا لو كانت قريبة. فجأة اثناء عبورهما سوق لاكشمى طلب سورنچان من حيدر أن يتوقف. اعتقد أنه سمع بكاء مايا. تتبعا الصوت حتى مصدره ووجدا أنه صوت بكاء طفل فى أحد البيوت. تأخر الوقت لكنهما واصلا البحث. لم يطيلا البقاء فى أى مكان، لأن مجال البحث كان كبيرا. فى كل زقاق يقف مجموعة من الشباب ينظرون إليهم بعيون حمراء ونظرات دموية. وعندما ينظر اليهم سورنچان يراوده اليقين بأن هؤلاء هم المسئولون عما حدث لمايا.

– حيدر، أين مايا؟ لماذا لا تستطيع أن تجدها؟ لابد أن أجدها الليلة ، لابد.

– لقد فحصت كل خرم فى المدينة. ماذا أفعل غير هذا؟

سورنچان كان يدخن سيجارة وراء الأخرى. مزقته فكرة أنه اشتراها بنقود مايا.

– فلنذهب ونأكل شيئاً فى محل «سوبر ستار»، إننى جوعان جداً.

طلب حيدر طبقين من الفطير واللحم. حاول سورنچان أن يأكل. قطع الفطيرة إلى قطع، ولكن لم يستطع تحمل رفعها إلى فمه. بينما الدقائق تمر، بدا أن الخواء يكبر فى قلبه. أكل حيدر بنهم، وبعد أن انتهى أشعل سيجارة. حثه سورنچان على مواصلة البحث:

– هيا، لنتحرك. لازلنا لم نعثر عليها.

- أين يمكن أن أبحث أيضاً؟ قل لى، لقد رأيت بنفسك كيف بحثنا فى كل مكان!

- دكا مدينة صغيرة. كيف نفشل فى تحديد مكانها؟ هيا لنذهب إلى قسم الشرطة.

عندما حكى سورنچان الواقعة كلها فى قسم الشرطة، استمع إليه رجال الشرطة بنظرات جوفاء لا مبالية. فى النهاية نجح فى تحرير بلاغ مكتوب. فى الخارج قال حيدر:

- لا أعتقد أنهم سيفعلون شيئاً.

- ربما يفعلون.

- فلنذهب إلى وارى. هل تعلم أحدا هناك ؟

- لقد كلفت زملاء الحزب بالمهمه وسوف يبحثون أيضاً فلا تقلق كثيراً.

كان واضحاً أن حيدر بذل أقصى ما يستطيع، ولكن سورنچان لم يكتف. القلق كان يقوده. طوال الليل واصلا التجوال بدراجة حيدر البخارية فى المدينة القديمة. ذهبا إلى كل " غرزة " ووكر فى المدينة إلى أن حان وقت صلاة الفجر لحيدر. دائماً ما كان يحب سورنچان صوت الآذان، ولكن اليوم لم يستطع احتماله .صوت الآذان كان يعنى مجئ الفجر.. ومايا لم يعثر عليها بعد! توقف حيدر فى تيكاتولى، و قال بأرق ما يستطيع :

- لا تيأس يا سورنچان. فلنفكر فيما يجب أن نفعله.

فى البيت جلست كيرونموى وسط الحطام تتطلع بشغف ويأس نحو الباب. حتى سودهاموى، المشلول الذى إزداد ضعفا بفعل الإثارة وعدم النوم كان يأمل ضد الأمل أن يعود سورنچان بمايا. ولكن عندما شاهدا ابنهما المتعب الحزين يعود خالى الوفاض تلاشت كل الأمال. هل هذا يعنى أنهما لن يريا مايا مرة أخرى. كانا مصدومين بالخوف والحزن. جو الشؤم ملأ البيت الذى يفوح برائحة مقبضة بسبب نقص الهواء النقى. كل الأبواب والنوافذ كانت مسدودة ومغلقة. لم يرغب

سورنچان في التحدث مع والديه، اللذين جلسا هناك صامتين ومهمومين ومرعوبين، تمتلئ عيونهما بالأسئلة. جلس على الأرض فى ضجرومدد ساقيه. شعر برغبة فى التقيؤ. فكر، الآن، لابد أن العصابة اغتصبتها. لو أنها تعود فحسب، كما فعلت بعد يومين من الاختفاء وهى طفلة فى السادسة من عمرها! الباب مفتوح وكل شئ سيكون على ما يرام إذا دخلت الآن ، حزينة ومرهقة، ربما، ولكن حية وعائدة إلى أسرتها الممزقة. ياليتها تعود إلى هذا المنزل الصغير المنهار المدمر كلية. حيدر وعده بمواصلة البحث فى اليوم التالى. طالما أنه وعد فإن سورنچان يستطيع أن يحلم بعودتها؟ ولكن لماذا خطفوها؟ لأنها هندوسية؟ كم سيتحمل الهندوس من اغتصاب وحمامات دم وضياع ممتلكات كثمن لبقائهم فى هذا البلد؟ يخفون رؤوسهم مثل السلاحف.. ولكن إلى متى؟ لو أنه يبحث عن إجابات عن هذه الأسئلة، فلن يحصل عليها.

جلست كيرونموى و ظهرها إلى الحائط. تقول بصوت يسمع بالكاد دون أن توجه حديثها إلى أحد : لقد قالوا :«جئنا لنطمئن عليك ياما شيما، نحن من الجيران. افتحى الباب». كم كان عمرهم؟ لا يزيد عن واحد أو اثنين وعشرين عاماً. ماذا كنت أستطيع أمام قوتهم؟ ذهبت إلى كل بيوت المنطقة أرجوهم المساعدة.. لكنهم أكتفوا بالاستماع، متعاطفين معى، ربما، ولكن أحدا منهم لم يساعدنى. واحد منهم اسمه رفيق. سمعت واحدا منهم يرتدى طاقية كان يناديه بهذا الاسم.. لقد كانت فى بيت بارول. كانت ستنجو لو بقيت هناك. هل ستعود مايا إلى البيت ؟ لماذا لم يحرقوا البيت ويتركوها؟ لأنه ملك رجل مسلم على ما أعتقد ! لماذا لم يقتلونى ويتركوها؟ إنها طفلة بريئة. حياتى انتهت تقريبا ولكن حياتها على وشك أن تبدأ.

امتلأ رأس سورنچان بالدوار والألم الفظيع. اندفع نحو الحمام وتقيأ بلا تحكم.

اليـــــــوم الســـــابـــع

لاچـــــا

عندما فرش ضوء الشمس الشرفة، عبرت قطة سوداء وبيضاء. هل تبحث عن الطعام؟ أم أنها تبحث عن مايا؟

لقد اعتادت مايا على حمل القطة بين ذراعيها والتجول بها. واعتادت القطة على التسلل تحت غطاء سريرها والانكماش فى دفئها. هل تعلم أن مايا لم تعد هنا؟ لابد أن مايا تبكى بمرارة الآن. هل قيدوها من يديها وقدميها؟ ووضعوا قطعة من القماش فى فمها؟ ارتعد سورنجان من التفكير فيما يمكن أن يفعله سبعة رجال لفتاة فى الواحدة والعشرين من عمرها. ضربه الأسى والجزع. شعر بأنه متيبس وميت. هل سورنجان حى؟ نعم، بالطبع هو حى، مايا هى التى ذهبت ربما إلى الأبد.

هكذا هو العالم، لايستطيع فيه أحد أن يضحى بحياته من أجل شخص آخر. من الراسخ تماما أنه ليس هناك كائن حى فى أنانية الإنسان ، فلماذا ينبغى أن يموت أقارب مايا لمجرد أنها ذهبت؟

صحيح أن حيدر بذل مجهوداً هائلاً فى البحث عنها. إلا أن سورنجان شعر بأنه لم يبذل قصارى جهده. إنه مسلم مثلهم فى النهاية.

بينما يرقد فى الشمس يراقب القطة خطر لسورنجان فجأة أن حيدر ربما يعرف الذين خطفوا مايا، ولكنه تظاهر بعكس ذلك. عندما كان يلتهم الطعام فى محل «سوبر ستار» لم يبد القلق على وجهه. على العكس تجشأ بإستمتاع بعد الوجبة

ودخن سيجارته ببساطة، كما لو أنه لم يكن يبحث عن شخص فى خطر. فكر سورنجان فى أن البحث نفسه لم يكن عملاً كبيراً بالنسبة لحيدر، وتذكر أنه دائماً ماكان يرغب فى التجول ليلاً بدراجته. هل كان يحقق هذه الرغبة؟ هل بذل مجهوداً هائلاً فى البحث عن مايا، أم أنه كان يغالب مشاعره من أجل خاطر الصداقة؟ بالكاد كان مقنعاً فى قسم الشرطة. شك سورنجان فى أنه ترك أى تعليمات لزملائه فى الحزب. ربما لاتكون لمايا أولوية فى برنامج أشياءه. هل هذا لأن الهندوس مواطنون من الدرجة الثانية؟ حتى الآن لايستطيع سورنجان أن يصدق أن مايا ذهبت، وأنها ليست فى الغرفة المجاورة تجلس بجوار سودهاموى وتدلك ذراعه. شعر أنه لو دخل هذه الحجرة سوف يسمع صوتها:

- دادا، ألن تخرج لتفعل شيئاً؟

فكر بأسف أنه لم يفعل أى شىء من أجلها. كل الأخوات يطلبن من اخواتهم الكبار أشياء طفولية.. اخرجنى معك.. اشترى لى هذا... اشترى لى ذلك..! نعم، بالطبع، طلبت منه هذه الأشياء، لكن سورنجان تجاهلها.

كان مشغولاً للغاية، مشغولاً بنفسه على أن يعتنى بها، الأشياء المهمة بالنسبة له كانت الأصدقاء والسياسة والحزب. كل هذه السنوات لم يكن سودهاموى وكيرونموى ومايا مهمين على الإطلاق. لم يهتم لا بأفراحهم ولا بأحزانهم. كل ماكان مهتما به هو مستقبل البلد. عمل جاهداً من أجل علاج الأمراض التى تعانى منها بلده... ولكن هل نجح؟

بمجرد أن دقت الساعة التاسعة هرع سورنجان إلى منزل حيدر المجاور لمنزلهم تماماً. كان حيدر لايزال نائماً، ولذلك انتظره فى غرفة المعيشة. أثناء انتظاره راوده شك غريب: أن أحد المعتدين، الشاب، الذى يدعى رفيق، هو أحد معارف حيدر وربما من أقاربه. ارتجف سورنجان. مرت ساعاتان وأخيرا ظهر حيدر.

- هل عادت مايا؟

- هل كنت سآتى لو أنها عادت؟

بدا صوت حيدر لا مبالياً. كان يرتدى صدريته فقط. هرش صدره العارى و قال:

- الجو ليس بارداً كعادته هذا العام؟ أليس كذلك؟

هرش نفسه مرة أخرى وواصل:

- هناك اجتماع فى منزل رئيس الحزب اليوم أيضاً. قد يرتبون لمسيرة. عندما وصل نشاط غلام عزام إلى ذروته بدأت كل هذه الاضطرابات.. هذه الأحداث من تدبير الحزب الوطنى البنجلاديشى بالتأكيد.. إنهم يسعون إلى تحويل القضية لصالحهم.

- بالمناسبة ياحيدر، هل تعرف شاباً اسمه رفيق؟ كان هناك شخص بهذا الاسم بين المعتدين.

- أين يسكن؟

- لاأعلم. إنه فى حوالى الواحدة والعشرين أو الثانية والعشرين من العمر. ربما يكون من هذه المنطقة.

- لاأعتقد أننى أعرف أحداً بهذا الاسم. على أية حال سأكلف رجالى بالبحث.

- هيا نخرج.. لايجب أن نضيع الوقت.. لاأستطيع أن أتحمل النظر إلى وجه أبى.. إنه يعانى من أزمة صحية .. ومع كل هذا التوتر كل ماآمل فيه ألا تزداد حالته سوءاً.

- لاأعتقد أنه من الصواب أن تظهر معى الآن.

- لماذا؟ لماذا ليس من الصواب؟

- لماذا لاتفهم؟

بالطبع فهم سورنجان. ليس من المقبول أن يقوم هندوسى بملاحقة مسلمين أو اعتقالهم حتى لو كانوا لصوصا وبلطجية وقتلة.. بل لعله يتوقع أكثر مما يجب بمطالبته بفك أسر فتاة هندوسية من أيدى مسلمين.

ترك سورنجان منزل حيدر خائب الأمل.. أين يذهب الآن؟ إلى البيت؟ لايرغب فى العودة إلى هذا المكان الموحش.

لايزال أبواه يأملان أن يعود إليهما بأخته.. حيدر قال إنه سيكلف رجاله بالبحث..

هل سيبحثون فعلاً؟ فى النهاية أنهم لم يفقدوا شيئاً.. من هى مايا بالنسبة لهم؟ لماذا يجب أن يتعاطف المسلمون مع الهندوس على الإطلاق؟ لو أنهم يتعاطفون فلماذا تتعرض منازل الهندوس فقط للنهب والحرق؟ لماذا تتعرض للاعتداء منازل سورنجان وجوبال وكاجاليند دون غيرهما؟

لم يعد إلى البيت، تجول فى شوارع المدينة كلها بحثاً عن مايا.. مشى بدون هدف تقريباً.. أحياناً يجرى.. يشك فى أى شاب فى حوالى الواحدة والعشرين .. توقف عند محل بقالة.. عينا البائع لم تلتق بعينيه فأصبح مقتنعاً على الفور بأنه يعرف أن اخته اختطفت. تسكع فى الشوارع من جديد، وأخيرا توقف فى نايابازار ليستريح عند انقاض دير الهندوس هناك.. لم يتحمل فكرة أن يلتقى بشخص يعرفه.. ما الفائدة على أية حال؟ سوف يواصلون النقاش حول مسجد بابرى.. بالأمس لم يتردد سالم فى أن يقول:

- طالما أنكم دمرتم مسجدنا، فلماذا تعتبرون أن حرق معابدكم أمر سيئ؟

فى الحقيقة سالم كان يمزح عندما قال هذا. ولكن، كم من الأفكار الجدية يعبر عنها الناس بنكات عابرة؟ لو أن مايا تعود إلى البيت. ربما تعود. يجب أن تعود حتى لو كانوا قد اغتصبوها. على أمل أن يجدها فى البيت عاد سورنجان.

لاشىء، على أية حال، تغير. سودهاموى وكيرونموى لايزالان جالسين فى انتظار المعجزة.أية أخبار يمكن أن تكون أسوأ من عدم عودة مايا؟ استلقى سورنجان على سريره ودفن رأسه فى المخدة. فى الغرفة الأخرى استطاع سماع تأوهات سودهاموى. فيما بعد، فى منتصف الليل وصل إليه صوت بكاء كيرونموى الحاد المرتفع و لم يسمح له بالنوم. لماذا لايتناول ثلاثتهم سماً ويتخلصون من حياتهم؟ على الأقل سيتوقف ألمهم ومعاناتهم الممزقة. كان واضحاً الآن أنه لامعنى لإستمرار الهندوس فى البقاء فى بنجلاديش.

**

استنتج سودهاموى أن انهياره الصحى وراءه جلطة فى المخ أو إنسداد فى الشرايين. كان متأكداً من أنه سيموت إذا أصيب بنزيف، والآن يتمنى أن يحدث

ذلك. الواقع أنه نصف ميت، لماذا لايستطيع أن يضحى بحياته فى سبيل إنقاذ حياة مايا؟ إنها تحب الحياة. هربت إلى منزل بارول بمفردها، ولم يرجعها سوى مرضه ليخطفها هؤلاء الوحوش عديمو القلب. إجتاحه احساس عميق بالذنب. مرة أخرى امتلأت عيناه بالدموع. رفع يده ليمسك بيد كيرونموى، ولكن لاأحد هناك، سورنجان ليس فى البيت ومايا اختفت.. كان يموت من العطش وحلقه كان محتقناً وجافاً. كيرونموى أيضاً عانت بسببه. أرادت دائماً أن تصلى بالطريقة التقليدية ولكنه حذرها من أداء هذه الصلوات فى المنزل. كانت مغنية ممتازة ولكن عندما غنت علناً، شتمها الناس ووصفوها بأنها هندوسية عديمة الحياء.. واثرت هذه الشتائم فى نفسها فاعتزلت الغناء تماماً.. عندما قدمت هذه التضحية الكبيرة هل وقف سودهاموى بجوارها؟ هل أيدها؟ ربما شعر أيضاً أن من الأفضل تجنب هذه الأشياء غير المقبولة اجتماعياً. على مدار إثنين وعشرين عاماً بقى نائماً بجوار كيرونموى.. نائماً بمعنى الكلمة، لأنه لم يكن هناك شىء يتحدثان بشأنه. كان يحمى عفتها، ويساعدها على أن تظل زوجة وفية. ولكن ماضرورة هذا؟ ألم يكن نوعاً من الخداع؟ كيرونموى لم تكن تميل أبداً إلى الملابس أو الحلى.. لم تقل له أبداً: «أريد هذا السارى» أو «اشترى لى هذا الحلق».. سودهاموى كان يسألها:

- كيرونموى: هل تخفين عنى همومك؟

فكانت تجيبه دائماً:

- لا، كل مايهمنى هو رخاء وسعادة الأسرة، سعادتى الشخصية لاتهمنى.

تمنى سودهاموى دائماً أن يرزق بابنة، قبل أن يولد سورنجان وضع سماعته الطبية على بطن كيرونموى وقال:

- يمكننى أن أسمع دقات قلب بنت، ياكيرونموى، هل ترغبين فى سماعها؟

وذات مرة قال لها:

- الابنة هى التى ترعى والديها دائماً عندما يكبران.. الأولاد ينتقلون للعيش مع زوجاتهم بعيداً، ولكن البنات.. إنهن يهملن منازل أزواجهن من أجل رعاية

والديهن.. هذا حقيقى لأننى رأيت بنفسى البنات وهن يأتين للبقاء مع آبائهن المسنين والمرضى فى المستشفى. الأولاد يأتون أيضاً ولكن كزائرين فقط.

طوال فترة حملها الأول كان يجعل كيرونموى تستمع إلى دقات قلب الجنين الصغير. فى العالم كله يتمنى الآباء ذكوراً ولكن سودهاموى تمنى بنتاً.. عندما كان سورنجان صغيراً، كان يلبسه الفساتين ويصحبه معه للتنزه. ثم تحققت أحلامه بمجىء مايا.. اختار لها الاسم بنفسه وقال:

- إنه اسم أمى.. لقد فقدت أماً ولكنى حصلت على واحدة أخرى..

مايا كانت تعطيه دواءه كل ليلة.. لقد مر موعد تناوله للدواء منذ فترة طويلة. نادى «مايا.. مايا». الجيران كانوا نائمين، ولم يكن أحد يسمع عويله المتألم سوى كيرونموى وسورنجان والقطة السوداء البيضاء.

اليـــــــــــوم الثــــامــن

لاجـــــا

بعد هدم مسجد بابرى فى أيودها، بولاية آتار براديش استغرق القتل والدم الذى انتشر على نطاق واسع فى الهند فترة حتى يهدأ.

عدد القتلى تجاوز حتى الآن ١٨٠٠ شخص. فى بهو بنال وكانبور لاتزال أحداث العنف مستمرة. الجيش نزل إلى الشوارع لحفظ القانون والنظام فى ولايات چو چارات وكارناتا وكيريلا وآندهرا براديش وآسام وراچاستان وغرب البنغال. الأحزاب السياسية التى تم حظرها بقيت مجمدة النشاط.

فى دكا نظمت الأحزاب كلها مسيرات تلقائية من أجل حفظ السلام والوئام. ولكن كل ذلك كان مظهراً خادعاً. خلف الواجهة القصة كانت مختلفة . فى المدن المختلفة. عشرات النساء اغتصبن ومئات المعابد والمنازل والمحلات أحرقت ودمرت . البعض قتلوا والعشرات جرحوا.

قصص هذه المذبحة المستمرة فى بنجلاديش كان يرويها بيرو باكشا ونايان وديباباترا، الذين جلسوا فى مواجهة سورنچان يثرثرون دون أن يبدى أى إشارة تدل على أنه يستمع إليهم. كان يستلقى مغمض العينين ويفكر: لاأحد منكم يعرف أن بيوت الهندوس لم تنهب فقط فى بهولا وشيتاجونج وبيرو زيبور وسيلهيت وكوميلا. هناك أيضاً بيت فى تيكاتولى نهب وسرقت منه فتاة جميلة تدعى مايا. النساء فى النهاية بضاعة ولهذا يسرقن مثل الذهب والفضة. قال ديبا باترا:

- ما الأمر ياسورنچان؟ لماذا لاتقول شيئاً؟

– أريد أن أسكر. ألا يمكن أن نملأ بطوننا اليوم حتى الثمالة؟

– هل تعنى ماتقول؟

– نعم، أعنيه. هناك نقود فى جيبى. فليذهب أحدكم ويشترى لنا زجاجة ويسكى.

– أتعنى أنك ستشرب فى البيت؟ ووالديك؟

– فليذهبا إلى الجحيم. أريد أن أشرب وسأفعل. بيرو اذهب من فضلك. هاتها إما من نوع ساكورا أو بيازى.

– ولكن.ياسورنچان – دا

– أرجوك، اذهب..

انبعث صوت بكاء كيرونموى من الحجرة المجاورة.. سأل بيرو باكشا:

– من التى تبكى؟ ماشيما؟

أجابه سورنچان:

– أن تكون هندوسيا، فليس هناك وسيلة لتجنب الدموع.

حل الصمت على الشباب الثلاثة الموجودين. انهم هندوس أيضاً، وفهموا سبب بكاء ماشيما. لقد مس الحزن قلب كل هندوسى هذه الأيام. اسرع بيرو باكشا بالرحيل مع النقود التى أعطاها له سورنچان، كأن الابتعاد سيجنبه عذاب الآخرين الذهنى. سورنجان أراد تجنب العذاب أيضاً – ولكنه فضل طريق الكحول. بعد ذهابه قال سورنچان:

– ديباترا، ألا يمكن أن تحرق مسجداً؟

بدل ديباترا نظره بين سورنچان ونايان فى رعب:

– مسجداً؟ هل جننت؟

– هناك عشرون مليون هندوسى فى هذا البلد. إذا شئنا يمكننا أن نحرق مسجد باتيول مكرم.

– أنت لم تزعم أنك هندوسى أبداً. فلماذا تفعل اليوم؟

- نعم، قلت أنى إنسان، وآمنت بالإنسانية. لكن هؤلاء المسلمين لم يتركونى إنساناً. لقد جعلونى هندوسياً.

- لقد تغيرت كثيراً ياسورنچان.

- ليس ذنبى

- ماالذى سنجنيه بتدمير المساجد؟ هل يعيد لنا معابدنا؟

- حتى لو لم نجن شيئاً، يمكننا على الأقل أن نثبت أننا نستطيع أن ندمر أيضاً. ألا ينبغى أن نبين أننا نستطيع الغضب أيضاً؟ مسجد بابرى كان عمره أربعمائة وخمسين عاما، ولكن بيت شيتانيا ديب كان عمره خمسمائة عام. ألم يدمروا أثراً عمره خمسمائة عام هنا أيضاً؟ أرغب فى هدم مسجد سبحان باج. مسجد منطقة جولشان بارت بنته المملكة العربية السعودية. لماذا لا نستطيع نحن أن نبنى معبدا؟

- ماالذى تقوله ياسورنچان؟ هل جننت. ألا تذكر أنك كنت تقول أنه لو كان هناك أحواض مياه بدلاً من المساجد والمعابد لقدمت إليها بعض البط.

- كنت أقول أكثر من هذا. كنت أقول اهدموا كل بيوت العبادة إلى الأساس ولنبن مكانها حدائق ومدارس للأطفال. من أجل خدمة الإنسان فلتتحول دور العبادة إلى مستشفيات وملاجيء للأيتام ومدارس وجامعات. إلى معاهد للعلوم والفنون والحرف اليدوية، إلى حقول أرز خضراء تغمرها الشمس، وأنهار زرقاء متدفقة وبحار صاخبة. فلتطلقوا اسماً آخر على الدين وهو الإنسانية.

قال ديبا باترا:

- بالأمس كنت اقرأ مقالاً لديبش روى عن المغنى بيد غلام على. الرجل قام وسط غنائه ورقص على لحن ترتيلة «هارى ام تاتسات» الهندوسية. حتى اليوم يغنى بيد غلام هذه الأغنية. ولكن الهندوس الذين هدموا مسجد بابرى ووضعوا تمثال راما مكانه لم يسمعوا هذه الأغنية أبداً.-رجال الدين لايستمعون إلى هذه الأغانى. وهى لاتصل أبداً إلى آذان الجماعات المتعصبة. إن أغنيات بيد غلام على تتشرب بروح «هارى ام تاتسات». المسلمون الذين يتملكهم الجنون لتدمير دور العبادة الهندوسية انتقاما لتدمير مسجد بابرى يصمون آذانهم عن هذه الأغانى أيضاً. كل مايفهمونه

هو أن تدمير مسجد يؤدى آلياً إلى تدمير معبد.

- تقصد أن تقول أن الاعتداء على أحد المساجد لن يكون انتقاماً حقاً ضد تدمير المعابد؟ أنت مثالى مثل أبى. إننى أكرهه. أكره هذا البائس العجوز.

طوال هذا الوقت كان سورنچان مستلقياً، ولكنه قفز مستثاراً الآن.

- اهدأ ياسورنچان، اهدأ، ما تقترحه ليس حلاً.

- لمعلوماتك هذا هو الحل الوحيد الذى أسعى إليه. أنا أيضاً أريد سواطير وخناجر ومسدسات وقضبان حديدية. ألم يذهبوا ليبولوا على حطام المعبد فى دكا القديمة؟ أنا أيضاً أريد أن أتبول على مساجدهم!

- ياالله ياسورنچان، لقد أصبحت طائفياً.

- نعم أصبحت طائفياً، أصبحت طائفيا... وماذا فى ذلك؟

ديباباترا وسورنچان كانا يعملان معاً فى نفس الحزب السياسى، لكن ديباباترا لم يستطع أن يتعرف على زميله القديم. أصابته صدمة شديدة من سلوك سورنچان. يريد أن يسكر، يعلن أنه أصبح طائفياً ويشتم والده أيضاً. شعر ديباباترا برعب.

**

- حوادث العنف والشغب ليست مثل الإعصار الذى يمكن أن تنجو منه وتحصل على بعض الطعام لتحيا به مؤقتاً. ولاهى مثل الحرائق التى يمكن أن تطفأ فتستريح. عندما يندلع العنف يضع البشر إنسانيتهم تحت الاختبار. أسوأ مافى الإنسان يظهر خلال الشغب. حوادث العنف ليست كارثة طبيعية. إنها ببساطة انحراف للإنسانية.

تنفس سودهاموى بعمق بعد هذا الكلام الذى ألقاه على مسمع من زوجته، التى جلست فى الركن صامتة تدعو إلهها. التمثال الصغير لم يعد هناك، فقد تحطم فى ذلك اليوم المشئوم، لكنها عثرت على صورة لرادها وكريشنا فى مكان ما. أتت بها بعناية، وكانت تلمس جبهتها بها من وقت لآخر. كانت تبكى فى صمت بينما يرقد سودهاموى عاجزاً يتساءل عما إذا كان لدى رادها أو كريشنا القدرة على إعادة مايا.

ماالقوة التى تمتلكها صورة لتنقذ مايا من أيدى الأصوليين. إنه مواطن فى هذا البلد. شارك فى الثورة من أجل اللغة، وحارب لطرد الباكستانيين والحصول على الاستقلال، ولكن هذا الوطن لايمكنه أن يكفل له الحماية. كيف يستطيع رادها أو كريشنا إذن أن يحمياه؟ فكر، منذ طفولته المبكرة كان جيرانه هم الذين يرعبونه. فى البداية استولوا على ممتلكاته والآن استولوا على ابنته. عندما يصبح الذين تعرفهم جيداً، الذين يفترض أنك تعتمد عليهم، هم الخطر الذى يتهددك، فكيف يمكن لكريشنا أن ينقذك؟ إذا كان هناك من لديه القوة لإنقاذك، فهو أناسك الذين يقررون أن يتجاوزا اختلافاتهم الطائفية والعقائدية ليصبحوا واحداً. نادى سودهاموى زوجته بصوت واهن. قامت من ركنها ووقفت أمامه صامتة.

- ألم يذهب سورنچان للبحث عن مايا اليوم؟

- لاأعلم.

- أعتقد أن حيدر كلف بعض الرجال بالبحث. هل أتى اليوم؟

- لا

-هل يعنى ذلك أن نفقد الأمل؟ ألن يعثروا على مايا أبداً؟

- لاأعلم.

- هل يمكن أن تجلسى بجوارى بعض الوقت ياكيرون؟

جلست كيرونموى بجواره بطريقة آلية. لم تمد يدها إليه، أو تنظر نحوه. الأصوات فى الغرفة المجاورة كانت مرتفعة.

قال سودهاموى:

- لماذا يصيح سورنچان هكذا؟ ألم يذهب إلى حيدر؟ لو كنت أستطيع لذهبت بنفسى. لماذا أصبت بالمرض؟ هل كان يستطيع أحد أن يلمس مايا لو كنت بصحتى؟ كنت سأقتلهم! لو أن جسدى يسمح لى، لعثرت على مايا بأى وسيلة.

حاول سودهاموى أن ينهض ولكنه سقط مهزوماً. لم تتحرك كيرونموى لتساعده. كانت تحدق بوجوم تجاه الباب المغلق، متى يطرقه أحد؟ متى تعود مايا؟

- لماذا لاتذهبين لتنادى ولدك؟ إنه نذل من الدرجة الأولى! أخته مفقودة ولديه الجرأة على أن يشرب فى البيت ويمرح؟ يجب أن يخجل من نفسه.

لم تذهب كيرونموى إلى سورنچان، ولاحاولت أن تهدىء سودهاموى، واصلت التحديق فى الباب، ومن وقت لآخر كانت تنظر إلى صورة رادها وكريشنا فى ركن الغرفة. فى هذه اللحظة لم يكن بمقدور إنسان أن يعزيها، لو أن الله ينظر إليها نظرة.

تمنى سودهاموى أن تواتيه القدرة على النهوض مرة واحدة. أراد أن يخبر العالم، مثل جوناثان سويفت، إننا جمعيا نؤمن بكراهية بعضنا البعض ولكن قلة صغيرة فقط يعرفون كيف يحبون بعضهم البعض. تاريخ الإنسانية ملطخ بالحروب الدينية والحروب المقدسة. فى ١٩٤٦ هتف سودهاموى بشعارات الإخوة بين الهندوس والمسلمين. حتى الآن يتردد نفس الشعار. لماذا يضطر المرء إلى ترديد مثل هذا الشعار لفترة طويلة هكذا؟ كم قرنا آخر سيتردد هذا الشعار فى شبه القارة الهندية؟ ألا زلنا نحتاج إلى تنوير شعوبنا؟ المتعصبون الأغبياء المسئولون عن إذكاء نار الطائفية. هل أنصتوا يوماً لهذا الشعار؟ لو لم يتعلم البشر أن يقتلعوا الطائفية من قلوبهم فلن ينفع أى شعار.

**

ذهب سورنچان إلى حيدر، لم يجده بالبيت وقالوا له إنه ذهب إلى بهولا لرصد الأضرار التى تعرض لها الهندوس. إستطاع سورنچان أن يرى بعينى عقله: حيدر يتعاطف مع الضحايا. حيدر يلقى الخطب فى أماكن عديدة ويثنى عليه الناس. يثنون على مشاركته الوجدانية وموقفه اللا طائفى. ومن المؤكد أن حزب «رابطة عوامى» سيحصل على أصوات الهندوس فى الانتخابات! ولكن حيدر، فكر سورنچان بغضب، ليس مهتما على الإطلاق بمايا التى تسكن بجواره، مع أنه قطع كل هذه المسافة إلى بهولا ليعبر عن تعاطفه مع آخرين مثل مايا.

فتح سورنچان الزجاجة. صب كأساً ورفعه إلى فمه، أصحابه لم يكونوا راغبين فى الشرب ولكنهم وافقوا ليبقوا معه. على المعدة الخاوية كان للكحول تأثير مدمر. قال سورنچان:

- أحب التنزه فى المساء. مايا كانت ترغب فى مصاحبتى دائماً. لابد أن أصحبها يوماً ما إلى شالبو فيهار.

اتجه الحوار إلى الأحداث السياسية مرة أخرى. وكان سورنچان يقاطعهم بتدخلاته الساخرة اليائسة. فجأة دخل بولوك الحجرة، نظر حوله وقال:

- كيف تجلس هكذا وبابك مفتوح على مصراعيه؟

- الباب مفتوح، نحن نصرخ ونشرب.. ليس هناك مانخشاه. سنموت إذا لزم الأمر! كيف غامرت أنت بالخروج؟

- الحالة هدأت بشكل واضح.. ولهذا خرجت .

- انفجر سورنچان بالضحك وهو يقول:

- وسوف تحبس نفسك مرة أخرى إذا تراجع الموقف، صح؟

صدم بولوك. لقد استجمع شجاعته وركب دراجته البخارية عبر شوارع المدينة متوتراً، وجاء إلى سورنچان الذى كان يتحرك هنا وهناك ليجده قابعاً لايفعل أكثر من شرب الخمر! إنه لايصدق عينيه. ماذا حدث لصديقه؟

احتسى سورنچان جرعة من كأسه وواصل حديثاً كان قد انقطع بمجىء بولوك:

- غلام عزام، غلام عزام.... ماعلاقتى بهذا؟ ماالذى سأجنيه إذا عوقب غلام عزام؟ لماذا أحاربه؟ ومايا.. مايا يصيبها القرف من سماع اسمه، وتشعر برغبة فى التقيؤ. هل تعرفون أن اثنين من أعمامى وثلاثة من أخوالى قتلوا على يد الباكستانيين خلال حرب الاستقلال. لازلت لا أفهم لماذا أبقوا على حياة أبى. ربما أرادوا له أن يستمتع بثمار الاستقلال. هل هو يستمتع الآن؟ هل الدكتور سودهاموى دوتا يرفل فى نعيم الاستقلال مع زوجته وابنه وابنته؟

كان سورنچان جالساً على الأرض يمد ساقيه. جلس بولوك بجواره. الحجرة ممتلئة بالتراب. الكتب والأوراق مبعثرة فى أنحاء المكان. قطع الأثاث المكسور مبعثرة هنا وهناك. أعقاب السجائر والرماد زادت من الفوضى. اعتقد بولوك أن سورنچان حطم الأثاث فى سورة غضب. عندما لايتحدث أحد منهم يصبح المنزل صامتاً

كأنهم فى صحراء. قال بولوك:

- إكرام حسين زار بهولا.. وفقاً لكلامه، فإن رجال الشرطة والحزب الوطنى هناك يواصلون القول بأن الأحداث رد فعل طبيعى لتدمير مسجد بابرى. النهب والمذابح كانوا رد فعل تلقائى. فى عمليات اقتلاع الهندوس من جذورهم احرقت قرية وراء الأخرى حتى الرماد. الهواء كان يمتلىء برائحة الحريق. كانوا يجمعون كل شىء فى البيوت ويسكبون عليه الكيروسين ويشعلون النيران. حقول الأرز وبساتين الجوز أحرقت. جردوا الأطفال من ملابسهم وخطفوا النساء والفتيات.

واصل بولوك الحديث دون انقطاع، وفجأة صاح فيه سورنچان:

- أغلق فمك.. إذا قلت كلمة واحدة أخرى سأضربك.

صعق بولوك حتى أنه توقف فى منتصف جملته، لماذا يتصرف سورنچان هكذا؟ هل شرب أكثر من اللازم؟ ربما، ابتسم بجفاف لديباباترا.

مر وقت طويل دون أن ينطق أحدهم بكلمة، واصل سورنچان الشرب. لم يكن معتاداً على الكحول. بين حين وآخر كان يشرب فى المناسبات الاجتماعية بكميات قليلة. لكنه الآن يشرب بانتقام. هدوء غير طبيعى نزل على الغرفة منذ أن سكت بولوك. فى وسط هذا الصمت فوجىء الجميع بانفجار سورنچان بالبكاء. وضع رأسه على كتف بولوك واستغرق فى البكاء حتى سقط رأسه على الأرض. تملكهم الخوف. لقد أصبح الأمر أكبر مما يحتمل.

الحجرة المعتمة امتلأت برائحة الكحول، وترددت بصدى نحيب سورنچان المعذب. لم يكن قد غير ملابسه أو تحمم وازدادت ملابسه اتساخاً. فى النهاية أجهش قائلاً:

- لقد خطفوا مايا ليلة أمس.

- ماذا تقول؟

نظر إليه بولوك برعب وكذلك ديباباترا ونايان وبيروباكشا، استمر جسد سورنچان فى الاهتزاز بالبكاء. أوقع الأكواب نصف الممتلئة بالويسكى وزاد اتساخ

الأرض، لكن أحداً لم يهتم. تملكهم الشحوب أمام الخبر. من شدة الذهول لم يجد أحداً منهم شيئاً يقوله. أى كلمات تعزية تصلح فى مثل هذا الموقف؟ . فى هذه اللحظة دخل بلال الغرفة تطلع حوله بسرعة ورأى سورنچان راقداً على الأرض. توجه نحوه وسأل:

- سورنچان هل خطفوا مايا فعلاً؟

لم يرفع سورنچان رأسه

- هل حررت بلاغاً فى قسم الشرطة؟

لم يجب سورنچان. نظر بلال إلى الآخرين فى انتظار اجابة. لكن لم يكن لديهم أى شىء يقال.

- هل حاولت أن تعرف من الذى اختطفها؟

واصل سورنچان الصمت. جلس بلال على السرير وأشعل سيجارة، وقال:

- لاأعلم ماالذى يدور حولنا. اللصوص والمجرمون لديهم عيد الآن. وفى نفس الوقت يواصلون قتلنا فى الهند.

سأله بيروباكشا:

- ماالذى تعنيه بـ «نحن»؟

- المسلمون. أتباع حزب بهاراتيا جاناتا يمزقوننا .

- آه، فهمت .

- عندما تصل مثل هذه الأخبار من الهند، طبيعى أن يفقد هؤلاء الناس عقولهم. من يستطيع لومهم؟ إننا نموت هناك، وأنتم هنا. ما الفكرة من هدم هذا المسجد العتيق. الهنود دمروه ليبحثوا عن مكان مولد راما، وهو شخصية أسطورية! بعد أيام ربما يقولون أن هانومان ولد فى تاج محل؟ والمفروض أنهم يطبقون العلمانية فى الهند! لماذا اختطفت مايا؟ الأبطال الذين يسألون عن ذلك هم أمثال أدفانى وجوشى. أعتقد أن الموقف خطير جداً فى كالكتا.

بقى سورنچان دون حراك مثل جثة لم يعلن موتها بعد. من الغرفة الأخرى وصل

نحيب كيرونموى المتواصل وتآوهات سودهاموى المبهمة.

– أنا متأكد أن مايا ستعود. إنهم لاينوون أكلها بالتأكيد، أطلب من كاكيما أن تصبر. ولماذا تبكى أنت هكذا مثل النساء؟ هل الدموع ستحل مشكلتك؟ لماذا تجلسون كلكم هكذا؟ ألا تذهبون لمعرفة ماالذى حدث للبنت؟

قال بيروباكشا:

– لم نعرف بما حدث سوى الآن. ثم منذ متى أصبح من الممكن أن يذهب المرء ببساطة ويستعيد شخصاً مخطوفاً؟ وأين يجب أن نبحث؟

– أنا متأكد أنهم مدمنو مخدرات. لابد أنهم من صبيان الحى. لاحظوا وجود فتاة جميلة وواتتهم فرصة. فخطفوها. الناس الطيبون لايفعلون هذه الأشياء. الصغار اليوم انحدروا إلى الحضيض. والسبب الأساسى هوعدم الاستقرار الاقتصادى. هل تفهمنى؟

جلس بيروباكشا منكس الرأس. لاأحد منهم كان يعرف بلال. أخرج سيجارة وولاعة. لم يشعلها وواصل الكلام:

– هل سيحل الخمر مشكلتك ؟ قل لى، هل سيحلها؟ هل عرف هذا البلد حوادث الشغب فى حياته؟ أنت لاتستطيع حقاً أن تسمى هذا شغباً. الأطفال يشتاقون لأكل الحلوى. ومن الطبيعى أن يهاجموا محلات الحلوى. فى الهند حتى الآن حدث مالا يقل عن ألف حادث شغب. آلاف المسلمين قتلوا. قل لى، كم عدد الهندوس الذين ماتوا هنا؟ فى كل منطقة يسكنها الهندوس ترابط سيارات الشرطة لأجل حفظ السلام.

لم يتكلم أحد. ولاحتى سورنجان رغب فى أن ينطق بكلمة على الإطلاق.

الخمر بدأ يؤدى مفعوله وشعر بالنعاس الشديد. لم يشعل بلال سيجارته. قال إن لديه عملاً ما ورحل .واحد تلو الآخر رحل الباقون أيضاً.

اليـــــوم التـــاســـع

لاچــــا

اعتدوا على منزل جوبال المجاور لبيتهم ونهبوه. وجاءت أخت جوبال الصغيرة التى تبلغ حوالى الثانية عشرة لزيارتهم. حكت لهم عن تفاصيل الأضرار التى لحقت ببيتهم.

سورنچان، الذى كان لايزال راقداً على الأرض، راقبها وهى تتنقل هنا وهناك مثل قطة صغيرة. بالرغم من عمرها كان هول الكارثة مسجلاً على وجهها. جاءت إلى غرفة سورنچان، وقفت عند الباب وحدقت بعيون مفتوحة إلى الحطام فى الداخل. نظر سورنچان إلى الشرفة المفروشة بالشمس وأدرك أن الوقت تأخر. استدعى الطفلة وسألها عن اسمها:

– مادول .

– إلى أى مدرسة تذهبين؟

– شير بانجلا باليكا بيديا لالا .

اسم المدرسة كان قبل ذلك مانديز نارى شيكشا وقد أسستها ليلا ناج. ولكن أين اسم ليلا ناج اليوم؟ كانت رائدة فى مجال التعليم فى وقت لم يكن يسمح فيه للبنات بالتعليم. وكانت تذهب من بيت إلى آخر لتشجيع النساء على الدراسة. فى مدينة دكا قاتلت من أجل إنشاء مدرسة للنساء. المدرسة لاتزال موجودة ولكن اسمها

تغير، لأنه كيف يمكن أن يسمح لاسم ليلا ناج بالوجود؟ اسم مانديرناري شيكشا أصبح أيضاً علامة على شيء دينى لايشجعه الوقت الحاضر. ولذلك تغير الاسم كما حدث لكلية ب.م. وكلية م.ش. باختصار السبب هو التأكد أن الهندوس ليس لديهم أى مكان تحت الشمس فى بلد مسلم. فى١٩٧١ ساد اتجاه بتغيير أسماء الطرق فى دكا. الباكستانيون قاموا بأسلمة أسماء أكثر من ٢٤٠ طريقا. سألت الطفلة الصغيرة:

- لماذا تجلس على الأرض؟

- لأننى أحب ذلك .

- أنا أيضاً، كان لدينا فناء فى منزلنا، سوف ننتقل الآن إلى منزل جديد ليس له فناء .

- إذن لن تستطيعى أن تلعبى

جاءت البنت وجلست بجوار سورنچان واستندت بمرفقها على السرير. كانت تستمتع بالمحادثة معه، وهو بدوره تخيل أنها طفلة اسمها مايا، أخته التى ضاعت منذ زمن طويل، والتى كان يقضى معها الساعات يتحدثان عن المدرسة ولعب الكرة، وأشياء أخرى عديدة... آه كم مر من زمن منذ أن كان يجلس ويثرثر مع مايا! فى طفولتهما كانا يصنعان أكواخا من الطين على ضفاف النهر، وفى الليل كان الموج يأتى ويغسل أكواخهما.. ذكريات أخرى انسابت. تذكر كيف كانا يحبان الحلوى التى تلون لسانيهما باللون الأحمر.. أو عندما هربا من البيت ليلعبا بين حقول القصب. مد سونجان يده ليلمس البنت.. يداها ناعمة مثل يدى مايا.. من الذين يمسكون بيد مايا الآن؟ لابد أنها أيدى خشنة ووقحة وقاسية. هل يئست مايا من الهرب؟ ولكن ربما تحاول ولاتستطيع التخلص من قبضتهم. ارتجف جسد سورنچان بالألم من التفكير فى هذا. لم يترك يد مادول.. إنها تشبه يد مايا كثيرا. إذا تركها قد يأتى أحدهم ويخطفها أيضاً. وربما يقيدونها بالأحبال القوية .. فجأة قالت مادول:

- لماذا ترتعش يداك؟

– هل ترتعشان؟ الحقيقة أننى حزين جداً لأنك سترحلين

– ولكننا لسنا ذاهبين إلى الهند.. إننا ذاهبون إلى ميربور فحسب. سوبول وأسرتها راحلون إلى الهند

– ماذا فعلت عندما اقتحموا منزلكم؟

– وقفت فى الشرفه أبكى. كنت خائفة. أخذوا التليفزيون وكل المجوهرات، وأموال أبى أيضاً .

– هل قالوا أى شىء لك؟

– قبل أن يرحلا صفعونى بقوة على خدى وقالوا لى: اخرسى وكفى عن البكاء .

– هذا كل شىء؟ ألم يحاولوا أخذك معهم؟

– لا. لابد أنهم ضربوا مايا– دى أيضاً. أليس كذلك؟ لقد ضربوا أخى على رأسه ونزف كثيراً .

فكر سورنچان: لو أن مايا كانت فى عمر مادول لتركوها. ولما أخذوها معهم. كم عدد الذين اغتصبوها ياترى؟ خمسة؟ سبعة؟ أم أكثر؟ هل نزفت كثيراً؟

– ماما طلبت منى أن أزور ماشيما لأنها تبكى كثيرا .

– هل تخرجين معى فى نزهة يامادول؟

– ماما ستقلق علىَّ

– سوف أخبر ماما قبل أن نذهب .

كانت مايا تقول له «دادا، هل تأخذنى إلى سوق كوكس؟ يمكننا أن نذهب إلى غابة مادهوبور. أو مارأيك فى الذهاب إلى ساندار بانس؟ أحب أن أذهب إلى هناك أيضاً». وتذكر عندما كانت تقرأ أشعار جيباناندا فترغب فى الذهاب إلى ناتور. كان سورنچان يصدها ويتهكم عليها دائماً: «اذهبى إلى عشش تيجچا لترى كيف يعيش

الناس هناك. سيكون لهذا قيمة أكثر من تأمل الأشجار والنبات». وكان حماس مايا يفتر على الفور. اليوم يتساءل سورنچان عن الذى جنياه من النظر إلى «الحياة». مافائدة أن يتمنى المرء الخير لكل الناس؟ حركات العمال والفلاحين، ثورة البروليتاريا، تقدم الاشتراكية.. كل هذه الأفكار المثالية التى تبناها منذ طفولته.. ولكن مافائدتها على الإطلاق؟ لقد سقطت الاشتراكية وهوى تمثال لينين إلى الأرض. أليس منتهى السخرية أن يساء إلى روح الإنسانية فى وطن أكبر زعمائها؟

قامت مادول ببطء. سحبت يديها الناعمتين، اللتين تشبه يدى مايا، من قبضة سورنچان.حيدر لم يأت اليوم أيضاً. لابد أنه غير مهتم. بالرغم من أن لديه عذره فى عدم الرغبة بالتورط. الآن بدأ سورنچان أيضاً يدرك أنه ليس هناك فائدة من البحث عن مايا. حتى لو عادت، هل ستعود مثل مايا ذات الستة أعوام، التى عادت منذ سنوات بعيدة؟ شعر سورنچان بالفقدان والأسى. عندما ذهبت مايا للبقاء عند بارول كان المنزل صامتاً وهادئاً ولكن ليس هكذا. لم يكن بهذا البرود والموت. عرف ثلاثتهم أن مايا لن تعود. تحول الصمت الآن إلى صمت القبور. كأن شخصاً قد مات حقاً. نظر إلى زجاجات الويسكى المبعثرة والأكواب الفارغة الملقاة هنا وهناك. امتلأ قلبه الموحش بالدموع. هذه الدموع التى يجب أن تكون فى عينيه، كانت تملأ قلبه.

هذه المرة لم يكلف كمال ورابيول نفسيهما بالسؤال عنه. استغرق فى التفكير فى مواقف أصدقائه المسلمين.. وجد على مائدته قطعتين من البسكويت وثمرة موز. لابد أن كيرونموى تركتها له. بدلاً من الطعام شعر برغبة فى شرب مابقى من الويسكى. الليلة الماضية كانت باردة.. أثناء رقاده زارته مايا لتشعره بمزيد من الخسة والذنب. عندما يفتح عينيه يراها تبتسم وعندما يغلقهما كان كل مايراه هو مجموعة من الكلاب المفترسة.

واضح أن حيدر لم يواصل البحث لأنه عرف أن الارهابيين فى المنطقة يعرفون أن سورنچان ذهب ليطلب مساعدته. لو لم يكن قد فعل هذا لاستطاع سورنچان أن يذهب للبحث بنفسه. ردد لنفسه بسخرية أن هذا زاد الأمر سوءاً حتى أن المجرمين لم

يعودوا مضطرين إلى التستر على نشاطاتهم. ولم يعودوا مضطرين إلى البحث عن أزقة يغتصبون فيها نساء الهندوس. ربما يغتصبون النساء علناً الآن، كما يسرقون ويحرقون. وهذا بفضل الدعم غير المباشر من الحكومة. إنها ليست حكومة علمانية فى النهاية. الحقيقة أنهم يناصرون مصالح الأصوليين. الشيخة حسينة قالت أنه لابد من الحفاظ على الوئام الطائفى من أجل حماية ١٤٠ مليون مسلم فى الهند. لماذا تفكر الشيخة حسينة فى سلامة مسلمي الهند؟ كمواطنين فى هذا البلد، أليس من حق الهندوس أن يعيشوا فى وئام طائفى؟ لماذا يبدون مزيدا من التعاطف تجاه حياة وممتلكات المسلمين فى الهند أكثر مما يبدونها تجاه مواطنيهم؟ ألا يؤكد هذا أن حزب «رابطة عوامى» يطعم الشعب نفس الطعام الذى تطعمه لهم الجماعات - بكلمات أخرى ألا يطعمهم العداء للهند والولاء للإسلام؟

فكر سورنچان: الحكومة مخطئة تماماً. مصالح المسلمين فى الهند ليست هى المهمة، ولكن السبب الأساسى والمنطقى لحفظ السلام والوئام هنا هو حماية الحقوق التى يكفلها الدستور. هندوس هذا البلد لديهم الحق، كمواطنين أحرار، على حفظ وحماية حياتهم وممتلكاتهم وكذلك أفكارهم ومعتقداتهم. ليس بدافع التعاطف مع دين شخص آخر، أو حزب شخص آخر، أو بدافع الشفقة الشخصية يجب أن يسمح للهندوس بالعيش فى هذا البلد. ولكن لأن قوانين إدارة هذه الأمة تعطيهم الحق فى العيش مثل أى مواطنين آخرين. لماذا إذن يبحث سورنچان عن التعاطف أو الحماية لدى كمال أو بلال أو حيدر؟

فى ميرسارى بولاية شيتاجونج أحرق منزل رئيس اتحاد الطلبة كمال بهوميك وماتت عمته من جراء ذلك. فى منطقة يعيش بها الهندوس فى كوتا بيدا مات ثلاثة أطفال عندما أشعل المجرمون النار فى المكان. فى شاتكانيانا تبارا مات سورجو موهون متأثرا بحروقه، عندما سئل باشوديب أحد سكان ميرسارى عن الذين قاموا بالاعتداءات أجاب قائلاً:

- الذين يقتلون فى الليل هم أنفسهم الذين يأتون فى الصباح ليتعاطفوا بشدة مع

الكوارث التى حلت.

عندما سئل جاترا مهو ناث من منطقة خاجوريا نفس السؤال قال:

- أفضل أن تقتلنى عن أن أتكلم.

خلال ستة أيام من الأحداث شكلت الأحزاب غير الطائفية وأحزاب الاندماج القومى واتحاد لجان الثقافات لجنة مشتركة للوحدة الوطنية. حتى الآن نجحت اللجنة فى تنظيم مسيرة سلام واحدة وتجمع جماهيرى واحد. ساد شعور عام بضرورة حظر أفكار «جماعة شيبر» السياسية ولكن إلى الآن لم يظهر مدى الإصرار الذى تبديه لجنة السلام والوئام الطائفى على هذا المطلب. على أية حال، عرف سورنچان، أنه لو فشلت الحكومة فى منع أفكار الجماعة واعترضت اللجنة على هذا فإن المسئولين عن البلد لن يبالوا باعتراضهم. بعض أعضاء اللجنة تحدثوا عن معاقبة الذين نهبوا وأحرقوا بيوت ومعابد الهندوس. ولكن واحداً من ضحايا النهب قال:

- أعرف الذين ارتكبوا هذه الأعمال.. ولكنى لاأعتقد أن من الحكمة مقاضاتهم، لأن الأحزاب التى فشلت فى حمايتنا عندما اعتدى علينا، بالتأكيد لن توفر لنا أى حماية بعد رفع الدعوى.

الواقع أن هذا هو المنتظر أن يفعله كل ضحية إذا واجه احتمال القيام بإجراء قانونى. شعر سورنچان بأن الدعوة إلى المقاضاة حركة سياسية واضحة. الديمقراطية ليست قوية بشكل يكفى لوقف انتشار الطائفية. من ناحية أخرى الجماعات الطائفية لديها الكثير من القوة وتعمل على تحقيق أهدافها بإيمان كبير. أى إحساس بالرضاء ستحظى به الأحزاب السياسية الجمهورية من تأسيس لجنة كل الأحزاب هذه؟ كثير من المثقفين يعتقدون أن أحداث العنف الطائفى فى بنجلاديش أقل بكثير من مثيلتها فى الهند وباكستان. مالا يدركوه هو أن الأمر فى بنجلاديش من جانب واحد فقط. .فى الهند المسلمون يثأرون لأنفسهم، ولكن فى بنجلاديش لا يستطيع الهندوس ذلك. فى هذه البلاد الثلاثة الكبرى فى شبه القارة، تؤيد الحكومات شرور الطائفية والأصولية بشكل غير مباشر من أجل مصالحها السياسية. الأصوليون يحاولون

الحصول على السلطة فى كل أنحاء العالم. فى الهند وباكستان وطاچكستان وأفغانستان والمغرب ومصر وإيران وصربيا. هدفهم الوحيد هو بتر روح الديمقراطية. فى ألمانيا تم حظر اثنين من الأحزاب الفاشية لأنهم أحرقوا ثلاث نساء تركيات. فى الهند حظر نشاط الأصوليين أيضاً، ولكن السؤال الذى لايزال قائماً هو إلى متى سيستمر حفظ النظام بالقوة؟ فى الجزائر حظرت هذه الجماعات أيضاً. الحكومة المصرية وجهت ضربة قوية إليها، بينما فى طاجكستان يتحارب الأصوليون والشيوعيون، ولكن هل فكرت حكومة بنجلاديش أبداً فى قمع الجماعات الأصولية والفاشية؟

فكر سورنچان بأسى شديد، أنه فى هذا البلد على الأقل، لن تتحرر السياسة أبداً من أغلال الدين.

فى اجتماع الحزب الثقافى المشترك رفعوا شعاراً يقول: «بنجلاديش ستوقف أحداث العنف الطائفى». كم هم عميقو التفكير هؤلاء البنجلاديشيون! فكر سورنچان وهو يدخن سيجارة: «أوغاد ملاعين. خنازير ملاعين هذه هى بنجلاديش بالنسبة لى». أعاد الجملة مراراً وتكراراً شاعراً بسعادة بالغة من ترديدها. عندئذ ضحك بصوت عال، ضحكات خشنة وممرورة.

**

وقفت مادول أمام كيرونموى وقالت:

– ماشيما، سوف نرحل إلى ميربور. هؤلاء الوحوش لن يستطيعوا الوصول إلى هناك .

– ولم لا؟

– لأن ميربور بعيدة جداً..

بالنسبة لهذه الطفلة المجرمون يوجدون هنا فى تيكاتولى فقط. بما أن ميربور بعيدة عن تيكاتولى فسوف تكون آمنة من عدوانهم. ولكن كيرونموى تساءلت: هل الأمر

بهذه البساطة؟ لو أن هؤلاء الذى ينهبون ويحرقون وحوش لما توقفوا ليميزوا بين الهندوس والمسلمين، أليس كذلك؟ إنهم يختارون عن وعى أن يعتدوا باسم الدين، ولذلك فإن كلمات وحوش ومجرمين وبلطجية عمومية أكثر من اللازم.

كان سودهاموى راقداً. لم يكن هناك مايستطيع عمله سوى الرقاد. مافائدة أن يعيش هذه الحياة المشلولة؟ أنه مجرد شىء مزعج لاضرورة له لكيرونموى. قدرة كيرونموى على الصبر والاحتمال لاتصدق. لم يبد عليها التعب أبدا. طوال الليل تبكى بحرقة وبمجرد طلوع النهار تذهب للعمل فى المطبخ، سواء رغبت فى ذلك أم، فإن احتياجات المعدة تنتصر دائماً على ماسواها. حياتهم تزداد سوءاً. سورنچان لايأكل تقريباً ولايستحم، وكيرونموى نفس الشىء وإن كان بدرجة أقل. سودهاموى لايرغب فى الأكل أيضاً. والأسوأ أن مايا لم تعد إلى الآن. هل ذهبت إلى الأبد؟ لو يستطيع أن يضحى بحياته وتعود مايا فحسب! لنفترض أنه وقف فى الطريق العام وصاح: «يجب أن تعود مايا. من حقى أن آمر بعودتها. صح؟» الكلمة ليس لها معنى الآن. تذكر عام ١٩٤٦، كان شاباً وبعد أن أكل الحلوى فى أحد المحال طلب من البائع قليلاً من الماء. استخدم كلمة «بانى» التى يطلقها المسلمون على الماء، وليس كلمة «چال» التى كان يستخدمها عادة، لأنه فى ذلك الوقت كان العداء بين الهندوس والمسلمين شديداً.

البريطانيون فهموا جيداً أنهم لو أرادوا إطالة بقائهم فى شبه القارة، فلابد أن يذكوا نيران المشاعر السيئة بين الهندوس والمسلمين. من هذا التفكير الماكر ولدت سياسة فرق تسد . فى عقله تابع سودهاموى استمرار هذه المشاعر السيئة بعد جلاء الانجليز ثم بعد تقسيم الهند ثم بعد انفصال بنجلاديش . العلمانية التى نص عليها الدستور بعد استقلال ١٩٧٢ تم سحبها خلال السنوات التالية.

المادة ١٢ من الدستور تغيرت تماماً عام ١٩٧٨، هذه المادة كانت تقول تحت عنوان «العلمانية وحرية العقيدة»:

١٢) مبدأ العلمانية يجب تحقيقه عن طريق التخلص من:

أ- الطائفية بكل أشكالها .

ب- الإنحياز التشريعى لأى دين من الأديان .

جـ- إستغلال الدين لأغراض سياسية .

د- أى تمييز أو إضطهاد ضد أشخاص يمارسون ديناً معيناً من الأديان .

كلمة «علمانية» ألغيت وتقول المادة ٢٥ فقرة (٢) الآن:

«تعمل الدولة على تضامن وحماية وتقوية العلاقة الأخوية بين الدول الإسلامية بناءً على التضامن الإسلامى».

فى دستور ١٩٧٢ تقول المادة ٦:

«مواطنة بنجلاديش يحددها وينظمها القانون، ويعرف مواطنى بنجلاديش باسم البنغال».

ضياء الرحمن غير هذا إلى « ويعرف مواطني بنجلاديش باسم البنجلاديشيين».

رأى سودهاموى ظلاماً حوله. الوقت لايزال بعد الظهر. فلماذا تظلم الآن؟ هل تخونه عيناه؟ أم عدسات النظارة التى لم تتغير منذ فترة طويلة؟ ربما يكون السبب نمو مرض الكاتاراكت.. أم بسبب الدموع التى تلمع فى عينيه؟

حتى سورنچان تغير. لم يأت للجلوس بجواره مرة واحدة منذ أن أخذوا مايا لم يخط داخل هذه الغرفة. كان بإمكان سودهاموى أن يسمع مايدور فى غرفة ابنه. المناقشات العالية التى صحبت شرب الخمر. هل فقد الولد أخلاقه؟ لم يشرب سورنچان فى البيت من قبل أبداً. ربما لم يعد يبالى بأحد. هل نسى مايا فى يومين؟ لم يستطع سودهاموى أن يصدق ذلك. تغير ابنه أضاف عبئاً ثقيلاً فوق العبء الذى يحمله بالفعل. هل انحدر سورنچان إلى الحضيض؟

**

نوى سورنچان عدم مغادرة البيت. أدرك أن من غير المجدى أن يبحث عن مايا.

الأفضل أن يبقى فى البيت ويتجنب مقابلة الناس فى الشوارع الذين قد يصيحون بشتائم فاحشة مثل: «هاهو واحد من الأوغاد المسئولين عن هدم مسجد بابرى! يجب طرد هؤلاء اللوطيين إلى الهند!» كان سورنچان مريضاً ومجهداً من سماع هذه الأشياء. لم يعد لديه أى ثقة بالحزب الاشتراكى أو أى زعيم شيوعى. لقد سمع الكثير من قادة اليسار يشتمون عندما يأتى ذكر الهندوس: «هؤلاء الخنازير الملاعين». حتى هندوس الحزب الشيوعى كانوا ينحنون للمناخ الحالى. كريشنا بينود روى أصبح اسمه كبير بهاى وبارين دوتا غير اسمه إلى عبد السلام. إذا حدث هذا حتى فى الحزب الشيوعى، ففى من يثق المرء؟ أم يجب أن ينضم إلى حزب الجماعة الإسلامية؟ يذهب إلى نظيم مباشرة ويقول: «السلام عليكم!» وفى اليوم التالى تصرخ الجرائد اليومية بمانشيتات تقول: «هندوسى ينضم إلى الجماعة الإسلامية». حتى فى قاعة جاجانات، التى كانت مقراً مقصوراً على الأولاد الهندوس يمكن أن تجد صوتاً للجماعة الإسلامية. والسبب هو المال. إذا أعطى المرء خمسة آلاف تاكا شهريا فلماذا لايعطى صوته للجماعة الإسلامية. تمنى سورنچان لو يثأر من الجماعات اليسارية التى سرقت آماله بدلاً من أن تحققها. فى الحقيقة أعضاء هذه الأحزاب استقالوا واحداً تلو الآخر وانضموا إلى الأحزاب الأخرى. إنهم يقولون شيئاً اليوم ويعزفون لحنا مختلفاً تماما فى اليوم التالى.

واصل سورنچان تأملاته فى مواقف الأحزاب اليسارية المهزوزة فى الوقت الذى انتشرت فيه المدارس الدينية فى كل أنحاء البلد وأصبحت وزارة الشئون الدينية تنفق ملايينها على المساجد والمعاهد الدينية الإسلامية بينما لاتخصص للديانات الأخرى سوى الملاليم. فكر سورنچان: ألا نبالى أبداً بمستوى معيشة الناس؟ بديوننا الخارجية؟ كيف ننفق هذه الملايين على الشئون الإسلامية بينما الاقتصاد معاق تماماً؟ هذا التوزيع غير العادل للميزانية هو السبب فى أن الوحدة الوطنية لن تكون لها فرصة على الإطلاق. هل يفكر أى أحد فى هذا؟ كان سورنچان يتساءل عندما فتح الباب ودخل كاچال ديبناث.

- ماالأمر ياسورنچان؟ لماذا تنام فى هذه الساعة؟

- ليس لدى ساعات محددة لأى شىء؟

تحرك سورنچان ليخلى مكاناً بجواره لكاچال

- هل عادت مايا؟

أجاب سورنچان بتنهيدة طويلة:

- لا..

- ماذا تقترح أن نفعل، أعتقد أنه يجب أن نفعل شيئاً.

- ماذا نفعل؟

تعدى كاچال ديبناث سن الأربعين وكان له شعر رمادى. جبهته تغضنت بالعبوس وهو يخرج علبة سجائره ويقدم سيجارة لسورنچان. مد سورنچان يده وأخذ السيجارة. مر وقت طويل لم يشتر فيه سجائر. لم يكن معه نقود ولم يجرؤ على أن يطلب من كيرونموى. كان خجلاً حتى من الذهاب إلى حجرتهما، كما لو أن عار خطف مايا يقع عليه بالكامل. ربما كان ذلك صحيحاً، لأنه قبل كل شىء هو أكثر من أى أحد، الذى أراد أن يعتقد أن هذا البلد غير طائفى. بالطبع كان خجله أكثر من أى شخص آخر. لم يستطع أن يذهب ويظهر وجهه لأبيه الشريف المثالى. دخن سيجارته على معدة خاوية. لو رأته مايا لاعترضت قائلة: «دادا، أنت تؤذى نفسك تماما! إذا دخنت على معدة خاوية سوف تموت بالسرطان، ألا تعرف ذلك؟». لو أنه يمرض بالسرطان، لن يكون الأمر سيئاً. يستطيع عندئذ أن يرقد فى انتظار الموت. على الأقل لن يضطر إلى انتظار تحقق أية آمال. لم يكن كاچال ديبناث يعلم ماذا يفعل. ولهذا قال:

- اليوم أخذوا أختك، غداً سوف يأخذون ابنتى. سيفعلون ذلك بالطبع. اليوم ضربوا جوتام على رأسه، غداً قد يكون أنت أو أنا .. هل أتوا إلى هذه الغرفة أيضاً.

- نعم .

- ماذا كانت تفعل مايا فى ذلك الوقت؟

- يقولون أنها كانت تطبخ الأرز لإطعام أبى .

- ألم يستطيعوا ضرب هؤلاء الأوغاد؟

- كيف يمكنهم ذلك؟ كانوا يحملون قضبانا حديدية . فى كل الأحوال، ليس من حق الهندوس أن يلمسوا المسلمين، أليس كذلك؟ فى الهند الأقلية المسلمة لها حق الثأر. عندما تصطدم مجموعتان متعارضتان هنا فقط يمكن أن تسمى ذلك أحداث عنف. مايحدث هنا ليس أقل من إرهاب طائفى، أو حتى تعذيب وقمع واضطهاد، جماعة تعتدى عشوائيا على جماعة أخرى.

- ألا تعتقد أن مايا ستعود؟

- لاأعلم .

فى كل مرة يتحدث فيها سورنچان عن مايا يشعر بصوته يختنق و بخواء فى قلبه. قال ليغير مجرى الحديث:

- كاچال دا، مااللذى يمكن أن يحدث فى هذا البلد أكثر من ذلك؟

نظر كاچال إلى السقف، نفخ دخان سيجارته وقال:

- ٢٨ ألف منزل، ٢٧٠٠ محل تجارى، ٣٦٠٠ معبد، وموت ١٢ شخصاً، الأضرار تقدر بمليارى تاكا! قرية وراء الأخرى دمرت، ٤٣ منطقة أضيرت، ٢٦٠٠ امرأة اعتدى عليهن.. من المعابد التى لايرجى إصلاحهاجورانجامهابرابهو الذى يبلغ عمره ٥٠٠ سنة. فى جنوب سيلهيت دمر معبد عتيق عمره مئات السنين..

سأل سورنچان:

- هل عرضت الحكومة أى مساعدة؟

– لا، والأكثر من هذا أنها لم تسمح للمنظمات الإنسانية بالمساعدة، الآلاف والآلاف مشردون يعيشون فى العراء بدون طعام أو ملابس. البنات اللواتى تعرضن للاغتصاب إما أصبن بصدمة فقدن معها القدرة على الكلام وإما لايوجد لهن أثر. رجال الأعمال فقدوا كل شيء. إجمالى الخسائر مليار و٧٠ ألف تاكا، إذا أضفت المحلات التجارية يزيد المبلغ ٢٢٠ مليون تاكا أخرى.

– أوه، لايمكننى احتمال المزيد .

– هل تعرف، أسوأ شيء أن الخروج الجماعى من البلد قد بدأ. يبدو أنه لاوسيلة لإيقافه. الحكومة تردد دائماً أن الهندوس لايغادرون البلد. ولكن هذا غير صحيح. ربما قرأت عن ذلك فى مجلة «ديش» التى تصدر فى كالكتا. على الأقل ١٥٠ ألف بنجلاديشى عبروا الحدود الهندية، ومعظمهم لم يعد. فى العقدين الأخيرين أكثر من نصف مليون شخص من الأقليات أجبروا على مغادرة البلد.

إستمر الحديث حول هجرة الهندوس. خرج كاچال إلى الشرفة ليهدىء مشاعره المستثارة ثم عاد إلى الحجرة وقال:

– أرغب فى كوب من الشاى . هيا لنذهب إلى أحد محلات الشاى.

ملابس سورنچان كانت متسخة لأنه لم يغيرها ولم يستحم منذ أيام، كما لم يتناول وجبة جيدة منذ وقت طويل، ولذلك قفز عندما سمع اقتراح كاچال وقال:

– هيا نذهب، الجسم يصدأ من الرقاد هكذا .

فى الطريق واصلا الحديث عن هجرة الهندوس، وموقف الحكومة من قانون «ملكية الأعداء» فى عهد حكومة مجيب، ثم موقف حكومة ضياء الرحمن الذى ألغى مبدأ العلمانية من الدستور، ثم حكومة ارشاد الذى أعلن أن الإسلام ومبادىء القرآن هى القواعد التى يعاد صياغة الدستور على أساسها. توقفا عند محل للشاى. جلسا فى مواجهة بعضهما. سأل كاچال:

– هل تأكل شيئاً مع الشاى؟

أطرق سورنچان بالموافقة. بعد أن انتهيا من الأكل طلب كاچال بعض الماء من الصبى الذى يخدمهما:

- هل يمكن أن تحضر لنا بعض الـ «البانى»؟

فوجىء سورنچان باستخدام كاچال لكلمة «بانى». فى البيت كان دائماً يستخدم كلمة «چال» ولكنه اليوم قال «بانى». هل يستخدم هذه الكلمة فى العلن دائماً؟ أم أنه خائف؟

كان على وشك السؤال ولكنه منع نفسه. انتابه شعور بأن عدداً من العيون تراقبهم. أسرع باحتساء جرعة من الشاى. هل هو خائف أيضاً؟ ماالذى يخيفه هكذا، حتى أنه «لسع» لسانه بالشاى الساخن، الشاب الصغير الذى يبدو أنه يراقبه من المائدة المجاورة له لحية طويلة ويرتدى طاقية على رأسه. إنه فى حوالى الواحدة والعشرين من العمر. شعر سورنچان بأنه لابد أحد الذين اختطفوا مايا. والا فلماذا ينظر إليه هكذا؟ اعتقد أيضاً أن الشاب يبتسم لهما بسخرية. هل يبتسم لأنه يبعث له برسالة. «ماشعورك؟ لقد قضينا وقتاً رائعاً مع أختك..». فجأة لم يعد يتحمل المزيد. نهض بسرعة وقال:

- هيا ياكاچال - دا، فلنذهب. لاأحب هذا المكان .

- نذهب؟ بسرعة هكذا..

- نعم، لاأستطيع احتمال هذا المكان.

اليـــــوم العـــــاشـــــر

لاچـــــا

تقلب سورنچان فى فراشه طول الليل . منعه الاكتئاب من النوم . جاءت كيروئموى الى حجرته فى الصباح . ربما أرادت أن تسأله عما إذا كان لديه أخبار عن مايا . هل سيعيشون باقى حياتهم بدون مايا ؟ خلال الايام القليلة الماضية اصبحت كيروئموى خامدة الهمة أكثر فأكثر . دوائر سوداء ظهرت حول عينيها وتجعد وجهها.لم تكن تتكلم أو تبتسم أبدا . تظاهر سورنچان بأنه نائم .

على مدار هذه الأيام الرهيبة لم يدع كيروئموى ترى مدى معاناته الداخلية . كانت تترك له الطعام على مائدته كل يوم . أحيانا كان صمتها يثير حنق سورنچان .

أليس لديها ما تقوله لزوجها المريض عن ابنها الحاضر بالبدن فقط أو عن ابنتها المفقودة ؟ هل أصبحت حجراً لا يستجيب لشيء على الاطلاق ؟ أليس هناك شيء تعترض عليه ؟ كم هى غريبة - سلبية و قاسية وجامدة المشاعر كما لو كانت جثة .

قرر سورنچان أن ينام طوال اليوم . إنه يحتاج إلى النوم لأنه لم ينم جيداً منذ وقت طويل . ولكن فى كل مرة يغلق عينيه كانت تمتد نحوه يد حيوانية هائلة ترغب فى خنقه . لاواحدة ولكن أيادى كثيرة تندفع نحوه . ببساطة لم يستطع ان يحظى بلحظة من السلام ...

**

نونيچوبال ، أحد أقارب سودهاموى البعيدين أتى من مانيكجونى مع زوجته وابنه

وابنته لزيارتهم . لم تبد عليه الدهشة من الخراب الذى حدث لمنزل سودهاموى ، ولكنه اكتفى بأن يقول :

- إذن فهم لم يبقوا على منزلك أيضاً؟

لوليتا ، زوجة نونيچوبال مسحت السيندور الذى يميز نساء الهندوس عن مفرق رأسها . وسحبت السارى على وجهها لتغطى أكبر قدر ممكن منه أيضاً . احتضنت كيرونموى وبكت بصوت مرتفع . ابنتها،لوليتا وقفت تراقبها ببلاهة . لم يستطع سودهاموى أن يتذكر اسمها . كانت فى عمرمايا تقريبا ، ربما أصغر قليلا. نظر نحوها وامتلات عيناه بالدموع . مايا لم تعد هنا . لم يستطع أن يقبل هذه الحقيقة التى لا تصدق . كان يريد أن يصدق أن مايا بجواره أو أنها خرجت لتلقى دروسها وسوف تعود فى المساء . الحقيقة أن كل شخص فى البيت كان يراوده الأمل فى أن مايا ، بعد أن تعذب وتغتصب وتضرب ، سوف تعود ذات يوم . قال نونيچوبال :

- دادا ، أعتقد أنه لم يعد يمكن البقاء فى هذا البلد . ابنتنا كبرت ، وهذا يزيد رعبنا ...

أبعد سودهاموى عينيه عن الفتاة ونظر إلى نونيچوبال وقال :

- لاتقل شيئا عن الرحيل ، لا أرغب فى سماع هذا .. أعرف أن عائلة جوتام المجاورة لنا سيرحلون أيضاً .. ماذا تعتقد أنك فاعل ؟ أليس هناك مجرمون فى المكان الذى تخطط للهرب إليه ؟ أليس هناك أى شىء يدعو للخوف فى هذه الأماكن ؟ الفتيات الصغيرات غير آمنات فى كل مكان . هل تعرف أن العشب يكون اكثر إخضراراً فى أرض الآخرين ؟ هذه هى مشكلتك .

نونيچوبال أحنى راسه . كان يرتدى " كورتا " و " بيجاما " مثل المسلمين . لم يكن هناك ما يقوله أمام غضب سودهاموى ولذلك جلس بهدوء ، محنى الرأس .

فجأة انخرطت لوليتافى البكاء من جديد . لم تقم كيرونموى بأى حركة لتهدئتها أو لتتحدث مع ضيوفها . لم تستطع حتى أن تقول أن مايا اختطفت . نونيچوبال كان تاجر أخشاب . أحرقوا المخزن الذى يحتفظ فيه بالخشب . . . لكن حتى هذا لم

يخيفه بقدر ما أخافه إحتمال خطف إبنته أنجالى .

- دادا ، لوليتا لها قريب في فيني بولاية فرشاندبور.خطفوه وسرقوا كل ممتلكاته وقتلوه بعد ذلك . فى بنغالى خطفوا ميكو إبنة شاندرا التى تبلغ من العمر أربعة عشر عاما واغتصبوها ، ألا تعلم ذلك ؟ الفتاة ماتت ، فى فيد هرام خطفوا ناديتا ابنة ماريندرا هيرا ، فى بانشهارامبور خطفوا ابنة كشيتش واغتصبوها . فى تانجالى اختطف تاجر مسلم ابنة سودهير شاندرا داس ، فى بهالوكا خطفوا ابنة بورنا شاندرا باومان ، فى رانجبور خطفوا ابنه تنكورى شاها، ألم تسمع عن كل هذا ؟

سأله سودهاموى بضعف :

- متى حدث هذا ؟

- عام ١٩٨٩

- كل هذا حدث منذ سنوات ولا تزال تذكر كل شيء بوضوح ؟

- كيف ينسى المرء هذه الأشياء؟

- ألم تسمع عما حدث للمسلمات الباريبانو وأنوارة ومونو وارة وصوفيا وسلطانة؟ ألم يختطفن أيضا ويغتصبن ؟

مرة أخرى نكس نونيچوبال رأسه ، وقال بعد برهة :

- سمعت أنك مريض ، فى الحقيقة كنت أنوى أن آتى لأراك منذ أيام ، ولكن كان يجب أن أتاكد أن الوضع آمن على أسرتى . قبل الرحيل قررت أن أتى لأراك ربما لآخر مرة . سوف نرحل الليلة إلى بنا بول عبر الحدود . لن نستطيع أن نبيع منزلنا وممتلكاتنا ولهذا طلبت من ابن عم للوليتا أن يبيعها لنا متى أستطاع .

أدرك سودهاموى أنه لافائدة من محاولة إثناء نونيچوبال عن الرحيل . لكن الأمر بقى كما هو ، لا يستطيع أن يفهم ما الذى يأمل فيه الناس من وراء الرحيل . إذا تناقص عدد الهندوس فى البلد أكثر فسوف يزداد إضطهادهم . فى الحقيقة إنه موقف خاسر للذين يبقون والذين يرحلون أيضاً. وخسارة للفقراء والأقليات .

تساءل سودهاموى : كم بالضبط عدد الهندوس الذين يجب أن يعانوا ويموتوا فى هذا البلد من أجل تسديد أخطاء هندوس الهند ، سواء أخطاءهم فى الماضى أو فى الحاضر ؟ لو عرف ذلك ، فربما يستطيع أن ينتحر ، حتى يقدم بذلك بعض السلام للهندوس .

**

فى المساء جاءت علية بيجوم ، زوجة شفيق أحمد لزيارتهم ، من قبل كانت تأتى لزيارتهم يوميا ولكن فى الفترة الاخيرة توقف كثير من زوارهم عن المجىء ، حتى أبوحيدر وأمه لم يأتيا منذ أيام ، أدرك سودهاموى كم أصبحت كيرونموى وحيدة . عندما فتحت الباب نظرت بدهشة إلى علية بيجوم ، كما لو أنها لا تتوقع أن يزورهم أحد بعد الأن . ولماذا يفعلون ؟ منزلهم أصبح صحراء مقفرة لايناسب سكن البشر ، نظر سودهاموى إلى وجه علية بيجوم المبتسم ، وملابسها الفاخرة ، وحليها المتلألئة ، وتساءل عما إذا كانت كيرونموى تشعر بالنقص فى حضورها . وكما كان يفعل دائما سقط فى التساؤل عما إذا كان قد ظلم كيرونموى .

لقد أتى بابنة اسرة مثقفة ومتعلمة وثرية الى هذه الاسرة اليائسة المفلسة ، وفوق كل هذا حرمها من احتياجات الجسد على مدار الواحد والعشرين عاماً الماضية . دائما مصلحته كانت الأهم ، والا فلماذا لم يصر على أن تتزوج كيرونموى مرة أخرى . ولكن هل كانت سترحل لو طلب منها ذلك ؟ ألم تكن تشتاق سراً إلى حياة مثل حياة علية بيجوم ؟ تمتلىء بالبريق والنشاط ؟ انها إنسانة فى النهاية ولم يكن سيفاجئه أن ترحل ، قال لنفسه ألم يكن خوفه من التوارى أمامها هو سبب حبسه لها على الدوام .

لقد كف عن دعوة أصدقائه إلى بيته ونتيجة هذا أصبح بلا أصدقاء ، ولكن ليس هذا ما كان يقلقه ، الأسوأ من وجهة نظره هو احتمال أن تنجذب كيرونموى إلى أحد أصدقائه " القادرين " . لقد حاول أن يعوضها عن عجزه بحبها بأقصى ما يستطيع ، ليقنعها بأنها لا يجب أن تتخلى عن مثل هذا الحب من أجل متع الجسد ، ولكن هل من الممكن إرضاء مشاعرأحد بالحب فقط ؟ بعد كل هذه السنوات أدرك سودهاموى

أن شيئا أكثر من الحب ربما كان مطلوباً.

رأت علية بيجوم حطام الغرفة وسودهاموى نصف المشلول ، وسمعت بإختطاف مايا، وعبرت عن تعاطفها وحزنها ، وفى لحظة ما سألت كيرونموى :

- بودى ، أليس لكم أقارب فى الهند ؟

-بلى ، كل أقاربنا هناك تقريبا .

- إذن لماذا لا تلحقى بهم .

- لأن هذا بلدى .

لم تستطع علية إخفاء دهشتها من رد كيرونموى . بعد كل شيء ، كيف يمكن لكيرونموى أن تقول بثقة علية نفسها ، أن هذا بلدها ؟ فهم سودهاموى فى تلك اللحظة أن كيرونموى وعلية ، بالرغم من كونهما إمرأتين ومواطنتين فى نفس البلد ، لا يمكن أن ينظر إليهما بنفس النظرة ، فى مكان ما هناك ، خط رفيع من التمييز يفصل بينهما .

اليـــــوم الحـــادى عشـــر

لاچـــــا

إنه يوم «عيد النصر» الذى حصلت فيه بنجلاديش على استقلالها أخيراً. كلمة استقلال تلدغ سورنچان مثل نملة سامة. البلد كله ملىء بالحركة إستعداداً للاحتفال بالمناسبة العظيمة. مواكب العروض العسكرية ملأت الشوارع والجموع خرجت تحييها بسعادة وابتهاج.

فيما مضى كان سورنچان يغادر البيت مبكراً هذا الصباح ويشارك فى الاحتفالات التى تجرى فى كل أنحاء المدينة، ومن ذلك ركوب إحدى الشاحنات وغناء الأناشيد الوطنية. اليوم، يشعر سورنچان أن هذا كله تضييع للوقت، هل جنى أى شىء من استقلال البلد؟ أى استقلال حصل عليه؟

«چو بانجلا، بانجلار چوى» وكل أنواع التمجيد فى بنجلاديش التى رددها عدد كبير من الشعراء على رأسهم رابندرا نات طاغور الحاصل على جائزة نوبل، ونازرول وجيبانانا نداخطرت ببال سورنچان. وبقدر ماكان يحب الاشتراك فى هذه الأناشيد، بقدر مالا يحب ذلك الآن. الحماس الذى ينتابه فى هذه المناسبات حاول أن يطل برأسه ولكنه قرر أن يسحقه هذه المرة. وهو يرقد فى فراشه طوال النهار، ولدت رغبة معينة فى رأس سورنچان، استحضر هذه الرغبة السرية بعناية رقيقة وفعل كل شىء ليحتفظ بها حية، حية لدرجة أنها كانت لتكتسب بالفعل جناحاً وتطير. طوال اليوم غذى سورنچان رغبته وسقاها بالماء ورعاها بعناية. راقبها تنمو وتزهر. حتى أصبح بإمكانه أن يتنفس فى أريجها.

وأخيرا ترك سورنچان البيت فى حوالى الثامنة مساء. أخبر سائق الريكشا أن يذهب إلى أى مكان يرغب فيه. أخذ السائق سورنچان إلى توبخانا وبيجوى وناجار وكاكديل وموج بازار وأخيرا إلى رومانا. نظر سورنچان إلى زينات المدينة المضيئة.

هل الشوارع المضيئة تعرف أنه هندوسى! لو أنها عرفت، لربما انشقت الطرق الأسفلتية اعتراضاً. الرغبة التى تحترق فى كل خلايا ونسيج جسمه، لابد أن تتحقق اليوم بأى شكل. إشباع هذا الجوع ربما لايحل شيئاً، ولكنه قد يعطيه إحساسا هائلا بالرضاء. الأكثر من هذا أن الاستسلام لهذه الرغبة كان من شأنه، على الأقل إلى حد ما، أن يخفف من غضبه وأسفه ومعاناته.

طلب سورنچان من سائق الريكشا أن يتوقف أمام حانة «بار كاونسل» وأشعل سيجارة. لقد فقد الأمل فى العثور على مايا، وقرر أن يخبر والديه بألا يتوقعوا عودتها. ربما يكون الأمر أسهل إذا حاولوا أن يتصوروا أنها ماتت فى حادث طريق.. دار عقله وغرق فى اليأس مرة أخرى.

بالأمس فقط تحسنت صحة سودهاموى وتمكن من ممارسة النشاطات الطبيعية. وانحصر الأمر فى التأوه بالألم والمعاناة طوال اليوم من فقدان مايا، هذه الحالة المثيرة للشفقة التى لم يكن يطيق سورنچان أن يتحمل النظر إليه فيها. لابد أنهم يمزقون مايا مثل الطيور الجارحة التى تمزق فريستها. لابد أنهم صنعوا منها وليمة.. هل استمتعوا بها كما يستمتع أكلة لحوم البشر بالتهام ضحاياهم؟ هذه الأفكار سببت آلاماً رهيبة لسورنچان، كما لو أنه هو الذى يتمزق تحت أسنان سبعة من الضباع.

لم يكن قد أنهى سيجارته، عندما تقدمت من عربة الريكشا فتاة فى حوالى العشرين من عمرها، يلمع وجهها الملطخ بالبودرة والماكياج تحت أضواء النيون. ألقى سورنچان بالسيجارة وقال للفتاة:

– تعالى هنا.

استندت الفتاة على العربة، ولفت السارى حول كتفها وابتسمت. سألها سورنچان:

- ماسمك؟.

ضحكت الفتاة وقالت:

- بينكى.

- أخبرينى باسمك الكامل؟

- شاميما بيجوم.

- واسم أبيك؟

- عبد الجليل .

- أين تقيمين؟ .

- فى رانجبور.

- ماسمك مرة أخرى؟

- شاميما .

راود الشك الفتاة. لم يسألها أحد من قبل عن اسم والدها أو عن مكان سكنها. ماأغرب هذا «الزبون»! نظر سورنچان إلى الفتاة بحدة، هل هى تكذب؟ ربما لا.

- حسنا، ادخلى إلى الريكشا.

دخلت شاميما العربة. طلب سورنچان من السائق أن يذهب إلى تيكاتولى. فى الطريق حدق أمامه ببرود. لم يتحدث إلى الفتاة أو ينظر نحوها.. اقتربت منه وكأنها لاتلاحظ سلوكه واستمرت فى الثرثرة. أحياناً كانت تدندن بأغنية وفى أحيان أخرى كانت تقهقه ضاحكة. لكن سورنچان لم يبد أى استجابة. فقط كان يشعل سيجارة وراء الأخرى. نظر عدة مرات إلى ركابه وبدأ ينشز بين حين وآخر ببعض أغانى الأفلام الهندية.

الشوارع غطت نفسها بالزينات والأضواء الحمراء والزرقاء، كانت تضىء المدينة كلها. سورنچان وحده لم يكن يشارك فى البهجة. كان هادئاً رابط الجأش، يخطط لكل فعل قبل القيام به هذه الليلة.

كان قد أغلق حجرته من الخارج قبل ذهابه، حتى لايطرق الباب الرئيسى أو يتسبب فى إزعاج عند رجوعه. فى الصمت، دخلا الحجرة، وعلى الفور قالت شاميما:

- لم نتحدث فى السعر ولامرة..

أومأ إليها سورنچان بالتزام الصمت قائلاً:

- اسكتى تماما

الحجرة لاتزال فى فوضى، ملاءات السرير مدلاة حتى الأرض، لاصوت يأتى من الحجرة المجاورة. لابد أنهما مستغرقان فى النوم. أرهف سورنچان أذنيه، سمع سودهاموى يتأوه. هل يعرف أن ابنه العزيز، الطالب اللامع، أحضر إلى البيت عاهرة!

سورنچان، على كل الأحوال، لم يكن ينظر إلى شاميما باعتبارها عاهرة. بالنسبة له هى فتاة تنتمى لطائفة الأغلبية. وكان يتوق إلى اغتصاب واحدة منهم، انتقاما لما فعلوه بأخته. أطفأ أنوار الغرفة. ألقى الفتاة على الأرض وعراها من كل ملابسها. تنفس بسرعة وعمق وهو ينشب أظافره فى جسد الفتاة. عض صدرها. جزء من عقله كان يدرك أن مايفعله ليس حباً بالتأكيد. شد شعرها بقسوة، عض خدها وعنقها وثدييها. بأظافره الحادة خربش خصريها وبطنها ومؤخرتها وفخذيها. فى النهاية الفتاة ليست سوى عاهرة! ! وهو يهاجم جسدها العارى كانت الفتاة تتأوه بالألم وتصرخ من حين إلى أخر:

- ياإلهى! أنا أموت ألماً..

ضحك سورنچان بوحشية وواصل إيذاءها حتى لم يعد باستطاعته المزيد وعندئذ اغتصبها. وهو يتحرك فوقها فكرت الفتاة بخوف أن هذا هو أسوأ زبون التقت به فى حياتها. تماما مثل غزال يحاول الفرار من نمر، استطاعت أن تجر نفسها بعيداً عنه وأمسكت بساريها وأسرعت إلى الباب.

كان سورنچان قد هدأ الآن وأزاح عبئا ثقيلا عن كاهله. الرغبة التى أحرقته طوال

اليوم تحققت.

الآن، كل مايحتاج إليه لكى يكون سعيدا فعلاً هو أن يرفس الفتاة خارج منزله. بينما بدأ التوتر ينسكب فى جسده مرة أخرى، ازداد تنفسه ثقلاً. هل ينبغى أن يرفس الفتاة خارج المنزل؟ وقفت الفتاة عند الباب عارية وخائفة. لم تجرؤ على توجيه أى سؤال منذ أن أمرها بألا تتكلم.

أين مايا ياترى؟ هل قيدوا يديها وساقيها قبل اغتصابها؟ هل اغتصبها السبعة كلهم؟ مايا المسكينة.. لابد أنها تعرضت لآلام هائلة، لابد أنها صرخت عالياً، ذات مرة، عندما كانت فى الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمرها صرخت مايا أثناء نومها «دادا... دادا». أسرع سورنچان إليها ووجدها ترتجف. سألها عن سبب ارتعاشها. حتى بعد الاستيقاظ كانت لاتزال ترتجف، لأن الكابوس لم يكن قد أرخى قبضته عنها. حكت له:

- أنا وأنت ذهبنا إلى قرية جميلة، كنا نتمشى فى حقول الأرز الخضراء المزهرة، نتحدث معاً.. وكان هناك بعض الناس أيضاً، يتحدثون إلينا بين فترة وأخرى.. فجأة لم تعد أنت موجوداً وجاء بعض الرجال ليمسكوا بى. كنت فى غاية الرعب وواصلت الجرى هرباً بعمرى وأنا أنادى عليك.

عزيزتى مايا، أيتها المسكينة. فكر سورنچان فى أخته المفقودة، وتسارعت أنفاسه من جديد، لابد أنها محبوسة داخل غرفة فى مكان ما، تصرخ طلباً للمساعدة ولكن أحداً لايسمعها، لابد أنها تبكى، وليس هناك من يسمعها، ربما كانت داخل غرفة مغلقة تتوسل وتنزف وتبكى أمام مجموعة من الحيوانات المتوحشة. أين مايا؟ هذه المدينة صغيرة. ولكنه لم يعلم حتى الآن: أين أخته، هل هى فى صندوق قمامة، أم فى بيت دعارة، أم أنها ملقاة فى قاع نهر بورجانجا؟ أين؟ آه، أين مايا؟ كل ماكان يريده الآن هو أن يمسك بالفتاة الواقفة بالباب ويلقى بها إلى الخارج.

الفتاة المرعوبة من سلوك سورنچان ارتدت ملابسها بأسرع مايمكنها وقالت:

- اعطنى نقودى.

- اخرسى! اخرجى من هنا. أنا أحذرك، اخرجى فوراً!

فتحت شاميما الباب ووضعت قدماً فى الخارج. ترددت ثم عادت إلى سورنچان بنظرة تمتلىء بالتوسل. كان الدم يسيل من خدها وهى تقول:

- حتى لو كانت عشرة تاكا. أرجوك أعطنى إياها.

اهتز جسد سورنچان بالغضب. لكن نظرات الفتاة هدأت ثورته بعض الشىء. إنها فتاة فقيرة فى النهاية.. تبيع جسدها لتطعم فمها. إنها ضحية النظام الاجتماعى القاسى الذى تجاهل أية امكانيات قد تكون تتمتع بها وألقى بها إلى البالوعة. ربما تريد نقود سورنچان لشراء وجبة. سحب سورنچان عشرة تاكا من جيبه وأعطاها للفتاة وقال:

- أنت مسلمة، أليس كذلك؟

- نعم.

- أنتن معتادات على تغيير الأسماء. هل غيرت اسمك؟

- لا.

- حسنا، يمكنك الذهاب.

رحلت شاميما. استرخى سورنچان. وعد نفسه بأنه لن يرثى على حاله اليوم. اليوم هو «عيد النصر» الجميع يستمتعون بثمار الاستقلال الذى فازوا به منذ واحد وعشرين عاما. اليوم تحقق حدث هام فى تاريخ البشرية. شاميما بيجوم جاءت إلى منزل سورنچان دوتا وتم غزوها. أراد أن يطرقع أصابعه ويغنى أغنية وطنية معروفة تقول كلماتها: «بنجلاديش حبى الأول والأخير.. أعيش لبنجلاديش، وأموت لبنجلاديش»

لم يذكر اسمه لشاميما. كان المفروض أن يخبرها بأنه سورنچان دوتا.. كانت ستعرف ساعتها أن الرجل الذى عضها وجعلها تنزف هندوسى. نعم، الهندوس يعرفون أيضاً كيف يغتصبون. هم أيضاً لهم أياد وأقدام ورؤوس تمتلئ بالأفكار. أسنانهم حادة وأظافرهم يمكنها الخدش مثل المخالب.. شاميما فتاة رقيقة وناعمة..

ولكنها مسلمة، لو أنه يستطيع حتى أن يصفع مسلماً، لجعله هذا سعيداً.

تقلب سورنچان بلا راحة بقية الليل. بدا أنه ينعس، ولكن النوم جافاه. طوال الليل بقى وحيدا فى صحبة الصمت والسكون وإحساس مفزع بعدم الأمان. لقد أراد اليوم أن يقوم بانتقام صغير، ولكنه فشل. لم يكن قادراً على الانتقام. طوال الليل أخذت تعذبه الذكرى الحية لوجه شاميما. شعر بأسف رهيب من أجلها. المفروض أن يشعر بالغضب والقوة، ولكنه لم يشعر بذلك. إذن، فأى نوع من الانتقام هذا الذى قام به؟

بل يمكن القول أنه نوع من الهزيمة له. هل كان سورنچان مهزوماً فى حقيقة الأمر؟ نعم، بالطبع، كان خاسراً لأنه لم ينجح فى الغدر بشاميما. وضعها الاجتماعى هو الذى كان يغدر بها. بالنسبة لها ليس هناك فرق بين ممارسة الجنس والاغتصاب. انكمش سورنچان فى فراشه وهو يدرك هذه الحقيقة. غمره خجل مؤلم. الوقت متأخر جداً.. لماذا هو يقظ هكذا؟ هل اختل نظامه كله؟ كما لو أن كل شيء داخله يتحطم تدريجيا، منذ أن تحطم مسجد بابرى. فى الواقع شعر بالأسف لأجل الفتاة التى مزقها برجولته وعضها وأدماها بغزارة! لو أنه استطاع فقط أن يمسح الدم من خديها قبل أن ترحل! هل سيلتقى بها ثانية أبدا! إذا رآها مرة أخرى فسوف يطلب منها أن تسامحه.

شعر بالحرارة رغم الجو البارد. ألقى بغطائه.. ملاءة السرير بالقرب من قدميه كانت ملتوية. وضع رأسه بين ركبتيه مثل كلب.

فى الصباح الباكر أراد أن يتبول ولكنه لم يرغب فى مغادرة سريره. كالعادة جاءت كيرونموى وتركت له الشاى، لكنه لم يشعر برغبة فى شربه، شعر برغبة فى التقيؤ، وأكثر من أى شيء، أراد أن يستحم بماء ساخن. ولكن من أين يمكنه الحصول على الماء الساخن؟ فى بيتهم فى براهما بالى، كان هناك حوض اعتاد أن يستحم فيه فى صباحات الشتاء الباردة. كان يحب الاستحمام فى هذا الحوض الفاخر.. ولكن أين يمكنه أن يجد مثله الآن؟ لقد كره التحمم بحصة الماء القليلة فى الحمام. لماذا يجب أن تكون الحياة بهذا البخل والتقتير؟

اليـــــوم الثـــــانى عشــــر

لاچــــــا

نهض سورنچان من فراشه فى العاشرة من صباح اليوم التالى. كان يغسل أسنانه فى الشرفة عندما سمع أشرف ابن خادم على يقول لكيرونموى:

- ما شيما، إن بوتو كان يقول ليلة أمس أنهم عثروا على جثة فتاة طافية تحت جسر چنداريا تشبه مايا.

تيبست قبضة سورنچان على فرشاة الأسنان وسرت رعشة خفيفة فى جسده. أحس أنه وحيد بشكل مرعب وفظيع. لم يتمكن من سماع شئ من أركان البيت الأخرى. لا بكاء، لاشئ. المنزل كله صامت وساكن بشكل غير طبيعى. كما لو أن أقل جملة تقال سيكون لها صدى على حوائط الصمت التى ترتفع حول البيت. كما لو أن أحداً لا يعيش فى هذا المنزل على مدار الألف سنة الماضية سوى سورنچان. كل المدينة راقدة فى هدوء. لم تستيقظ بعد من احتفالات «عيد النصر» ليلة أمس. كان لا يزال واقفا يحمل فرشاة أسنانه عندما مر حيدر. ولأن عيونهما إلتقت تطلب الذوق أن يتبادلا التحيــة. توقف حيدر وسأل سورنچان:

- كيف حالك ؟

ابتسم سورنچان قائلاً:

- رائع!

كان متوقعاً أن يدور حوارهما حول مايا ولكن لم يحدث. استند حيدر على سور

الشرفة وقال :

– بالأمس فى جامعة راجشاهى، بعد الاحتفالات، نبش أعضاء «معسكر الجماعة» المقابر الجماعية .

بصق سورنچان بعض معجون الأسنان على الأرض وقال :

– ماذا تعنى بالمقابر الجماعية؟

نظر حيدر إليه مشدوهاً:

– ألا تعلم معنى المقابر الجماعية؟

هز سورنچان رأسه. تكدر وجه حيدر بالارتباك. كيف يمكن لسورنچان ، الذى كان فى وسط حركة الأحداث خلال حرب الإستقلال، ألا يعرف معنى المقابر الجماعية.

فكر سورنچان، إذا حطم أفراد المعسكر شواهد القبور الجماعية فأهلاً وسهلاً بهم. إنهم يحملون أسلحة وإذا وجدوا أى سبب لإستخدامها، فمن يمكنه أن يمنعهم؟ حتى إذا حطموا الاستقلال غير المرئى والوطن نفسه بكل من حاربوا لأجله، فمن يمكنه أن يمنعهم؟ سوف تنظم بعض المسيرات والاجتماعات وتردد بعض الشعارات مثل «لابد من إنهاء سياسات قادة شباب جماعة شيبر». وسيكون هذا كل شئ. هذه الاعتراضات لا يمكن أن تغير شيئا. بعد ومضة إنزعاجه سقط حيدر فى الصمت. بدا أنه يرغب فى قول شئ. بعد لحظات قال :

– هل عرفت؟ بارفين هنا هذه الأيام. لقد طلقت من زوجها.

لم يعلق سورنچان. لم يشعر بأقل الأسف على طلاق بارفين. على العكس كان سعيدا. لقد أصروا على تزويجها لمسلم بدلاً من الهندوسى ، وهاهم يرون إلى أين أدى بهم ذلك ! شتم سورنچان بارفين شتيمة جنسية فى خياله. فى هذا الوقت المبكر من الصباح، وخصوصاً والمرء يغسل أسنانه، ليس للشتيمة الجنسية أى جاذبية. ولكن فى هذه الحالة، طالما أنه يقتصر على عقله، كان للأمر جاذبيته. بعد برهة قال حيدر:

– أراك فيما بعد.

ثم رحل. لم يقل سورنچان شيئا على الإطلاق.

أصبح سودهاموى قادراً على الجلوس الآن. بمساعدة مخدة تسند ظهره جلس يستمع إلى صمت المنزل. فكر فى أن الشخص الوحيد الذى كان يرغب فى الحياة فى هذا البيت هو مايا. لولا مرضه، لما أتت مايا من عند بارول ولما اختطفوها بهذه الطريقة. يقولون أن شخصا ما رأى جثتها تحت الجسر. من يذهب ليتعرف على الجثة؟ عرف سودهاموى أن أحدا من أسرته أن يذهب لأنهم يريدون جميعا أن يصدقوا أنها ستعود فى يوم من الأيام. إذا تعرفوا على الجثة واتضح أنها مايا، فسوف يتلاشى الأمل فى أنها ستعود خلال يوم أو يومين، أو ربما شهر أو شهرين، أو حتى أطول من ذلك. هناك أنواع من الأمل تساعدنا على الحياة. القليل جدا فى هذه الحياة يجعلها تستحق أن نعيشها، ولذلك لا معنى فى أن نفقد هذه الآمال التى تجعل الحياة تستمر. استدعى سورنچان. مر وقت طويل لم يفعل فيه ذلك. طلب منه الجلوس بجواره وقال بصوت منكسر:

- أخجل من الجلوس هكذا خلف الأبواب والنوافذ المغلقة .

- هل تشعر بالخجل، حسنا، أنا أشعر بالغضب.

- أيضاً أنا قلق بشدة عليك .

- لماذا؟

- تعود للبيت متأخراً. هاريبادا جاء أمس. الموقف فى بهولا إزداد سوءاً. الآلاف فقدوا منازلهم ونساء كثيرات تعرضن للاغتصاب.

- هل هذه أخبار بالنسبة لك؟

- طبعا، هى أخبار. وهذا سبب قلقى عليك يا سورنچان .

- قلق على؟ لماذا؟ ألست قلقا على نفسك وعلى أمى؟

- ما الذى سيفعلونه بنا؟

– سيقطعون رأسيكما ويلقون بهما فى نهر بوريجانجا. ألا تزال لم تفهم طبيعة الناس فى هذا البلد؟ سوف يصنعون وجبة من أى هندوسى يعثرون عليه. لن يفرقوا بين شاب وعجوز، يمكننى أن أؤكد لك هذا.

تغضنت جبهة سودهاموى بالغضب:

– ألست واحداً من «ناس هذا البلد»؟

– لا ، لم أعد أعتقد أننى جزء من هذا البلد. إننى أحاول جاهداً ولكن لا أستطيع. من قبل عندما كان كاچال – دا يتكلم عن التحيز للمسلمين كنت أنزعج وأقول له «لاتضيع وقتنا بكم خسر الهندوس وكم يتعرضون للحرمان. هناك الكثير يحتاج إلى عمله فى البلد. الأفضل أن نفكر فى هذا». الآن أدرك أنه كان على حق . إننى أتغير. لم يكن ينبغى أن تكون الأمور هكذا يا بابا..

صوت سورنچان كان يتلعثم. ربت سودهاموى على إبنه مطمئنا وقال:

– الناس يتحدثون عن هذا فعلا، ويعترضون ايضاً، الصحف تنشر التقارير عن كل ما يحدث، المثقفون يدلون بآرائهم كذلك.

سورنچان كان متضايقاً الآن وهو يقول :

– كل هذا لغو وهراء. فريق يقتحم الميدان بالسكاكين والفؤوس بينما الفريق الآخر يرد بأصوات مرتفعة وأياد عزلاء. هذا لن يجدى. الفأس يجب أن يقابل الفأس. من الحماقة أن نواجه سلاحاً بأيدى عارية.

– هل تريد أن نتخلى عن أفكارنا الرفيعة؟

– أية أفكار تتحدث عنها؟ كل هذا هراء.

خلال الأيام القليلة الماضية، ازداد شعر سودهاموى شيباً. لقد أصبح ظلاً لنفسه القديمة، لكن عقله لا يزال متمسكاً بمعتقداته.

– لا تنس أن الناس يعترضون على الأقل. فى كم من البلاد يسمح لك هذا؟

لم يتكلم سورنچان. كان يفكر فى أن اسم «جمهورية بنجلاديش الشعبية» سوف يتغير قريبا جدا إلى «جمهورية بنجلاديش الإسلامية» . تعـــاليم الاسلام سوف

توجه أسلوب الحياة فى البلد. النساء سوف يرتدين النقاب وعدد الرجال الذين يرتدون الطواقى ويطيلون اللحى سوف يزداد أيضاً. بدلاً من المدارس والكليات العادية سيكون هناك عدد كبير من المساجد والمدارس الدينية. وببطء ولكن بثقة سوف يذبح كل الهندوس. التفكير فى هذا جلب القشعريرة إلى عظامه. إذا قدر لهم أن يعيشوا بعد ذلك، سوف يبقون فى بيوتهم مثل أعداء المجتمع أو المجللين بالعار. إذا رأى مسيرة فى الشارع تعترض على شئ ما، سوف يبقى فى بيته تجنباً للخطر. المسلمون فقط سيمكنهم الاعتراض بدون تردد، ولكن الهندوسى لن يستطيعوا ذلك . الحاضر نفسه ليس أفضل من هذا. أن يقال أن الهندوس يُضطهدون أمر يفضل أن يقوله مسلم وليس هندوسى. وذلك لأنه ليس هناك بديل. إذا غامر هندوسى بالاعتراض بصوت عال، فإنه يخاطر بقطع عنقه فى منتصف الليل عقاباً له. إذا ارتكب مسلم جريمة سوف يعاقب ولكنهم سيبقون على حياته. اما إذا قال سودهاموى شيئاً لا يجب قوله، فقد يأتون لقتله فى منتصف الليل. إذا قرر الهندوس أن يغضبوا، فلن يرد عليهم المتعصبون فحسب بل المسلمون التقدميون المتمدينون أيضاً. التقدميون فى واقع الأمر يصنفون أنفسهم إلى هندوس ومسلمين! فكر سورنچان فى نفسه كرجل متمدن. الآن، الآن بدأ هو نفسه فى الشعور بأنه هندوسى. مرة أخرى راوده التفكير. هل هو يتعفن من الداخل؟ أنه مقتنع الآن بأنه يتعفن. طلب سودهاموى من سورنچان أن يقترب. وسأله بصوت منكسر:

- ألن نعثر على مايا على الإطلاق؟

- لا أعلم.

- كيرون لم يغمض لها جفن منذ الاعتداء. وهى قلقة عليك أيضاً. اذا حدث لك أى شئ..

- إذا كان يجب أن أموت سأموت. الكثيرون يموتون على أية حال.

- الآن يمكننى الجلوس. كيرون تساعدنى على أخذ حمامى. ولكن إذا لم أعد إلى لياقتى، فلن أكون فى حال تسمح لى بفحص المرض. لم ندفع إيجار البيت منذ شهرين. ربما لو حصلت على عمل..

- لن أعمل لدى غرباء..

- فى الواقع أسرتنا .. أعنى أنه لم يعد لدينا أرض. حقل ملئ بالأرز وحوض ملئ بالسمك، ومزرعة ممتلئة بالبقرات الحلوب.. نعم أنا ذقت كل هذا. أنت لم تر شيئاً منه وذلك يؤسفنى جداً. لقد بعت أرضنا فى القرية. لو أن جزءاً منها كان لا يزال لدينا لكان بإمكاننا أن نبنى بيتا صغيراً وننفق فيه ما بقى من عمرنا.

خرج سورنچان عن شعوره وصاح فى والده بغضب:

- لا تتكلم مثل الحمقى. هل كنت تستطيع العيش فى القرية؟ ألم تدرك أن كبار رجال القرية كانوا سيأتون بقضبانهم ويسحقون رأسك لإجبارك على التخلى عن كل ما تملكه؟

- لايجب عليك أن تشتبه فى الجميع. بالتأكيد هناك بعض الطيبين؟

- لا.. لم يعد هناك أحد منهم.

- أنت متشائم دون داع.

- ليس بدون داع.

- ماذا عن أصدقائك؟ كل هذه الأيام التى درست فيها الشيوعية، وانضممت إلى الحركات الشعبية وناقشت فيها هذه الأفكار مع أناس عقلاء.. أليس هؤلاء من الطيبين؟

- لا، ولا واحد منهم. كلهم طائفيون.

- هل أصبحت أنت نفسك طائفياً.

- أنا كذلك. هذا البلد جعلنى طائفياً. ولا يلومنى أحد

قال سودهاموى بشك:

- هذا البلد يجعلك طائفياً؟

- نعم هذا البلد. ضغط سورنچان بأسنانه على كلمة «البلد» صمت سودهاموى. نظر سورنچان إلى حطام الغرفة. شظايا وقطع الزجاج لا تزال على الأرض. ألا

تمزق هذه أقدامهم؟ لقد مزقت قلوبهم بالفعل.

رقد سورنچان في فراشه طوال النهار، لم يشعر برغبة في الذهاب إلى أى مكان. ولا برغبة في الحديث مع أى شخص. هل يجب أن يذهب ليلقى ولو نظرة سريعة إلى الجثة التى وجدوها تحت الجسر؟ هل يجب أن ينظر إلى الهيئة المتنفخة بالماء لمايا لو كان هذا جسدها فعلاً. لا. قرر ألا يذهب إلى أى مكان.

بعد الظهر بوقت كثير. نهض من الفراش وبدأ في التجول في الفناء. فجأة قرر أنه يجب أن يفعل شيئا ما. دخل البيت وأخرج كل كتبه وكومها على الأرض. في الداخل اعتقدت كيرونموى أنه يخرج الكتب ليضعها في الشمس لإخراج دود الكتب منها.

«رأس المال» أفكار لينين وإنجلز وماركس ومورجان، وچوركى وديستوفسكى وتولستوى وسارتر وبافلوف وطاغور ومانيك بانديو بادهايا ونهرو وآزاد، كتب في علوم الإجتماع والاقتصاد والسياسة والتاريخ، كتب في حجم الصخور وكتب أصغر من ذلك بكثير.. عندما انتهى من جمعها كلها وصفَّها على الأرض، أشعل عود ثقاب وأشعل فيها النار. تماما كما يفعل المسلمون الأصوليون عندما يشاهدون الهندوس، هكذا تفعل النار عندما تجد الورق. امتلأ الفناء بالدخان الأسود. رائحة الورق المحترق نبهت كيرونموى فجاءت من غرفتها. ابتسم لها سورنچان وقال :

- هل تريدين أن تدفئى نفسك على النار؟ لماذا لا تأتين؟

سألته كيرونموى بصوت قلق:

- هل جننت؟

- نعم يا أمى. طوال عمرى كنت فتى طيبا. الآن قررت أن أصبح مجنونا. اذا لم يكن المرء مجنونا، فليس هناك أى راحة.

وقفت كيرونموى بالباب تراقب لهيب أضحية سورنچان. لم تندفع الى الحمام لتحضر بعض الماء لإطفاء النيران كما يفترض أن تفعل. خلف الشعلات السوداء

السميكة كان يظهر جسم سورنچان بالكاد. فكرت كيرونموى، يبدو وكأن سورنچان نفسه فى النار.

داخل المنزل زاد من هم سودهاموى أن ابنه اللامع، المجتهد فى دراسته، الذى كان محصناً ضد السم حتى الآن، كان الآن يتجرع السم بنفسه. طوال هذه الساعات من الرقاد فى الفراش، والمناقشات الصاخبة مع أصدقائه، وشتم المسلمين، والآن حرق الكتب..

أدرك سودهاموى مدى الجرح الذى يعانى منه سورنچان ومدى إمتلائه بالألم. لقد تألم على يد أسرته ومجتمعه وفوق ذلك بلده، واليوم يحرق نفسه فى لهيب عقدة النقص.

ابتهج سورنچان بالنيران. فى كل أنحاء البلد هكذا تحرق بيوت الهندوس. ولكن هل هم يحرقون البيوت والمعابد فقط، ألا يحرقون قلوب وعقول الهندوس أيضا؟ عزم سورنچان على نبذ أفكار سودهاموى المثالية من اليوم. سودهاموى كان يؤمن بأيديولوچية اليسار، وسورنچان تربى على دوجمائيته، ولكنه لن يتمسك بها لأكثر من ذلك. لماذا يفعل، وهو قد سمع اليساريين أنفسهم يصفون الهندوس بالأوغاد!

عينا سورنچان المحروقة بالدخان، امتلأت بالدموع. هل هى دموع الأسى، أم أنها بسبب الدخان فحسب؟ شعر بسعادة عندما انطفأت النيران ولم تبق على شئ من الكتب سوى الرماد. حتى الماضى القريب كانت تشحنه بأفكارها ومبادئها الزائفة. كان مريضاً ومجهداً من هذه المبادئ. وتمنى أن يرفس هذه المبادئ بكل قوته. لماذا يلتزم وحده بمثل هذه المعتقدات؟ معظم الناس يرشفون من كوب المعرفة ولا يشربون منه أبداً. لماذا يعب هو وحده بغباء من نبع المعرفة؟

عندما انتهت الأضحية أراد أن ينام. حاول ولم يستطع. واصل التفكير فى راتنا. لم يلتق بها منذ فترة طويلة. تساءل عن أحوالها. فكر فى أن عينيها السوداوين العميقتين معبرتان للغاية حتى أنها لا تحتاج إلى أن تتكلم. لابد أنها تأمل فى أن ياتى سورنچان ذات يوم ويطرق بابها ويجلسان ويتحدثان معاً عن حياتهما أثناء تناول الشاى. وهو راقد فى السرير، قرر أن يزورها هذا المساء وأن يقول لها:

- لماذا ينبغى أن أكون أنا فقط الذى يأتى لزيارة الناس؟ ألا يرغب الآخرون فى زيارتى؟

تملك سورنچان الشعور الغريب بأنه ذات مساء كئيب سوف تأتيه راتنا فجأة وتقول له:

- شعرت بأننى وحيدة جدا يا سورنچان، ولذلك فكرت أن آتى لرؤيتك.

لقد مر زمن طويل منذ أن قبله أى أحد. بارفين اعتادت أن تقبله. كانت تحتضنه بقوة وتقول:

- أنت ملكى، ملكى أنا فقط. اليوم سأقبلك مائة قبلة

وإذا دخلت كيرونموى الغرفة فجأة كانا يسارعان بالتباعد. مع ذلك اختارت بارفين أن تتزوج شخص مسلم، على أمل أن تتجنب كل أنواع المشاكل. مع راتنا ليس هناك تعقيدات طائفية وعقائدية، ولقد وضع حياته التعيسة تحت قدميها وهى تعرف كل شئ عنها.

لابد أن يزورها هذا المساء. هكذا قرر، أن يغسل كل التراب وسخام الحريق عن جسده، ويرتدى قميصا نظيفاً ويذهب إلى بيتها. عندئذ سمع صوت طرقة على الباب. فتحه ليجد راتنا عند العتبة. بدت جميلة وهى ترتدى سارى ساحرا وتغطى يديها بالأساور التى تصدر رنيناً عندما تحركها. ابتسمت وامتلأ هو عجباً من جمالها ونعومتها.

- تعالى، تفضلى بالدخول..

بينما كان يدعوها سورنچان للدخول لاحظ شابا وسيما يقف خلفها. أين يمكن أن يدعوهما للجلوس؟ الغرفة فى حالة مزرية. أعطاها مقعداً مكسورا لتجلس عليه.

ابتسمت راتنا وقالت:

- خمن من الذى أحضرته معى ؟

لم يلتق سورنچان بأخيها من قبل وتساءل عما اذا كان هو هذا الشاب الصغير.

جلجل صوت راتنا مثل أساورها وهى تقول:

- إنه هيومااين ، زوجى

دوامة عنيفة إجتاحت قلبه. آخر شجرة لجأ إليها اقتلعت من جذورها أمام عينيه. كان يأمل أن يعوض حياته الضائعة بالاستقرار مع راتنا، ولكنها كانت هنا مع زوج مسلم!

امتقع وجهه بالغضب. كيف تفعل به هذا! أن يفكر أن الجرأة واتتها لكى تحضره إلى هنا. بالتأكيد هو لاينوى أن يجلس مع راتنا وزوجها الوسيم، وربما الغنى أيضاً، ليجرى معهما حواراً صغيراً فى غرفته الفقيرة المحطمة. ولا كان يرغب فى أن يصافحهما ويطلب منهما تكرار الزيارة. فلتذهب كل هذه الواجبات الاجتماعية إلى الجحيم. التفت إلى ضيفيه وقال بجفاء:

- أخشى أننى مضطر إلى الخروج لتأدية بعض الأعمال الطارئة وليس لدى وقت للحديث معكما.

المفاجأة والغضب تبديا على وجهيهما. وبسرعة اعتذرا عن الإزعاج ورحلا. وقف سورنچان متبلد المشاعر وقتاً طويلا ولم ينتبه إلا عندما جاءت كيرونموى إلى حجرته وقالت:

- هل أعدت المال الذى اقترضته؟

كلمة «اقترضته» بدت وكأنها سهم مسموم يقتحمه. نظر إلى كيرونموى دون أن ينطق بكلمة.

شعر سورنچان بالاختناق. بدت له غرفته كصندوق حديدى لا مخرج له. خرج إلى الشرفة لبعض الوقت، ولكن لا شئ كان بمقدوره أن يمنع عنه الحزن الذى غمره مثل المطر الغزير. جاءت كيرونموى بكوب من الشاى. وضعته على المائدة فى صمت كعادتها، ورحلت. لم يحاول سورنچان أن يشرب الشاى. رقد في سريره برهة ثم نهض مرة أخرى. هل ينبغى أن يذهب إلى الجسر لفحص الجثة؟ التفكير فى ذلك كان يزعجه. فجأة ظهرت أمام عينيه صورة للجسد الطافى فى نزح مياه المصرف

خارج المنزل. البيت كله صامت مثل بركة عتيقة. مثل الحشرات التى تعوم فوق الماء الصامت فى هذه البرك، كان أفراد البيت الثلاثة يمشون بحذر داخل هذا المبنى المتداعى دون أن يلتقوا، ودون أن يتواصلوا مع بعضهم البعض أبداً.

بدون أي انذار قطعت كيرونموى صمت البيت. بدأت فى النحيب بصوت كأنه يأتى من أعماق الأرض، شديداً وغير محتمل حتى أن سودهاموى جلس مشدوها، وهرع سورنچان إليها، ليجدها واقفة تستند برأسها إلى الحائط وتبكى بلا قدرة على التحكم أدرك سورنچان أن هذه الدموع لا يمكن ايقافها. هذه الدموع كان لابد لها أن تنطلق. لأيام وليال حبست هذه الدموع ولكن السد إنهار وليس هناك ما يمكن عمله سوى الانتظار. جلس سودهاموى ساكناً محنى الرأس. نحيبها الوحشى يمزق قلبه ويشعره بالعجز. أجهشت وأجهشت ولكن أحداً لم يسألها عن سبب بكائها. لم يكن هناك حاجة للسؤال ولم يعزها أحد لأنه لم يكن هناك أحد يستطيع ذلك.

سورنچان الذى بقى واقفاً عند باب الغرفة، مشى الآن بهدوء خشية أن تزعج خطوات قدميه دموعها.

منزل الأحلام إنهار حتى الأساس واحترق حتى الرماد. وكما صدمتهم كيرونموى بنحيبها المفاجئ، هكذا فعل سورنچان ايضاً. انفجر بالبكاء صائحاً: «أبى..» نظر إليه سودهاموى مذهولاً. أمسك سورنچان بيدى أبيه بين يديه وقال بتوسل:

– أبى ، كنت أفكر فى شئ واحد طوال الليلة الماضية أعلم أنك سترفض إقتراحى، ولكن ارجوك ان تقبله. أرجوك يا أبى.. أرجوك. فلنرحل عن هنا.

– نرحل إلى أين؟

– الى الهند.

بدا الاستياء على وجه سودهاموى، كأن ابنه قد شتمه. كما لو أنه لم يكن يتوقع منه أن ينطق حتى بهذا اللفظ. توقفت دموع كيرونموى بالتدريج. اهتز جسدها باضطراب وجلست على الأرض. واصل سودهاموى النظر إلى ابنه بقرف وهو يقول:

- هل الهند موطن أبيك أو موطن جدك؟ هل أحد من أسرتك يعيش فى الهند؟ هل تريد أن ترحل عن وطنك.. ألا تخجل من هذا ؟

- أى و طن تتحدث عنه يا أبى؟ ما الذى أعطاه هذا الوطن لك؟ ما الذى يعطيه لك الآن؟ ما الذى أعطاه لمايا؟ لماذا تبكى أمى هكذا ؟ لماذا تتأوه أنت طوال الليل؟ لماذا لا أستطيع أن أنام؟

- حوادث العنف تنشب فى كل مكان. أليس هناك حوادث عنف فى الهند؟ ألا يموت الناس هناك؟ هل أحصيت عدد الذين ماتوا هناك؟

- لو أنها كانت حوادث عنف لفهمت ذلك يا أبى، ولكنها ليست كذلك. إنها ببساطة حالة قيام مسلمين بقتل الهندوس.

- هل تسمى نفسك هندوسيا، إذن؟

حاول سودهاموى أن ينهض من فراشه ثائراً، لكن سورنچان أعاده إلى الجلوس بيديه وواصل التوسل

- مهما قلنا أننا ملحدون، أو أننا إنسانيون، هؤلاء الذين فى الخارج سيقولون أننا هندوس سيقولون أننا أولاد حرام. كلما أحببنا هذا البلد، كلما فكرنا أنه وطننا، كلما أجبرونا على الانحناء فى الأركان. كلما أحببنا أناس هذا البلد، كلما عزلونا. لا نستطيع أن نثق فيهم يا أبى. أنت عالجت الكثيرين منهم بدون مقابل، ولكن كم منهم أتى ليقف بجانبك فى محنتك؟ عاجلاً أو آجلا سوف ندفع جميعا تحت أحد الجسور لنموت. أبى، دعنا نذهب.. دعنا نذهب..

- مايا سوف تعود.

- مايا لن تعود يا أبى. مايا لن تعود.

صوت سورنچان كان مثقلا بالحزن. عاد سودهاموى بظهره إلى فراشه. جسده أصبح منهكاً وغمغم بضعف:

- إذا لم أستطع أن أحمى مايا، فمن سأحمى إذن؟

– أنفسنا. هل يجب أن نبقى لنبكى فقط على خسارة ما قد خسرناه بالفعل؟ وفى وسط هذه الأوقات العصيبة؟ ليس لدينا اطمئنان، ليس لدينا شئ، أرجوك فلنرحل عن هنا.

– ما الذى سنفعله هناك؟

– أى شئ. ما الذى نفعله هنا؟ هل أحوالنا على ما يرام هنا؟ هل نحن سعداء؟

– سيكون وجودنا بلا جذور..

– ما الذى ستفعله بالجذور يا أبى؟ اذا كانت جذورك بهذه القوة فلماذا إذن تختبئ خلف الأبواب والنوافذ المغلقة؟ هل ستبقى مختبئاً لبقية عمرك؟ لقد أصبحت عادة لديهم أن يقتحموا بيوتنا وأن يقتلونا. أشعر بالعار من العيش مثل الفأر ياأبى. العار يمزقنى، ولكن يدى مقيدتان. عندما أغضب هل استطيع أن أحرق بيتين من بيوتهم؟ لماذا يجب أن نكتفى بالجلوس ومشاهدة انفسنا ونحن نهان ونشرد؟ إذا صفعنى مسلم، لماذا لا يحق لى أن أرد الصفعة؟ لا يا أبى .. فلنرحل عن هنا. أرجوك.

– الموقف يهدأ الآن بعض الشئ. لماذا تقلق هكذا؟ لا يمكن أن تترك نفسك لمشاعرك.

– يهدأ؟ هذا مظهر خادع تماماً. تحت الأعماق سيظل هناك الحقد والقسوة. انهم ينتظروننا بأظافر وأسنان عارية، بأفخاخ لن نتوقعها أبداً. لماذا تخليت أنت عن «الدهوتى» لترتدى البيچاما؟ لماذا لا تحظى بحرية إرتداء «الدهوتى»؟ فلنرحل بعيدا.. زمجر سودهاموى فى غضب:

– لا، لن أذهب. اذهب أنت إذا أردت.

– ألن تأتى؟

حول سودهاموى نظره بعيداً فى استياء وقال:

– لا

توسل سورنچان:

- أسألك مرة أخرى يا أبى.. من فضلك دعنا نرحل

كرر سودهاموى بحزم:

- لا

كلمة «لا» هوت مثل قضيب حديدى على ظهر سورنچان. لقد كان يعرف طوال الوقت أن محاولاته لن تسفر عن شئ. كان سودهاموى عنيدا وشديد التمسك بأفكاره، حتى أنه ليس هناك وسيلة يمكن بها أن تهزه. يمكن أن يركل ويضرب ولكنه لن يخلع جذور نفسه عن أرض وطنه. ثعابين وعقارب هذه الأرض يمكن أن تلدغه، ولكنه سيظل يسقط عليها.

توقفت كيرونموى عن البكاء. كانت تحدق الآن باستغراق إلى صورة رادها - كريشنا فى ركن الغرفة. بدا أنها تصلى للرب كريشنا، من أجل حياة خالية من الهم والقلق وعدم الأمان والعذاب والموت. بدا سورنچان وكأنه محكوم عليه وحده بالسباحة ضد تيار اليأس. نزل الليل. فى آخر الليل انكسرت فوقه موجة كاسحة من الإحساس بالوحدة. ليس بمقدوره ان يقول عن أى أحد أنه ملكه. ليس هناك أحد يعتمد عليه. كان غريبا فى وطنه. فهمه، بصيرته وإحساسه بالعالم كانوا يتلاشون إلى لاشئ. بدا كما لو أنه قد وصل إلى آخر طريقه تقريباً...

بدوا جميعا وكأنهم ينتظرون حدوث شئ فظيع لحياتهم. الآن، ليس من أجل مايا، ولكن من أجل مستقبله هو، كان قلبه يدق متسارعاً بالخوف والترقب.

كانوا وحدهم جميعا، وحدهم للغاية.. بالتأكيد معارفهم وأصدقاؤهم المسلمون قاموا بزيارتهم من وقت لآخر، ولكن لا أحد منهم منحهم الاطمئنان على أن الحياة مأمونة فى هذا البلد. لا أحد كان بإمكانه أن يقول لهم : «لا داعى للقلق. لا تنحنوا من الخوف. يمكنكم السير بأمان والعمل بلا خوف والضحك من القلب والنوم فى سلام.»

طوال الليل كان سورنچان يتقلب فى فراشه.

اليـــوم الثـــالث عشـــر

لاچـــا

أخيرا نام سورنجان فى ساعات الليل الأخيرة . وفى نومه انتابه حلم غريب . كان يمشى وحيدا بجوار النهر. وأثناء سيره جاءت موجة عالية وسحبته إلى العمق . حاصرته دوامة وبدأ فى الغرق ببطء . كان يريد النجاة ولكن أحداً لم يكن هناك ليجره إلى الشاطىء . وأثناء غرقه فى هذه المياه العميقة وجد سورنچان نفسه يتصبب عرقا .

فى اللحظة الاخيرة لمسته يد رقيقة وأيقظته . كان يائسا ومرعوبا وهو يغرق فى الدوامة ولا أحد يسمعه ، واكتشف ، فى أخر لحظة ، اليد التى امتدت لإنقاذه وأمسك بها بكل قوته .

عندما أكمل الإستيقاظ ، وجد أن ما يمسك به لم يكن سوى يد سودهاموى القويه . بمساعدة زوجته ، استطاع سودهاموى أن يمشى حتى سرير سورنچان ، حيث كان يصرخ ولده تحت قبضة الكابوس . الآن جلس سودهاموى ممسكا بابنه ، وعيناه تشعان بضوء غريب .

- أبى .

قفز سؤال أخرس داخل قلب سورنجان . الفجر أشرق تقريبا ومن خلال شقوق النافذة كان يتسلل ضوء الشمس . قال سودهاموى :

ـ هيا ، فلنرحل .

قال سورنچان بإستغراب :

- إلى أين سنرحل يا أبى ؟

- إلى الهند

كان صوته يتكسر والخجل يغمره ، ولكنه نطق بها ، أجبر نفسه على قولها . أجبر نفسه على أن يقول أنهم راحلون . وأدرك أن هذه هى الوسيلة التى يجب أن ينتهى بها الأمر، لأن الجبل القوى الذى بناه داخل نفسه كان يتضاءل يوماً بعد يوم .

عربية للطباعة والنشر
١٠٤،٧ شارع السلام ـ أرض اللواء المهندسين
تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ ـ ٣٠٣٦٠٩٨



لاجـــا.. رواية الغضب

فى السادس من ديسمبر ١٩٩٢ هدم المتطرفون الهندوس مسجد بابرى فى الهند فإندلعت أحداث عنف دموية بين الهندوس والمسلمين راح ضحيتها المئات من المسلمين.

فى بنجلاديش عبر المتطرفون المسلمون عن غضبهم بالإنتقام من الأقلية الهندوسية ، و أثار هذا غضب الأديبة تسليمة نصرين فكتبت هذه الرواية لتسجل وتدين ما تعرض له أبناء بلدها الهندوس من ظلم.

بمجرد صدور الرواية بيع منها ستون ألف نسخة فى خمسة أشهر ، قبل ان تقرر حكومة بنجلاديش مصادرتها لإرضاء المتطرفين ، الذين طالبوا بدم الأديبة ورماد الرواية.

بعد شهور أخري من المواجهة وبعد حوالي عامين علي نشر الرواية اضطرت تسليمة نصرين إلي اللجوء السياسى لأوربا ، هرباً من السجن والقتل.

احداث الرواية لا تزال تدور فى الهند وبنجلاديش وبلاد أخرى من العالم، وقراءتها لا تزال تثير الخجل ، والألم ، والغضب علي المتعصبين، و المؤلفة ، والعالم بأسره .

الناشـــر

دار الخيـال - القاهرة